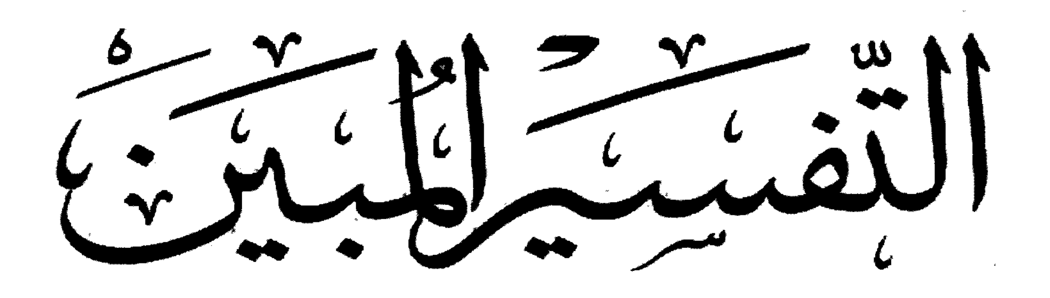


ألّفه وكتبه:
الفقير إلى عفو ربه

الدكتور/ عبد الرحمن بن حسن النفيسة

صاحب
مجلة البحوث الفقهية المعاصرة

المجلد الثاني

ح مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النفيسه ، عبد الرحمن بن حسن

التفسير المبين. / عبد الرحمن حسن النفيسه . - الرياض ، ١٤٢٩هـ

٦مج

ردمك : ٧-٠-٩٠٠٣٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

١-٢-٩٠٠٣٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

١- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٢٩ /٣٦١٤

رقم الايداع : ١٤٢٩ /٣٦١٤

ردمك : ٧-٠-٩٠٠٣٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

١-٢-٩٠٠٣٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

يطلب هذا التفسير وكتب المؤلف من

الدار التدمرية للنشر والتوزيع بالرياض

هاتف : ٤٩٢٤٧٠٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة آل عمران

مدنية وآياتها مائتا آية

وقد ورد في فضلها أقوال كثيرة منها: قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: (**اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران**)[١]. وقوله: (**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران**). وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال - يقول الراوي النواس بن سمعان - ما نسيتهن بعد قال: (**كأنهما غمامتان أو ظُلَّتَان سوداوان بينهما شرق أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما**)[٢]. وسميت السورتان بالزهراوين لاشتراكهما في ذكر اسم الله الأعظم وهو في سورة البقرة ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[٣]. وفي سورة آل عمران ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٤]. وقد نزلت الآيات الأولى من هذه السورة بسبب وفد نجران؛ فقد وفد هؤلاء وهم نصارى على رسول الله عليه الصلاة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، برقم (٨٠٤)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٣ ص١٤٨ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، برقم (٨٠٥)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٣ ص١٥٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٦٣ .

(٤) سورة آل عمران من الآية ٢ .

والسلام وعددهم ستون رجلاً منهم أشرافهم أربعة عشر ومن هؤلاء الأربعة عشر ثلاثة نفر يرجع إليهم الوفد.

وقد دخلوا على رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر عليهم ضرب من الثياب اليمانية، وجبب وأردية، فلما حانت صلاتهم قاموا فصلوا في مسجد النبي تجاه المشرق فقال رسول الله ﷺ: (**دعوهم**) وكانوا متعصبين لدينهم، وكان لهم كنيسة كبيرة في نجران يقصدها النصارى المجاورون لهم، ثم أقاموا بالمدينة أياماً يناظرونه عليه الصلاة والسلام في عيسى ويزعمون أنه ابن الله، ورسول الله يرد عليهم بالبراهين والأدلة الساطعة بأن عيسى ليس ابناً لله وحاشا الله أن يكون له ابن وأن عيسى مخلوق من مخلوقاته وعبدٌ من عبيده ولكنهم ظلوا يجادلون فنزلت فيهم الآيات الثمانون من السورة فلما امتنعوا عن الاستجابة لنداء الحق دعاهم رسول الله إلى (المباهلة)(١).

وتشتمل السورة على أحكام كثيرة حول تعظيم الله، وأنه الذي نَزَّلَ القرآن، وأنزل من قبله التوراة والإنجيل، وأن عيسى مخلوق من مخلوقاته، وأنه ليس إلَهاً ولا ابناً لله. وفي هذا إنكار وردٌّ على عبث النصارى وإشراكهم مع الله غيره، ومن الأحكام في السورة: ذكر مسألة أهل نجران ولجاجتهم الباطلة، والتوكيد على أنه لا دين إلا دين الإسلام

---

(١) أخرجه الواحدي في أسباب نزول القرآن ص٢١٧-٢١٨، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ج٣ ص١٦٢، والمباهلة: هي الملاعنة: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالم منَّا. النهاية في غريب الحديث والأثر ج١ ص١٦٧ .

وأن ابتغاء غيره كفر وضلال. ومنها: ما ذكره الله عن حكم الحج، ووضع بيت الله الحرام في مكة، وتذكير المسلمين بنعمة الله عليهم في الوحدة بعد الفرقة والأمن بعد الاقتتال وإرشادهم إلى الاعتزاز بدينهم، والحذر من فتن اليهود وخططهم. وذَكَّر المسلمين بيوم أحد وما حصل فيه، ووعد الله للمؤمنين بالنصر، والتأييد، وأن العاقبة لهم. ثم ذكر جل ثناؤه: أن عاقبة الكفر الخسران، والانهزام مهما تقلبوا في البلاد، وأن ما يحصل لهم من نصر ليس إلا مجرد متاع، وأن مصيرهم العذاب خلافاً لأهل التقى الذين ينعمون بعاقبة تقواهم، وتفانيهم في العمل في سبيل الله.

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ الٓمٓ ﴾ سبق الحديث عنها. ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: ليس ثمة معبود بحق سواه، فالعبادة له في إطلاقها، وفي علانيتها وسرها. ﴿ ٱلۡحَيُّ

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ أي: أنه الحي بذاته العلية، وبسمعه، وبصره، وقوته، وإرادته، وأنه القائم على مخلوقاته في السموات والأرض.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المخاطب رسول الله والمراد بالمنزَّل القرآن المعروف بآياته، وحروفه، ومعانيه. ﴿بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: أن نزوله كان بالحق لكونه حقّاً في ذاته، وصادقاً فيما جاء به، ومصدّقاً له نفسه ولغيره من الكتب المنزلة (أي: قبل تحريفها). ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ التوراة الكتاب الذي أنزل على موسى، والإنجيل الكتاب الذي أنزل على عيسى. وقد ذكرنا من قبل أن التوراة تسمى عند النصارى بالعهد القديم، وأن الإنجيل يسمى العهد الجديد.

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ لما ذكر الله نزول التوراة والإنجيل قبل نزول القرآن ذكر أن نزولهما كان لهداية الناس الذين نزلت في زمانهم، والهدى المراد هو توحيد الله وعدم الإشراك به، وتنزيهه عن الولد كما تزعم النصارى في بنوة عيسى لله. كما أن المراد بهذا الهدى إخبارهم بنبوة محمد، ورسالة الإسلام، وأن عليهم أن يؤمنوا بذلك فالهدى يشمل إذاً ما دعوا إليه من التصديق بهذه الرسالة. ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: القرآن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المراد بهم الذين جحدوا أو أنكروا

آيات الله، ونفوا خلق الخالق وربوبيته، وألوهيته. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: أليم يحل بهم يوم القيامة. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: أنه عزيز بقوته، وسلطانه، وجبروته، وهو ذو انتقام لمن كذب بآياته وكفر به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في هذا بيان من الله عن علمه المطلق بما يحدث في الأرض وما يحدث في السماء من أفعال خلقه.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ بعد تأكيد الله لعلمه المطلق في معرفة أحوال خلقه السفلي والعلوي بيَّن أنه المصور لما في أرحام النساء. وفي هذا تأكيد، ونفي في مسألة نبيه عيسى أما التأكيد فهو تصوير عيسى في رحم أمه مريم مثله في ذلك مثل بقية المخلوقين رغم ما لخلقه من الصفة المعلومة فلا يختلف إذاً عنهم في شيء من التصوير في الرحم. وأما النفي فهو لما زعم نصارى نجران وغيرهم من النصارى أنه إلَه أو أنه ابن لله وهذا النفي جاء من كونه أحد المخلوقين في تصويره فهو إذاً بشر مثلهم. ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: أن هذا التصوير يتم بمشيئة الله وقدرته والتصوير يشمل الشكل من حيث اللون، والطول، والقصر، ويشمل الماهية أيضاً والطبيعة التي يكون عليها المخلوق من حيث كفره أو إيمانه. كما يشمل هذا التصوير جنس

المخلوق من الأنوثية أو الذكورية. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ المراد أنه لا إلَه غيره لتفرده بالألوهية المطلقة؛ وفي هذا نفي لزعم نصارى نجران عن ألوهية عيسى، وتعريض بجهلهم وكفرهم بهذا الزعم. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القوي ذو المنعة، والقدرة. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في مراده، وعلمه، وتصرفه في خلقه حين يصورهم في أرحام أمهاتهم.

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم: بأن الله إلَه واحد، وأنه لا إلَه بحقّ في الوجود إلا هو وهذا أحد أركان الشهادة. ومنها: الحكم أن الله قد أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ، وفي هذا توكيد لنبوته ورسالته. ومنها: الحكم بأن الله أنزل التوراة، والإنجيل، ثم القرآن، لإقامة الحجة على المنزَّل عليهم حتى لا يقولوا ما جاءنا من نذير. ومنها: الحكم بأن الذين يكذبون بآيات الله سوف يلاقون أشد العذاب يوم القيامة. ومن الأحكام: تقرير علم الله المطلق بما في الكون علوه وسفليه. ومنها: نفي مزاعم النصارى، وبطلان اعتقادهم في ألوهية عيسى.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ

وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المخاطب رسول الله يبين الله له أنه قد أنزل عليه القرآن ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ اختلف المفسرون في المراد من ذلك فقيل: إن المحكمات من آيات القرآن ما عرف تأويله، وفُهِمَ معناه، وتفسيره وهذا قول الصحابي جابر بن عبد الله، وسفيان الثوري، والشعبي وغيرهم[1]. أما المتشابه فهو ما استأثر الله بعلمه دون خلقه، ومن قال بهذا مَثَّل له بوقت قيام الساعة، وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم. كما مثَّل لذلك بالحروف المقطعة في مقدمات السور مثل ﴿الٓمٓ﴾، و﴿الٓمٓر﴾. قال الإمام القرطبي: وهذا أحسن ما قيل في المتشابه[2]. وقيل: المراد بالآيات المحكمات الناسخ في القرآن، وحرامه وفرائضه، وما يؤمن به ويعمل به، وهذا قول ابن عباس. أما الآيات المتشابهات فهي المنسوخة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج٤ ص٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج٤ ص١٠-١١.

منه، أو مقدمه، ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به[١]. وقيل: إن الآيات المحكمات ما كان قائماً بنفسه لا يرجع فيه إلى غيره نحو: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[٢]. ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾[٣]. والمتشابهات نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[٤]. يرجع فيه إلى قوله ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾[٥] وإلى قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾[٦].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ لما كان من عادة المخلوق الاستشكال فيما يعجز عنه فهمه، ويقصر عنه إدراكه؛ فهو إما يحاول البحث عنه قصد تسديد هذا العجز من نفسه، ومراده، ومبتغاه الفائدة فيما يبحث عنه، ومثاله: الأعرابي الذي سأل رسول الله ﷺ أن يعلمه الإسلام[٧]. وإما أن يكون مراده من

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج١ ص٣٢٦، وروح المعاني للألوسي ج٣ ص١٣٣ .

(٢) سورة الإخلاص الآية ٤ .

(٣) سورة طه من الآية ٨٢ .

(٤) سورة الزمر من الآية ٥٣ .

(٥) سورة طه من الآية ٨٢ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ج٤ ص١٠-١١، والآية من سورة النساء من الآية ٤٨ .

(٧) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١ ص١٣٠، والأعرابي الذي سأل رسول الله ﷺ أن يعلمه الإسلام هو ضمام بن ثعلبة السعدي وافد بني سعد بن بكر بعثته بنو سعد إلى رسول الله ﷺ ليسأل عن فرائض الإسلام، فلما رجع إلى قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى ... إنهما ما يضران وما ينفعان .. فما أمسى من ذلك اليوم في حاضرته من رجل ولا امرأة إلا مسلماً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «فما سمعنا بوافد قط كان أفضل من ضمام»، أسد الغابة، ج٢ ص٤٧٣-٤٧٤ .

الاستشكال المجادلة الباطلة، ومثاله: سؤال نافع بن الأزرق ابن عباس قائلاً: إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي قال: ما هو؟ قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[١]. قال ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[٢]. وقال ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[٣]. وقال ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٤] فقد كتموا في هذه الآية. وفي النازعات ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ إلى قوله ﴿دَحَىٰهَآ﴾[٥] فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله ﴿طَآئِعِينَ﴾[٦] فذكر في هذا خلق الأرض قبل خلق السماء، وقال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٧]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٨]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[٩]. فكأنه كان ثم مضى.

ولم ينكر ابن عباس رضي الله عنهما على هذا المجادل جداله بل أجابه قائلاً: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النفخة الأولى ثم ينفخ

---

(١) سورة المؤمنون من الآية ١٠١ .
(٢) سورة الطور الآية ٢٥ .
(٣) سورة النساء من الآية ٤٢ .
(٤) سورة الأنعام من الآية ٢٣ .
(٥) سورة النازعات الآيات ٢٧ – ٣٠ .
(٦) سورة فصلت الآيات ٩ – ١١ .
(٧) سورة النساء من الآية ١٥٢ .
(٨) سورة النساء من الآية ١٥٨ .
(٩) سورة النساء من الآية ١٣٤ .

في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون؛ ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون. وأما قوله ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم وقال المشركون: تعالوا نقل لم نكن مشركين، فختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم؛ فعند ذلك عرف: أن الله لا يكتم حديثاً وعنده يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين.

وخلق الله الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات في يومين، ثم دحا الأرض أي: بسطها فأخرج منها الماء والمرعى، وخلق فيها الجبال، والأشجار، والآكام، وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ فخلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام وخلقت السماء في يومين .

وقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لم يزل. ولا يزال كذلك فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد. ويحك، فلا يختلف عليك القرآن، فإن كلاً من عند الله[١].

قلت: وقد نحا منحى المستشكلين بقصد المجادلة الباطلة والتشكيك نوعان من المنتسبين للإسلام: الأول: الزنادقة الأقدمون،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص١٢، والأثر أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم ج٨ ص٤١٨ - ٤١٩ .

كحال القرامطة، ومن سلك مسلكهم؛ وهؤلاء حكمهم حكم الكفرة بالقرآن ويدخل في حكمهم -كما ذكر من قبل- الملحدون الجدد في عصرنا هذا، الذين يصفون أنفسهم بالعلمانيين المتطرفين ويقولون: إن للقرآن وجهين: أحدهما وجه تاريخي، ويقصدون بذلك الآيات التي نزلت في كفار قريش، وفي اليهود، والمنافقين، ويرون استبعاد هذه الآيات من القرآن لكونها أصبحت آيات تاريخية انتهت بانتهاء الفترة التي نزلت فيها. أما الوجه الآخر: فهو كما يقولون الأحكام التشريعية فهذه لا تزال باقية الحكم. وقصد هؤلاء، وغايتهم هدم الدين من أصله لأن أصله كتاب الله؛ فإذا حرف هذا الأصل بأي طريقة انهدم ما بني عليه، وهم بهذا القول يخدمون أعداء الإسلام في خططهم الجديدة المتمثلة في إضعاف عقيدة المسلمين وتشكيكهم في دينهم من قبل بني جلدتهم بعد أن تم تهيئتهم، والتخطيط لهم، وإحكام السيطرة على عقولهم، وإضلالهم بعرض من الدنيا.

وَمَثَلُ هؤلاء الملحدين الجدد، مثل قوم من بني إسرائيل فيما حكاه الله من إيمانهم ببعض كتابهم، وكفرهم ببعضه في قوله جل ذكره ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة من الآية ٨٥.

النوع الثاني: من يستشكل تفسير الآيات، أو الحروف المقطعة، ولو لم يكن مبتغياً الفتنة، ولكنه يثير ما لا فائدة له هو، أو لغيره من إثارته مما قد يحدث عند عوام المسلمين، فهذا مما يستحق العقاب بتعزيره وقد فعل ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع صبيغ بن عسل فقد قدم هذا المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن وعن أشياء فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فبعث إليه فأحضره، وقد أعد له من عراجين فلما حضر قال له عمر: من أنت ؟ قال: أنا عبد الله صبيغ فقال عمر رضي الله عنه: وأنا عبد الله عمر ثم قام إليه فضرب رأسه بعرجون فشجه، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه فقال صبيغ: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي(١).

ويدخل في هذا النوع أخلاط ممن ينتسبون إلى الإسلام ممن ينتابهم التأثر، والانفعال بما يصدر من المجامع التبشيرية ذات المنحى الديني، والسياسي من تشكيك وشبهات تهدف إلى الطعن في دين الله، وتشجيع الذين يقومون بهذا التشكيك؛ إما لانخداعهم بما يصدر عن هذه المجامع دون أن يعرفوا غاياته، وأهدافه، وإما لكونهم رسلاً لهذه المجامع بعد أن فسدت عقيدتهم فضلّوا عن سبيل الله، وطريقه المستقيم.

قوله ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي: أن هدفهم ليس هدفاً سامياً، ولا مقصداً شريفاً، بل هو بث الفتنة بين المسلمين بتشكيكهم في دينهم.

---

(١) الأثر أخرجه الدارمي في المقدمة ج١ ص٦٦، والجامع لأحكام القرآن ج٤ ص١٤-١٥ .

﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ وذلك بسؤالهم عن أمور اختص الله بها وحجبها عن خلقه. كمسألة الروح، ووقت خروج الدجال، وقيام الساعة ونحو ذلك من المغيبات.

وبهذا يكون الله ذم هؤلاء ومنهم نصارى نجران، ومن في حكمهم، وذلك بوصفهم بأبشع الصفات، وهي: أن في قلوبهم زيغاً عن الهدى باتباعهم المتشابه من القرآن وابتغائهم الفتنة بين المسلمين وابتغائهم تأويل القرآن حسب أهوائهم لقولهم إن القرآن يشهد أن الله ثالث ثلاثة بما يقع في القرآن من ضمير المتكلم ومعه غيره مثل قوله ﴿قَضَيْنَآ﴾ وأن هذا الضمير - كما زعموا كذباً - له وعيسى ومريم، ومعلوم أن هذا الأسلوب يأتي في العربية للمتكلم المعظم نفسه، فكلامهم هراء لا قيمة له.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: ما يعلم تفسير المتشابه إلا الله، فهو الذي أنزله وهو العليم بأحكامه وأسراره. ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ قيل: إن بعض الراسخين في العلم يعرف المتشابه؛ واستدلوا على ذلك بقول ابن عباس: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله(١).

ولعل المراد من الآية هو أن الراسخين في العلم مع رسوخهم فيه يربؤون بأنفسهم عن تأويل المتشابه منه ويقولون آمنا به أي: كما

---

(١) الدر المنثور ج٢ ص١١ ، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٣ ص١٨٣ .

جاء في محكمه ومتشابهه، ويردون المتشابه إلى الله دون أن يخوضوا فيه أو يؤولوه وشاهده قولهم ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ ويستدل على هذا بتوقف السلف خاصة من الصحابة عن تأويل المتشابه من القرآن وهم أقرب إلى فهمه ومعرفة أحكامه، لكونهم عاصروا نزوله، وعاشوا مع من أُنزِل إليه، وهو رسول الله ﷺ وفي هذا قال أبو بكر رضي الله عنه: أي: أرض تُقِلّني، وأي سماء تُظِلّني إن قلت في كتاب الله بما لا أعلم(١).

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لا يفهم العلم ومعانيه وأحكامه إلا أصحاب العقول السليمة.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ والمراد أن الراسخين في العلم كما يقولون: كل ذلك من عند ربنا، يقولون ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ وهذا بيان منهم بأن الله هداهم للإيمان فيدعونه أن يثبتهم عليه، وألا يزيغ قلوبهم عن الهدى وأن يهبهم منه رحمة للثبات على دينه، فهو الوهاب لهذه الرحمة. ولا شك أن الثبات على دين الله هو مبتغى المؤمن وغايته. وفي الحديث الذي روته أم سلمة أن أكثر دعاء رسول الله ﷺ: (**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**)(٢).

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ وكما يسأل

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٨٨.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، برقم (٢١٤٠)، ج٤ ص٣٩٠، وأحمد في المسند ج٤ ص١٨٢، وابن ماجة في كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ برقم (٣٨٣٤)، ج٢ ص١٢٦٠.

الراسخون في العلم الثبات على دين الله يقرون بأن ربهم سوف يجمع الناس يوم القيامة، وأن هذا اليوم آت لا ريب فيه لأن الله وعد بذلك، وهو لا يخلف ما وعد به .

وفي الآيات السابقة مدح الله الراسخين في العلم بأفضل الصفات لأنهم علماء؛ وفي العلم فضل عظيم كما قال الله عزوجل ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. ولأنهم كذلك رسخوا في العلم فصار لهم رسوخ في فهمه، ولأنهم آمنوا بالقرآن في محكمه ومتشابهه دون تحريف في آياته كما فعل نصارى نجران، ومن على شاكلتهم. ولأنهم سألوا الله ألا يزيغ قلوبهم، وأن يثبتهم على دينه، ثم ختم الله صفتهم بأنهم يقرون بأن ربهم سوف يجمع الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه وأنه لا يخلف ميعاده.

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بأن في كتاب الله ما هو محكم ومنه ما هو متشابه، فما كان محكماً منه يجب العمل بمقتضاه قولاً وفعلاً، وما كان منه متشابهاً يجب ترك أمر تأويله إلى الله كما قال عز وجل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ونقول فيه كما قال الراسخون في العلم ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾. ومن الأحكام: أن أهل الضلال وأهل الأهواء والمشككين والملحدين يتبعون

(١) سورة الزمر من الآية ٩ .

المتشابه من القرآن وهؤلاء يجب البراءة منهم، بل وكشف ضلالهم وزيغهم. ومن الأحكام: وجوب سؤال الله الثبات على الحق عند ظهور الأهواء والفتن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ لعل المراد بهؤلاء نصارى نجران، ويهود المدينة الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله محمد ﷺ. وقوله ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أن ما يملكونه من كثرة أموال وكثرة أولاد، لن تنفعهم يوم القيامة، وهؤلاء سيكونون وقوداً أي: حطباً للنار.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وهؤلاء الذين كفروا، ولم يصدقوا برسالة محمد ﷺ، وما جاء به من الهدى مَثَلُهمْ في ذلك مثل آل فرعون الذين كذبوا بما جاءهم به موسى من البينات فلم تغن عنهم الأموال ولا الأولاد،

فكانت عاقبتهم أن أخذهم الله بذنوبهم، ثم عذبهم عليها، وشاهد هذا قول الله جل ذكره ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[1].

أحكام ومسائل الآيتين:

الحكم بأن المال والولد لا يغني عن صاحبه شيئاً، وإنما يغنيه عنه عمله الصالح كما قال تعالى ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[2]. وشاهده أن أموال فرعون وقومه لم تنفعهم لمّا كذبوا بآيات الله.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ (١٣) ﴾.

بيان الآيتين:

في رواية ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما أصاب قريشاً يوم بدر جمع اليهود وقال لهم: (**يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل**

---

(١) سورة غافر الآية ٤٦ .

(٢) سورة الممتحنة من الآية ٣ .

بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم) فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك قتلت أقواماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة، أما والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس. فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآية[1]. وقيل: إن يهود يثرب كانوا قد عاهدوا رسول الله ﷺ إلى مدة فلما حدث للمسلمين ما حدث لهم يوم أحد نقض اليهود العهد، وذهب كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أبي سفيان بمكة وقال لهم: لتكونن كلمتنا واحدة فلما رجعوا إلى المدينة أنزل الله فيهم هذه الآية، وقد تحقق هذا الوعد فانهزم اليهود في حربهم لرسول الله ﷺ، وقتل منهم من قتل، وتفرق منهم من تفرق بعد جلائهم[2].

قوله ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أي: أن نصيبكم سيكون هزيمتكم. ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: أن عاقبتكم هي سوقكم إلى جهنم لتذوقوا سوء فعلكم وكفركم. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: بئس القرار.

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ المراد بالخطاب اليهود والآية العلامة والدلالة. ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢١٩ ، وجامع البيان عن تأويل أي القرآن للطبري ج٣ ص١٩٢ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٢١٨ .

﴿كَافِرَةٌ﴾ الفئة التي تقاتل في سبيل الله هي: محمد رسول الله وأصحابه، والفئة الأخرى: فئة كافرة وهم كفار قريش تقاتل في سبيل الشيطان ليس لها هدف إلا الكفر والجحود، والصد عن سبيل الله. ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ قيل: المراد أن المسلمين يرون الكفار مثليهم أي: ضعفيهم في العدد، وفي هذا قال عبد الله بن مسعود: قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً وذلك قول الله عز وجل ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾[1]. وفي رواية أخرى عن عبد الله ابن مسعود قوله: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر؛ حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة ولما أسرنا رجلاً منهم قلنا: كم كنتم قال: ألفاً. ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي: بالعين المجردة وبالقلب[2].

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يقوي ويعزز بنصره من يشاء من عباده؛ وهم الذين استقاموا على طاعته، وجاهدوا في سبيله. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: أهل العقول لما يرونه من نصر الله، وتأييده للمؤمنين، وإذلاله وخذلانه للكافرين.

(١) سورة الأنفال من الآية ٤٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٣٣١ .

أحكام ومسائل الآيتين:

الحكم بأن الكافرين مهما كانت قوتهم لابد أن يُغلبوا في حروبهم، وتآمرهم على المؤمنين؛ لأن حكمة الله اقتضت أن ينصر أهل دينه ويذل أعداءه في الدنيا. أما في الآخرة فسيلاقون العذاب يوم يحشرون إلى الله لا تنفعهم قوة، ولا ينصرهم ناصر.

وقد لقي الكافرون الهزيمة ومرارتها يوم بدر، ثم لقوها في كل غزوة من غزوات المؤمنين.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾.

بيان الآية:

لما ذكر الله أن أموال الكافرين وأولادهم لن تغني عنهم من الله شيئاً، ثم ذكر أن الفئة المؤمنة رغم قلة عددها تغلب الفئة الكافرة رغم كثرتها، بيَّن جل ذكره نمطاً من واقع الإنسان ورغباته المادية التي تسيطر على سلوكه وربما أدت به إلى الانحراف والبعد عن الله؛ ولعل في هذا تعريضاً باليهود المعروفين بحبهم للمال بأصنافه فقال ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ الاستمتاع

بالنساء، وحب البنين ليس مذموماً في ذاته طالما أنه في حدود المباح؛ ولكن المذموم بل والمحرم عندما يكون حب الشهوة للنساء والبنين يفضي إلى الفتنة ففتنة النساء قال عنها رسول الله ﷺ: **(ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء)**[١]. أو فتنة البنين عندما يجهد الأب نفسه لجمع المال لهم، دون النظر في حله أو حرمته ولهذا قال الله جل علاه ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[٢].

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ لا شك أن حب المال المعبر عنه بالذهب والفضة من أشد ما يفتن الإنسان فيه فيهتم بجمعه دون أن يهتم بكيفية جمعه وتحصيله، وهذا هو ما عاناه الإنسان في ماضيه، ويعانيه في حاضره من استغلال القوي للضعيف وسيطرة الغني على الفقير، وشيوع الربا، واستعمار البلدان المستضعفة ونهب ثرواتها وطاقاتها. والإسلام ليس ضد المال فهو قوام الإنسان ومتاعه وزينته في الحياة الدنيا؛ ولكنه يحرم الافتتان به. والقناطير جمع قنطار وهو العقدة الكبيرة من المال، والمقنطرة أي: مضعَّفة[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، برقم (٥٠٩٦)، صحيح البخاري مع فتح الباري، ج٩ ص٤١ .

(٢) سورة التغابن من الآية ١٤ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٣٠-٣١ .

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ الخيل وإن كانت مصدراً من مصادر القوة، والزينة، والتفاخر في الماضي فلا تزال مصدراً من مصادر الزينة في هذا الزمان رغم ماديته وهي مثال لأي زينة تكون لها نفس الأهمية حسب الزمان. ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ الأنعام واحدة من شهوات الإنسان، فقد تكون مصدراً من مصادر رزقه، وقد تكون مجالاً لزينته. ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ كذلك مجال لشهوته بوصفه مصدراً من مصادر رزقه أيضاً كما هو معلوم عن أهمية النبات في حياة الإنسان. ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أن هذه الشهوات الدنيوية متاع دنيوي مؤقت سرعان ما يزول مثله في ذلك مثل البرق حين يلمع في السماء فيضيء ما حوله، ثم ينتهي في لحظة من اللحظات. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ وفي هذا تهوين من شأن الدنيا وشهواتها وزينتها؛ والأهم من هذا حسن المآب أي: المرجع يوم القيامة.

أحكام ومسائل الآية:

الحكم بأن النساء والمال بأنواعه زينة في الحياة وقد يبتلي الله العبد بحبه اختباراً له ليرى ما إذا كان يشكر الله على ما أعطاه. وقد يحرم الله العبد من هذا كله ليرى ما إذا كان يصبر على قضائه. وحب الولد والمال والنساء ليس مذموماً في ذاته، ولكن المذموم بل

والمحرم عندما يكون هذا مفضياً إلى الفتنة، والصد عن سبيل الله وارتكاب حرماته.

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ هذا توجيه لرسول الله أن يقول للناس الذين زين لهم حب الشهوات أن هناك خيراً منها هي الجنات التي تجري من تحتها الأنهار أعدت للذين يتقون ربهم، وأن لهم الخلود فيها، ولهم فيها أزواج مطهرة من الأدران والأوساخ التي يتعرض لها نساء الدنيا. وفوق كل ذلك لهم رضوان من الله، وهو أنهم إذا دخلوا الجنة يقول الله تعالى لهم **(تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون يا ربنا وأي شيء أفضل من هذا فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً)**[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة، برقم (٧٥١٨)، صحيح البخاري مع فتح الباري، ج١٣ ص٤٩٦ .

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ يعني أن الذين اتقوا يدعون ربهم ويقولون يا ربنا إننا آمنا أي: صدقنا بما أنزلت وصدقنا برسولك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: اعف عما كان لنا من ذنوب. ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: نجنا من النار وهو في الوقت نفسه دعاء بدخول الجنة.

قوله ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وصف ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ لصبرهم عن المحرمات، وفي البأساء والضراء، وصبرهم عن شهوات الدنيا ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فيما يقولون ويفعلون. ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: الملتزمين بطاعة الله المجتنبين لمعاصيه. ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ أي: الباذلين أنفسهم وأموالهم في سبيل الله. ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ المراد أواخر الليل قبل طلوع الفجر، وقد أثنى الله عليهم في موضع آخر في قوله تعالى ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1]. وفي ذلك روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (**ينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول: أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له فلا يزال كذلك حتى ينفجر الصبح**)[2].

---

(١) سورة الذاريات الآية ١٨ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، برقم (١١٤٥)، صحيح البخاري مع فتح الباري، ج٣ ص٣٥ .

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بأن خير الآخرة أهم من متاع الدنيا. الحكم بأن نعيم الآخرة وخيرها أعد للمتقين الذين يقولون لربهم إنهم آمنوا به وصدقوا آياته، واتبعوا رسوله، ويسألون ربهم أن يغفر لهم وينجيهم من عذابه. الحكم بأن هؤلاء هم الذين صبروا عن المحرمات وفي البأساء والضراء، وصدقوا في إيمانهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، واستغفروا ربهم في ظلمات الليل.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

بيان الآية:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ أي: بيَّن أنه لا إلَه إلا هو وهذه شهادة من الله عن ذاته العلية أنه الإلَه الواحد الأحد وأنه لا إلَه في الكون العلوي والسفلي إلا هو ولا موجد للموجودات إلا هو. وهذه الشهادة أعظم كلمة في الوجود لأنها كلمة التوحيد الذي قامت عليه السموات والأرض، وخلق الله من أجله المخلوقات. وقد ذكر الإمام القرطبي عن الكلبي أن رسول الله ﷺ لما ظهر في المدينة جاءه حبران من أحبار أهل الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان فلما دخلا

على رسول الله عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: (نعم) قالا: وأنت أحمد ؟ قال: (نعم) قالا: نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك فقال لهما رسول الله: (سلاني) فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فأنزل الله تعالى على نبيه هذه الآية فأسلم الرجلان[١].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وهذا بيان منه عز وجل أن الملائكة وهم المقربون منه شهدوا بهذه الشهادة وأقروا بها. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ وهذه خصيصة وميزة لأهل العلم حيث بيَّن أنهم من الشاهدين على تفرده بالألوهية. وشهادة العلماء مبنية على العلم اليقيني لأن العالمين منهم بالعلم الشرعي قد عرفوا ذلك بما أنزل الله من العلم عن ألوهيته كما عرفوا ذلك من خلال الآيات الكونية المحسوسة الدالة على هذه الألوهية. أما العالمون بالعلم المادي فقد علموا ذلك من خلال مشاهدتهم واستقرائهم للعلوم التي يزاولونها؛ ومثال ذلك الأطباء: الذين يعرفون حقائق الأجسام ومكوناتها، وصنع الخالق لها، وما في خلقه لها من المعجزات الدالة على قدرته كما قال عز وجل ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[٢]. ومثاله أيضاً: الذين يذهبون بسفنهم إلى أعالي الفضاء فيرون ما فيه من المذهلات والأعاجيب التي يصغر عقل المرء عند رؤيتها مما يرى فيها

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٤١، وأسباب نزول القرآن للواحدي ص٢١٩ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٢١ .

ما يعجز عن تصوره بعقله البسيط. ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي: العدل في قوله وفعله وحكمه وإرادته. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ توكيد لما سبق عن ألوهيته المطلقة. ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب في كل أمر. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

أحكام ومسائل الآية:

الحكم أن الله تعالى شهد بذاته العلية أنه لا إلَه في الوجود إلا هو وشهادته عز وجل أعظم شهادة وأزكاها وأصدقها. كما شهد بألوهيته المطلقة الملائكة والراسخون في العلم، وشهادة هؤلاء هي أعظم شهادة بعد شهادة الله عز وجل.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾.

بيان الآيتين:

هذا هو الحكم الجازم في الرد على نصارى نجران وغيرهم بأنه لا

دين إلا دين الإسلام؛ ذلك أن الإنسان منذ نشأته تعرض للكثير من المعتقدات منها ما هو وضعي من عنده، ومنها ما هو سماوي من عند الله. أما الوضعي فكان تلقائياً وعفوياً وضعه الإنسان من عنده في صورة أعراف أو تقاليد ألفها ثم تدرج فيها من التعبير الشفهي إلى التعبير بالكتابة في صورة قوانين كقانون حمورابي، ونحوه مما عرف عند اليونانيين، والمصريين وغيرهم من الأمم التي تدرجت من وضع القبيلة إلى وضع الدولة في مفهوم تلك الأزمنة.

أما المعتقدات السماوية التي أنزلها الله هداية للبشر فكانت في صورة وحي من الله نقله أنبياء، ورسل إلى أقوامهم يبصرونهم بأنهم مخلوقون، وأن الذي خلقهم هو الله، وأن الخالق هو المستحق للعبادة، ولا يعبد إلا هو، ولا يملك النفع إلا هو، ولا يدفع الضر إلا هو. فكانت الدعوة الإبراهيمية وما عاناه إبراهيم عليه السلام من قومه في دعوته لهم إلى ترك الأصنام، وإخلاص العبادة لله؛ إلى الشريعة الموسوية التي جاء بها موسى لبني إسرائيل، وما عاناه منهم من اللجاجة وعدم التصديق وسؤالهم له للإتيان بالمعجزات. وكانت دعوات الأنبياء والرسل التي تتابعت تدعو الإنسان إلى عبادة الله وتوحيده مما عَرَّض بعضهم للأذى والقتل كما كان حال بني إسرائيل مع أنبيائهم، ثم جاءت رسالة عيسى مجددة للتوراة، ودعوتهم لعبادة الله وترك المجادلة بالباطل.

وهذه الدعوات، والشرائع في مختلف أنبيائها، ورسلها كانت محصورة في الأقوام الذين نزلت فيهم، ولم تستطع أن تنزع عبادة الأصنام من نفوسهم مما جعل البشرية آنذاك تعيش حياة مضطربة تتنازعها الأهواء، ويسيطر فيها الأقوياء على الضعفاء، ويسود فيها الفساد بكل صوره وأشكاله. وكانت بيئة العرب وأحوالهم في جاهليتهم صورة لما كانت البشرية تعيشه بكل قسوته وآلامه.

وقد أراد الله بحكمته أن يجعل للبشرية ديناً واحداً، ورسولاً ونبياً واحداً يصدق ما جاء من قبله من الكتب السماوية مع اختصاص أمته بالكثير من الفضائل، والنعم الإلَهية التي لم تكن للأمم السابقة. هذا النبي والرسول هو محمد بن عبد الله ﷺ كان أمياً فلم يتعلم في مدرسة، ولم يقل شعراً، ولم يكن خطيباً بل كان راعياً للغنم، ولكن سلوكه منذ أن خلقه الله يختلف عن سلوك البيئة التي نشأ فيها من حيث أمانته، وطهارته، وصدقه، وعفافه فاختاره الله لحمل الرسالة لكل البشرية فهدى الله به أمة العرب في بدايته ثم اتسع ليكوِّن أمة مسلمة تشمل كل أصقاع الأرض.

كان الناس يتوافدون على المدينة استجابة لنداء الله، وقبولاً وتصديقاً برسالة نبيه. وكان ممن وفد أهل نجران وقد روى محمد بن إسحاق أن الوفد لما دخلوا المسجد تكلم السيد والعاقب فقال لهما

رسول الله ﷺ: **(أسلما)** قالا: أسلمنا قبلك، قال: **(كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب)**(١). فكان حكم الله بأن الدين عند الله هو الإسلام، وبذلك سقطت حجج المكذبين والمجادلين.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ الدين هنا الملة والشريعة، والإسلام يشمل الإيمان بمعنى أن الإسلام هو العمل والإيمان هو الاعتقاد وقيل: إن الأصل في مسمى الإسلام والإيمان التغاير فيسمى كل منهما باسم الآخر. ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ ﴾ المراد بأهل الكتاب أهل نجران وقد يشمل النصارى عموماً، وكذلك اليهود أي: أنهم ما اختلفوا في رسالة محمد ﷺ إلا من بعد ما جاءهم العلم في كتبهم عن هذه الرسالة فاختلفوا في ذلك ﴿بَغۡيَۢا ﴾ أي: حسداً على هذه الرسالة. ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي: أن من يجحد ما أنزل الله في كتابه، وما جاء على لسان رسوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ أي: أن الله سيحاسبه على جحوده.

﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ ﴾ المخاطب هو رسول الله فقوله ﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ ﴾ فيه أمر له عليه الصلاة والسلام بما يعني أن نصارى نجران إن حاجوه باللجاجة

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢١٧، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٣ ص١٦٢، والدر المنثور ج٢ ص٤ .

والمخاصمة ولم يقتنعوا بدعوته لهم للإسلام وبما قاله لهم عن توحيد الله وعدم الإشراك به؛ فليقل لهم إني ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: أن ديني هو الإسلام، وهو توحيد الله وإفراده بالعبادة، والبراءة من الشرك به، وأن هذا هو الطريق الذي سلكه ويسلكه من اتبعني ممن هداهم الله لهذا الدين. ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ وهذا أمر أيضاً له عليه الصلاة والسلام أن يقول لنصارى نجران على وجه الخصوص لكونهم المجادلين قبل نزول الآية، ولأهل الكتاب في عمومهم، وللأميين وهم مشركو العرب ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ وهذا استفهام تقريري معناه: هل أنكم ستدخلون في هذا الدين كما دعوتكم، وتتركون الشرك بالله، وتأليهكم لعيسى وأمه أم أنكم ستبقون على مجادلتكم بالباطل؟ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ وهذا بيان من الله لنبيه أنهم إن أسلموا كما دعوتهم فقد اهتدوا إلى الحق، ورجعوا عن الضلال ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي: إن أعرضوا رغم الدعوة لهم فما عليك إلا إبلاغهم بما أنزل إليك لأن الهادي هو الله ونظير هذا قول الله جل ذكره في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(١).

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: أنه العليم بأحوالهم وسرائرهم وما يخفونه في صدورهم من الهدى أو الضلال.

---

(١) سورة القصص الآية ٥٦ .

أحكام ومسائل الآيتين:

الحكم أن دين الإسلام هو الدين الذي رضيه الله لعباده فنسخ به جميع الأديان وأمر عباده باتباعه؛ فاقتضى هذا أن من اتبع غيره من الأديان فعمله مردود عليه كما قال عز وجل ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1]. ومن الأحكام في الآية: أن أهل الكتاب يعرفون من كتابهم أن الإسلام هو الدين الحق، ولكنهم اختلفوا في ذلك بغياً وحسداً وضلالاً.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢) ﴾.

بيان الآيتين:

الآية الأولى وردت في سياق ما قبلها عن اليهود، والمراد بهم يهود المدينة الذين يؤمنون بأسلافهم، ويرون أنهم على حق، وأن دين محمد على باطل. لهذا وصفهم الله بثلاث صفات خاسرة: أولاها- كفرهم بالله وهذا الكفر بسبب إنكارهم لنبوة ورسالة نبي الله محمد ﷺ والثانية- قتلهم الأنبياء في قوله ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾

(١) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

وقد ثبت أنهم قتلوا عدداً من أنبيائهم فقتلوا النبي (حزقيال) وقتلوا النبي (أرميا) وقتلوا (زكريا) و(يحيى). والثالثة- أنهم يقتلون الذين يأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر. وفي هذا قيل: إنهم حينما يقتلون الأنبياء يقوم ناس من أتقيائهم فينكرون عليهم فعلهم هذا ويأمرونهم بالكف عن القتل فلا يستجيبون لدعوتهم وإنما يقتلونهم كما قتلوا الأنبياء. ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أخبرهم بما سيكون لهم من العذاب جزاء فعلهم.

قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ في هذا بيان حال الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون أنبياءه، ويقتلون من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بأن أعمالهم باطلة، وليس لهم منها إلا الخسران وهو العذاب الأليم؛ وأنهم يأتون يوم القيامة لا ناصر لهم ولا شفيع جزاء أعمالهم.

أحكام ومسائل الآيتين:

الحكم بتحريم القتل وهذا مسلَّم بتحريمه في كل الكتب السماوية سواء كان القتل لنبي أو غيره؛ بل إن قتل الأنبياء هو أشد وأعظم حرمة عند الله. الحكم بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً عند الأمم السابقة؛ ذلك أن الناس لابد أن يكون لهم وازع من أنفسهم في الالتزام بما أحل الله، وتحريم ما حرمه. وهذا الوازع يتأتى

من خصيصة، ووسيلة: أما الخصيصة فهي: إيمان الإنسان في نفسه والتزامه بتقوى الله، وهذا لا يتيسر إلا للذي أدرك بعقله وبصيرته أنه محكوم بما أراده الله فهو يحرم على نفسه شرب الخمر؛ لأن الله حرمها عليه لحكمته في خطورتها عليه. وهو يحرم على نفسه ارتكاب الزنا لأن الله حرمه عليه لما فيه من المفاسد والآثام، وهكذا في بقية المحللات والمحرمات من الأشياء. أما الوسيلة فهي: أداة غيره أو وصايته عليه؛ ذلك أن الإنسان قد يفقد الوازع الذاتي لجهل أو سوء تقدير منه فيرتكب ما حرم الله عليه فتقتضي إذاً مصلحته ومصلحة غيره أن يكون عليه وازعٌ من غيره، وبغير هذه الخصيصة أو الوسيلة يغوص الإنسان في متاهات الضياع، وتسوء حياة الأمم في ذاتها ثم ما تلبث أن تبيد بعد أن كانت فريسة لارتكاب ما حرم الله .

ولهذا جاء الإسلام بمبدأ هام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعل ذلك من خصائص هذه الأمة كما سنرى.

ومن أحكام الآيتين التقرير ببطلان أعمال الذين يكفرون بآيات الله ويؤذون من يأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر مع الوعيد لهم في الآخرة بعدم الولي والنصير.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ جملة تعجب واستنكار ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد بهم اليهود، والنصارى. والكتاب التوراة، والإنجيل. ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول هذه الآية: إن رسول الله ﷺ دخل بيت المدراس[1]. على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الإسلام فقال رجلان منهم: على أي دين أنت يا محمد ؟ فقال رسول الله ﷺ: **(إني على ملة إبراهيم)** فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً فقال عليه الصلاة والسلام: **(هلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم)** فأبيا عليه فنزلت الآية كما قال تعالى ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ وفي هذا كذب، وافتراء منهم بأن النار لا تمسهم إلا أربعين يوماً لزعمهم أنهم مقربون إلى الله كما قالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[2]. فرد الله

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٢٠، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٣ ص٢١٧، والدر المنثور ج٢ ص١٧٠ .

(٢) سورة المائدة من الآية ١٨ .

عليهم بقوله جل ذكره ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾(١). والغالب أن جهلة اليهود ضحية لعلمائهم الذين يزينون لهم هذه الأقوال فيصدقونها، ويرتكبون بذلك المحرمات، وهو كذلك حال زعماء الكنيسة الذين كانوا يصدرون في القرون الوسطى صكوك الغفران. ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي: اغتروا بما زين لهم الشيطان من الكذب بأن النار لا تمسهم إلا مدة معلومة.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ يقول الله متعجباً: هؤلاء الذين يكفرون ثم يكذبون على الله كيف تكون حالهم إذا جاءوا يوم القيامة حين يجتمع الناس فيه للحساب، وتجزى فيه الأنفس بما عملت، ولا تظلم شيئاً مما عملته من الحسنات والسيئات. والمعنى أن هؤلاء بكفرهم وكذبهم سيجزون يوم القيامة بما عملوا دون أن يظلموا شيئاً.

أحكام ومسائل الآيات:

وجوب التحاكم إلى الله ومن أعرض عن ذلك فقد كفر والشاهد فيه قول الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٢). وقوله عز ذكره ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(٣). ومن الأحكام: تكذيب الله لليهود ووصفهم

(١) سورة المائدة من الآية ١٨ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٤٤ .

(٣) سورة النساء الآية ٦٥ .

بالغرور حين ادعوا أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات. ومنها: وعيد الله لهم يوم القيامة جزاء افترائهم وغرورهم.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

في الآية الأولى توجيه من الله لنبيه محمد أن يعظم ربه، ويثني عليه، ويشكره على ما أنعم به عليه، وعلى أمته من نزول الرسالة بما فيها من الفضل في الدنيا والآخرة؛ حيث تحولت النبوة إلى هذه الأمة لتكون وسطاً في دعوتها، ويكون نبيها شفيعاً للخلق يوم القيامة. فقل يا محمد منادياً ربك: يا مالك الملك أنت الذي ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ أي: أنت المعطي الملك لمن تشاء من خلقك، وتنزعه ممن تشاء منهم، وتعز من تشاء؛ إنه لا يعز أحد إلا إذا أعززته، ولا يذل إلا أذللته. ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ أي: أن الخير كله منك فلا خير إلا خيرك. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي: إنك القادر على ما تشاء؛ فكل ذلك بإرادتك وحكمتك وتصرفك في خلقك تحكم ما تشاء وتفعل ماتريد.

وقيل: إن رسول الله كان يدعو أن يجعل ملك فارس والروم في أمته فعلَّمه أن يدعو بهذا الدعاء.

قوله ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ المراد تعاقب الليل والنهار، فهذا يزول، وهذا يلج في نظام دقيق لا يقدر عليه إلا أنت. ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ قيل: المراد من ذلك إخراج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وقيل: إخراج الفرخ حياً من البيضة وهي ميتة، وإخراج البيضة وهي ميتة من الدجاجة وهي حية، وقيل: هي النطفة تخرج من الرجل وهي ميتة وهو حي، ويخرج الرجل منها حياً وهي ميتة، وقيل: هي الحبة تخرج من السنبلة، والسنبلة تخرج من الحبة، والنواة من النخلة، والنخلة تخرج من النواة؛ وكل هذا يدخل في معنى الآية الكريمة ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: تعطي الرزق وهو مفهوم عام لما يرتزق منه الإنسان في دنياه لمن تشاء من عبادك بغير تقتير عليه.

أحكام ومسائل الآيتين:

من أحكام هاتين الآيتين: أن الله عز وجل أمر نبيه ورسوله محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء ليحقق له ما وعده من انتشار هذا الدين في أقطار الأرض؛ تكذيباً لليهود الذين استبعدوا ما كان عليه الصلاة والسلام يخبر به صحابته بأن هذا الدين سيبلغ ممالك الفرس والروم وغيرها.

ومن الأحكام: فضل الدعاء بهاتين الآيتين؛ فقد روي أن معاذ بن جبل حبس يوماً عن صلاة الجمعة مع رسول الله ﷺ فلما سأله عما حبسه قال: كان علي دين ليحنًا اليهودي فوقف عند بابي يرصدني فقال رسول الله ﷺ: **(أتحب أن يقضي عنك ربك؟)** قال: قلت: نعم قال: **(اقرأ كل يوم** ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ إلى قوله ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ **ثم قل: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منها من تشاء وتمنع من تشاء اقض عني ديني فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً لأداه عنك)**[1].

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾.

بيان الآية:

هذا نهي تحريم للمؤمنين أن يوالوا الكافرين من دون المؤمنين، ولهذه الموالاة عدة صور: **الصورة الأولى**- الموالاة باللسان التي تفرضها ضرورة، أو ظرف طارئ، ولكن القلب مطمئن بالإيمان كحال عمار بن ياسر مع المشركين؛ فقد قال له رسول الله ﷺ: **(كيف تجد قلبك؟)**

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٥٢، وإتحاف السادة المتقين ج٥ ص١٠٠ .

قال: مطمئن بالإيمان فقال له الرسول: (**إن عادوا فعد**)[١]. وقد نزل فيه قول الله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[٢].

الصورة الثانية- الموالاة بالقلب كمن يواليهم وقلبه متعلق بهم، ويظهر للمسلمين خلاف ما يبطنه لهم من العداوة وهذا هو حال المنافقين الذين أسلموا تقية دون أن تكون لهم رغبة حقيقية في الإسلام كعبد الله بن أبي بن سلول، ومن شايعه من قومه، ومن على شاكلتهم، وينطبق على من يفعل هذا حكم المنافق. **الصورة الثالثة-** الموالاة بقصد التظاهر معهم لذم المؤمنين، والاستهزاء بهم، واحتقار أفعالهم، وإظهار شعائر الكافرين؛ فهذا يعد كفراً بحكم قول الله في حق المستهزئين برسوله وبالمؤمنين معه ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[٣]. **الصورة الرابعة-** تحسين صورة الكافرين في نفوس المؤمنين، والثناء عليهم، واتخاذهم مثلاً في القول، وفي مظاهر السلوك؛ فهذا يخشى عليه من الكفر حال استمرار تعلقه بهم. **الصورة الخامسة-** الاستعانة بهم على طوائف من المسلمين في حال الحرب كما فعل المعتمد بن عباد حاكم أشبيلية بالجلالقة على المرابطين، أو كما

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج٢ ص٣٥٧، والطبري في تفسيره ج١٤ ص١٨٢، والسيوطي في الدر المنثور ج٥ ص١٧٠، والواحدي في أسباب نزول القرآن ٤٦٦ .

(٢) سورة النحل من الآية ١٠٦ .

(٣) سورة التوبة من الآية ٦٦ .

فعل بعض المسلمين في هذا الزمان بالاستعانة بهم على هذا النحو؛ فهذا فيه خلاف. فهناك من قال بتحريمه, ومنهم من أباحه للضرورة عملاً بما حدث في غزوة حنين والطائف حيث كان صفوان بن أمية مشركاً واشترك مع رسول الله ﷺ في هاتين الغزوتين. ولعل الأصوب والأسلم عدم الاستعانة بغير المسلمين على المسلمين لما في ذلك من المخاطر والآثار الضارة؛ وأن يعمل المسلمون على إصلاح ذات بينهم وتدبير أمورهم, وحل مشكلاتهم بأنفسهم كما قال الله عز وجل ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

الصورة السادسة- الموالاة الناتجة عن التساهل معهم فيما مناطه أمر العقيدة؛ كترك المنصِّرين منهم ينتشرون بين المسلمين للعمل على ردتهم عن الإسلام، واعتناق دينهم، فهذا يعد إثماً عظيماً. فإن كان المقصد من ذلك مساعدتهم على فعلهم فهذا قد يكون كفراً.

الصورة السابعة- التواطؤ معهم على إضعاف المؤمنين؛ كحال الجواسيس الذين يعملون معهم فهذا مما يعد من الإثم العظيم، وعلى الولاية فرض العقاب على من يقوم بهذا الفعل حسب طبيعة جرمه.

---

(١) سورة الحجرات الآية ٩ .

الصورة الثامنة- الموالاة لأجل قرابة بين المسلم وغير المسلم؛ كحال الزوج المسلم مع زوجته غير المسلمة، فهذا مما لا ضرر منه إذا كان الزوج متمسكاً بدينه، ومحافظاً على عقيدة أولاده. والأصل فيه إباحة النكاح من أهل الكتاب في قول الله تعالى ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[١]. والأصل فيه أيضاً قول رسول الله ﷺ لأسماء بنت أبي بكر: **(صلي أمك)** وكانت أمها مشركة[٢].

الصورة التاسعة- الموالاة الناتجة عن الاختلاط من الأفراد بحكم طلب العلم، أو التجارة، أو التطبيب، أو السياحة فهذا مما لا بأس به إذا كانت الضرورة تدعو إليه.

الصورة العاشرة- الموالاة المترتبة من العهود، والمواثيق بين الدول فهذا مما لا حرج فيه إذا كانت الأحوال والظروف تدعو إليه، وفيه مصلحة ظاهرة للمسلمين؛ فقد عاهد رسول الله ﷺ اليهود في المدينة، وتعامل معهم، وأوفى بعهده قبل أن يخونوه ويظاهروا عليه المشركين[٣].

الصورة الحادية عشرة- الموالاة للكافرين بقصد دفع ضررهم

---

(١) سورة المائدة من الآية ٥ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج، برقم (٥٩٧)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٠ ص٤٢٧ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص١٦٧-١٧٢ .

كما لو كانوا قوة، والمسلمون ضعفاء فهذا مما تقتضيه الضرورة مع عدم التفريط في العقيدة، وأسس الدين والأصل فيه قول رسول الله ﷺ: (**إنا لنكشر في وجوه أقوام وإنّ قلوبنا لَتلعنهم**)[1]. والمراد من التكشير هنا الابتسامة المتكلفة.

الصورة الثانية عشرة- الموالاة الناتجة عن المسالمة مع من لا يظهر عداء للمسلمين، ولا يتظاهر عليهم مع أعدائهم؛ كما فعل الأحباش مع المسلمين حال ضعفهم فآووهم وأكرموهم وقال الله فيهم ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[2].

قوله تعالى ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ المراد أن من يفعل ذلك ليس من أولياء الله، ولا من المقربين منه. ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ المراد بالتقية المداراة لتجنب ضرر محتمل إذا كان المؤمن موجوداً بين الكافرين. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ المراد أن الله يحذر عباده من موالاة الكافرين، ومظاهرتهم على

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس بلفظ عن أبي الدرداء «إنا لنكشر في وجوه أقوام وإنّ قلوبنا لتلعنهم»، فتح الباري ج١٠ ص٥٤٤ .

(٢) سورة المائدة الآية ٨٢ .

المسلمين. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: الرجوع إلى الله من الممات إلى يوم القيامة.

أحكام ومسائل الآية:

تحريم موالاة الكافرين، وقد تم حصر اثنتي عشرة صورة في هذه المسألة مما ذكر آنفاً.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

بيان الآيتين:

بعد أن حرَّم الله عز وجل موالاة أعداء الدين ثم حذر من يتخذ هذه الموالاة بَيَّن أنه يعلم ما في صدور عباده فيما يبدونه، وما يخفونه في أنفسهم سواء في موالاة الكافرين، أو في أمور أخرى فكما يعلم هذا يعلم كل ما في السموات والأرض من الظواهر والبواطن كما في قوله عز وجل ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[1]. وقوله جل ذكره ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن

---

(١) سورة غافر الآية ١٩ .

نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(١).

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ المراد أنه في يوم القيامة سيجد المرء كل ما عمله من خير، أو شر واضحاً له في كتابه، فما عمله من خير سوف يفرح ويسر به، وما عمله من سوء سيود أن بينه وبينه مدى بعيداً كما بين مشرق الشمس ومغربها. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ توكيد لما سبق وهو تحذير الله لعباده من عواقب الذنوب. ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ وفي هذا بيان أن الله سبحانه مع تحذيره لهم رؤف بهم يود أن يطيعوه حتى تشملهم رحمته ويأمنوا من عقابه.

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير علم الله المطلق لأحوال خلقه سرهم، وعلانيتهم في علاقتهم مع الكافرين. وكل من عمل منهم من خير أو شر سوف يجده يوم القيامة قد أحضر له من كتابه؛ فمن كان عمله خيراً فرح بالجزاء الذي جازاه الله عليه، ومن كان عمله سيئاً يتمنى أن بينه وبين عمله من البعد كما بين المشرق والمغرب. ومن الأحكام: تحذير الله لعباده من أفعال السوء لكي يسلموا من العقاب.

---

(١) سورة المجادلة الآية ٧.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

قيل: إن هذه الآية نزلت في وفد نجران فقد زعموا أن ما ذكروه في حبهم لعيسى هو حب الله فأنزل الله هذه الآية ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وفي هذا أمر لنبيه أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في حبكم لله فاتبعوني يحببكم الله أي: يحبكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أي: إذا اتبعتموني فسوف يتجاوز عن خطيئاتكم وذنوبكم السابقة. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فهذه صفتان من صفاته العلية يغفر للتائب من عباده ويرحمه.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ وهذا موصول بما قبله مراد به الذين قالوا: إنهم يحبون الله، فأمر الله نبيه أن يقول لهم ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ أي: اتباع ما أمرا به وما نهيا عنه. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي: أعرضوا عن هذه الدعوة فإنهم كافرون. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: لا يحبهم بسبب كفرهم.

أحكام ومسائل الآيتين:

الحكم أن محبة الله مقترنة بمحبة رسوله؛ فمن يحب الله يجب

عليه أن يحب رسوله وإلا لم يكن صادقاً في محبته لله. ومحبة رسول الله تقتضي طاعته فيما جاء به من ربه، فمن أطاعه فقد أطاع الله كما قال عز وجل ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1]. ومن الأحكام: أن من تولى عن طاعة الله وطاعة رسوله فهو كافر.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

الاصطفاء الاختيار، وقد اصطفى الله آدم حيث خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأخرج منه زوجته، وأسكنه الجنة وأهبطه منها ليكون أباً للبشرية في الدنيا. واصطفى نوحاً أول رسول في الأرض ليدعو قومه إلى توحيد الله، وعدم الإشراك به. وقد أمد في عمره من أجل دعوة قومه ثم أهلكهم الله، ونجاه ومن معه من المؤمنين. واصطفى إبراهيم عليه السلام واتخذه خليلاً، واصطفى ذريته ومنهم رسول الله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين. واصطفى آل عمران والمراد بهم عمران والد مريم بنت عمران، ومريم أم عيسى عليهم السلام. قوله ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على أهل زمانهم من العالمين.

﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ﴾ المراد أنهم ذرية أقرباء بعضهم لبعض

---

(١) سورة النساء من الآية ٨٠.

وهم متماثلون في عقيدتهم وإيمانهم بالله كما قال الله عزوجل ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾(١). ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: يسمع ما قال اليهود والنصارى في هؤلاء.

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير فضل الله على من يشاء من عباده كما أنعم على آدم ليكون أباً للبشرية، وأنعم على نوح ليكون أول رسول إلى قومه. كما أنعم على إبراهيم وموسى وعيسى بالنبوة، وعلى نبينا ورسولنا محمد ﷺ ليكون خاتم الأنبياء والرسل، وأفضلهم. وفيهما الحكم بأن الأنبياء والرسل متماثلون في عقيدتهم وإيمانهم بالله عز وجل.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾.

---

(١) سورة التوبة من الآية ٧١ .

بيان الآيات:

امرأة عمران اسمها حنة بنت فاقوذا قيل في الأثر: إن زوجها عمران مات وقد حبلت منه، فنذرت حبلها ذلك ليكون محرراً أي: خالصاً لخدمة بيت المقدس مثلها في ذلك مثل الذين كانوا ينذرون لهذه الخدمة. وطلبت من ربها أن يتقبل منها هذا النذر لأنه يسمع دعاءها، ويعلم ما في قلبها من النية لخدمة هذا البيت الطاهر.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ قيل: إنها قالت هذا لأنه لا يقبل في النذر إلا الذكور إلا أن الله تقبل مريم كما سيأتي وقيل: إنها وضعتها في خرقة وأرسلت بها إلى المسجد. ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ وهذا بيان من الله أنه يعلم وضعها وما وضعته. ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾ أي: أن قوة الذكر وقيامه على خدمة المسجد أقوى من قوة المرأة وقيامها بهذه الخدمة. ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾ وتعني خادمة الرب وقيل: إنها سمتها باسم مريم أخت موسى وهارون. ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أي: استعاذت بالله أن يعيذها وولدها من الشيطان الرجيم. وقد أجاب الله دعوتها وفي هذا روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (**ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها**) ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ الآية[١].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان)، برقم (٤٥٤٨)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص ٦٠ .

قوله ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ أي: جعلها نذيرة مقبولة من أمها. ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ أي: صورها صورة حسنة. ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أي: صار كافلاً لها في التربية وهو زوج خالتها. ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ المحراب مقدمة المكان الذي كانت تقيم فيه والرزق الذي لديها قيل: إنه كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، ولعل هذا كان مصدر عجبه من هذا الرزق الذي يأتيها على غير العادة. ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ والمراد من أين يأتيك هذا الرزق. ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ هذا جواب على سؤاله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ هذا إيضاح من مريم لزكريا بأن هذا الرزق يأتيها من عند الله، وليس من أحد غيره.

أحكام ومسائل الآيات:

يشرع النذر لما فيه من طاعة لله عز وجل، ويجب الوفاء به. والأصل في ذلك مدح الله للذين يوفون بنذورهم في قوله عزوجل ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾(١). وقول رسول الله ﷺ: **(من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه)**(٢). ومن الأحكام: جواز

(١) سورة الإنسان من الآية ٧ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة برقم (٦٦٩٦)، صحيح البخاري مع فتح الباري، ج١١ ص٥٨٩ .

النذر بالحمل إذا لم يكن فيه معاوضة، ومن ذلك الهبة أو الصدقة له. أما إذا كان فيه معاوضة كما كان أهل الجاهلية يبيعون إلى حبل الحبلة أو ولادة الناقة فهذا لا يجوز لما فيه من الغرر والجهالة ولنهي رسول الله ﷺ عنه(١). ومن الأحكام: بيان أن الذكر ليس كالأنثى من حيث قدرة الذكر الجسمانية وقدرته على حمل الأعباء التي قد لا تستطيع الأنثى حملها. ومن الأحكام: تقرير كرامة الله لمريم عليها السلام وذلك بتقبل الله لها.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٤١﴾.

بيان الآيات:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ المراد أنه لما جرى السؤال والجواب

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب بيع الغرر وحَبَل الحبلة برقم (٢١٤٣)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٤ ص٤١٨ .

بين زكريا ومريم ورأى ما أعطاها ربها من الكرامة دعا ربه أن يعطيه ذرية طيبة، والسبب في دعائه أنه كان شيخاً كبيراً وكانت زوجته عاقراً ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: تسمع دعائي وتضرعي إليك.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الملائكة جمع والجمع يجوز تأنيث ضميره أو تذكيره فجاء التأنيث في هذه الآية وفي غيرها وجاء التذكير في قول الله عز وجل ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾(١). ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ أي: إن الملائكة خاطبوه في الوقت الذي كان يصلي فيه وقالوا له: إن الله يبشرك بيحيى أي: أنه سيولد لك ولد اسمه يحيى. ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بعيسى وقيل في معنى كلمة من الله: أن عيسى ولد بكلمة الله حين قال له ﴿كن﴾. ﴿وَسَيِّدًا﴾ له عدة معان: منها أنه الشريف، ومنها أنه القويم في دينه وخلقه، ومنها رئاسة قومه. ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: يتمنع عن غشيان النساء لتفرغه لعبادة ربه. ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ النبي من أنبأ عن الله، والصالح من عرف ما أمر الله به وقام به.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ هذا تعجب وتواضع منه عليه السلام يقول فيه: كيف يارب أنَّى يكون لي ولد، وأنا على هذه الحال من الكبر، وزوجتي على حال من

(١) سورة الأنعام من الآية ٩٣ .

العقر الذي لا تلد فيه. وقد يكون المراد شكر زكريا لله على ما أعطاه من الولد خلافاً لما جرت عليه العادة لمن هم في سنه وحال زوجته. ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: أن هذا الذي حدث لك هو أمر الله الذي لا يعجزه شيء.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ هذا متصل بما قبله والمراد اجعل لي علامة تدل على ولادة الولد لي في هذه السن. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ وهذا جواب على دعائه بأن جعل له آية هي أنه لا يستطيع أن يكلم الناس لمدة ثلاثة أيام إلا رمزاً كما يفعل الأبكم بالإشارة. ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ وهذا أمر له أن يكثر من الذكر والتسبيح في الليل والنهار ما دام على تلك الحال، وليس معناه أن يتوقف عن الذكر بعد ذلك بل المطلوب منه الإكثار منه تلك المدة المعلومة.

أحكام ومسائل الآيات:

مشروعية دعاء العبد ربه أن يهبه ذرية صالحة، وفيه قول رسول الله ﷺ: **(النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني وتزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم)**[1]. ومن الأحكام: أن الله يستجيب دعاء عباده الصالحين كما قال عز وجل ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى

---

(١) أخرجه ابن ماجة في كتاب النكاح، باب ما جاء في فضل النكاح، برقم (١٨٤٦)، ابن ماجة ج١ ص٥٩٢.

قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[١]. ومنها: أن الله جعل لزكريا آية هي ألا يكلم الناس مدة معلومة كما يفعل الأبكم بالإشارة، وفي هذا دلالة على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام والأصل فيه حكم رسول الله ﷺ في الأمة حين قال لها: (**أين الله؟**) فأشارت برأسها إلى السماء فقال لصاحبها: (**أعتقها فإنها مؤمنة**)[٢]. فاقتضى ذلك أن إشارتها نزلت منزلة كلامها. وقد بنى الفقهاء على ذلك أن إشارة الأخرس تقوم مقام كلامه، وفي سائر الأمور الأخرى طالما أن إشارته تعرف.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ أي: اختارك. ﴿وَطَهَّرَكِ ﴾ أي: جعلك طاهرة من الأدران كالحيض والنفاس. ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(١) سورة البقرة من الآية ١٨٦ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة برقم (٥٣٧)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٢ ص٤٣٣ .

المراد اختيارها على أهل زمانها، وقد روى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد**)[١]. كما روى أبو موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: (**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون**)[٢].

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ ﴾ الكلام منسوب إلى الملائكة لكون الآية متصلة بالتي قبلها. ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ ﴾ أي: صلي بخشوع وطول قيام. ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ ربما كان المعتاد عند قومها تقديم السجود قبل الركوع وقد يكون المراد الركوع قبل السجود لأن الواو لا توجب الترتيب.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ المراد أن ذلك الذي أوحيناه إليك يا محمد عن زكريا ويحيى ومريم هو من أنباء الغيب التي تجهلها قصصناها عليك كأنك قد شاهدتها. ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ وقد روى ابن جرير عن عكرمة قال: ثم خرجت بها يعني أم مريم بمريم في خرقها تحملها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى بن عمران قال: وهم يومئذٍ يلون بيت المقدس مما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ ﴾ .. الآية، برقم (٣٤٣٢)، صحيح البخاري مع الفتح ج٦ ص٥٤٢ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ .. الآية، برقم (٣٤١١)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٦ ص٥١٤ .

يلي الحجبة من الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي ابنتي ولا يدخل الكنيسة حائض وأنا لا أردها إلى بيتي، فقالوا: هذه ابنة إمامنا وكان عمران يؤمهم في الصلاة، وصاحب قربانهم فقال زكريا: ادفعوها إلي فإن خالتها عندي قالوا: لا تطيب أنفسنا هي ابنة إمامنا فذلك حين اقترعوا فاقترعوا بأقلامهم عليها أي: بالأقلام التي يكتبون بها التوراة فقرعهم زكريا فكفلها[١]. وكان الاقتراع بالأقلام فجاء كل واحد منهم بقلمه واتفقوا أن يجعلوا الأقلام في الماء الجاري؛ فمن وقف قلمه ولم يجر في الماء فهو صاحبها فجرت الأقلام وارتفع قلم زكريا[٢]. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: ما كنت لديهم يا محمد عند اختصامهم على كفالة مريم.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير أنّ الله قد اصطفى مريم وطهرها. ومن الأحكام: تقرير فضل الركوع والسجود وفيه قول رسول الله ﷺ أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فأكثروا فيه من الدعاء فقمن أن يستجاب لكم[٣].

ومنها: توكيد نبوة ورسالة رسول الله ﷺ، وأنه ما كان ليعلم عن أحوال

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٣ ص٢٤٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٨٦ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، برقم (٤٧٩)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٢ ص٣٦٩ .

من قبله من الأمم إلا بعد أن أوحى الله بها إليه. ومنها: أن القرعة جائزة في شرع من قبلنا، وجائزة في شرعنا، وشاهد ذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج اسمها خرج بها[١]. وشاهده أيضاً قول رسول الله ﷺ: **(لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا)**[٢].

ومن الأحكام: أن الخالة في شرع من قبلنا تستحق حضانة بنت أختها كما حصل لمريم؛ فقد كفلها زكريا لأن خالتها زوجته، وهذا كذلك في شريعتنا أي: أن الخالة أحق بالحضانة بعد الجدة من سائر القرابة والناس. والأصل في ذلك ما روي أن زيد بن حارثة خرج إلى مكة بابنة حمزة واسمها أمة الله وأمها سلمى بنت عميس أخت أسماء بنت عميس فقال جعفر: أنا أحق بها ابنة عمي وعندي خالتها وإنما الخالة أم وقال علي: أنا أحق بها وعندي ابنة رسول الله ﷺ فأنا أحق بها وقال زيد: أنا أحق بها خرجت إليها وسافرت وقدمت بها فخرج رسول الله ﷺ وذكر شيئاً وقال: **(أما الجارية فأقضي بها لجعفر تكون مع خالتها وإنما الخالة بمنزلة الأم)**[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب القرعة بين النساء إذا أراد سفراً، برقم (٥٢١)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٩ ص٢٢٠ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان، برقم (٦١٥)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٢ ص١١٤ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي، ج١ ص٢٧٣-٢٧٤، وأحكام القرآن للجصاص، ج١ ص٢٩٤، وأخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في بر الخالة، برقم (١٩٠٤)، سنن الترمذي ج٤ ص٢٧٦ .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾ هذا بيان من الله أن الملائكة بشرت مريم بأنها ستلد مولوداً من غير زوج ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي: بكلمة من الله بقوله ﴿كن﴾ فيكون مولوداً سوياً. ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ قيل: إنه سمي المسيح لأنه ما كان يمسح مريضاً إلا برئ من مرضه وشاهده قول الله ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾[1]. وقيل: إن هذا لقب لعيسى ومعناه الصديق. ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي: له وجاهة وقدر كبير في الدنيا بحكم خلق الله له على الصورة غير المعتادة. وقد ورد في فضله أنه ينزل إلى الأرض فيقتل المسيح الدجال إضافة إلى ما منحه الله له من الكرامات كإبراء الأكمه وإخراج الموتى بإذن الله. ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي: أنه من الرسل المقربين إلى الله لما قاموا به من إبلاغ رسالاته إلى عباده.

---

(١) سورة المائدة من الآية ١١٠ .

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ لما ذكر الله وجاهة عيسى قال ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ أي: يتحدث معهم وهو في الموضع الذي لا يزال فيه رضيعاً. ﴿وَكَهْلًا﴾ أي: في العمر المتوسط بين الشباب والشيخوخة. والمراد أنه حينما ينزل مرة أخرى سيكون في هذه المرحلة من العمر فيكلم الناس كما كلمهم وهو في المهد. ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا فضل بالثناء عليه لوجاهته وقربه من الله أي: أنه من عباد الله الصالحين.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ لما بشرت الملائكة مريم بأنها ستلد عيسى تساءلت في نفسها عن الكيفية التي سيكون عليها هذا الولد وهي ليست متزوجة، وتعرف نفسها أنها عفيفة طاهرة فناجت ربها قائلة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ فقال لها جبريل ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: أن الله يخلق ما يشاء بدون الوسيلة المعتادة من اتصال الرجل بالمرأة، وهذا الخلق هين على الله كما قال عز وجل ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾[1]. ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قال هذا جبريل لمريم. والمعنى فيه واضح وهو أن الله إذا أراد أمراً في خلقه قال له ﴿كُن﴾ ﴿فَيَكُونُ﴾ في الحال وليس في هذا عجب لأن الله قادر على كل شيء.

---

(١) سورة مريم من الآية ٢١ .

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير فضل مريم حيث بشرها جبريل بولادتها لعيسى ليكون نبياً ورسولاً إلى قومها، وثناء الله على عيسى ووصفه بالوجاهة في الدنيا والآخرة وقربه من الله لكونه من الصالحين. ومن الأحكام: تقرير آية الله في كون عيسى تكلم وهو في المهد خلافاً للعادة.

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ﴾.

بيان الآيات:

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: علمه كتاباً غير كتاب التوراة والإنجيل وقد يكون المراد علمه كتابة الخط. ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي: وفقه فيما كان يقوله ويفعله. ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ الكتاب الذي أنزل على موسى. ﴿ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ أي: الكتاب الذي أنزل عليه هو.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أرسل إليهم وهو آخر أنبيائهم. ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: أتيتكم بمعجزة تدل على صدقي بأن الله أرسلني إليكم. ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنه كان يصور من الطين شكلاً على هيئة طير فينفخ في هذا الشكل فيتحول إلى طير يطير. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإرادة الله، وفي هذا دلالة على أن عيسى لم يكن يقدر على شيء إلا بإرادة الله وقوته. أما هو فبشر لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وفي هذا رد على الذين ألَّهوه وجعلوه شريكاً لله. ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ ﴿ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ الذي ولد وهو أعمى. ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ الذي به بَرَصٌ، وهو البياض الذي يوجد في جلد الإنسان. ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ قيل: إن بني إسرائيل طلبوا أن يحيي لهم سام بن نوح فأحياه وقيل: إنه أحيا أربعة أنفس. ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ أي: أخبركم بما تأكلونه الآن من الطعام وما تدخرونه لما بعده. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: أن ما جئتكم به من الآيات دال على صدقي ورسالتي إليكم من عند الله.

﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ القول متصل بما قبله وهو إخباره عن رسالته أي: جئتكم أصدق ما جاء في التوراة

التي لديكم ولم آت بشيء جديد. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ المراد أن بني إسرائيل قد حرموا بعض الأطعمة إما بحكم ماورد في التوراة أو لأن أحبارهم وعلماءهم حرموها عليهم فأحلها عيسى لهم. ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهي الآيات أو الكرامات التي منحها الله له، وهي إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ هذه دعوة من نبي الله عيسى لهم أن يتقوا الله فيما أمرهم به وأن ينتهوا عما نهاهم عنه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: أنا وأنتم يا بني إسرائيل نرجع إلى رب واحد وعلينا عبادته فاعبدوه وما أتيتكم به من الآيات والبينات الدالة على توحيد الله وطاعته أمر مستقيم عليكم أن تسلكوه وإلا حل عليكم العذاب.

وقد ذكر الإمام ابن كثير ما قاله كثير من العلماء: أن الله بعث كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر، وتعظيم السحرة فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحَّار فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من الأبرار. وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة؛ فمن

أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد. وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمان الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبهه كلام الخلق أبداً[١].

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير فضل نبي الله عيسى وما أعطاه الله من الآيات لكي يصدقه قومه، ومع ذلك كذبوه وآذوه فقد دعا بني اسرائيل إلى اتباعه وبيّن لهم أنه جاء مصدقاً للتوراة التي بين أيديهم. كما جاء يحل لهم بعض ما حرم عليهم من الأطعمة وغيرها، ومع ذلك أنكروه وكذبوه إلا قليلاً منهم. ومن الأحكام: أن الطريق إلى الله مستقيم فقد بلغ الرسل أقوامهم ما يجب عليهم من طاعة الله وتوحيده فمن أجاب منهم استحق الثواب ومن أعرض فقد استحق العقاب.

۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ

---

(١) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص٢١٩ .

بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: لما استشعر من بني إسرائيل عدم قبول دعوته وعدم طاعته رغم ما جاء به من البينات استنجد بمن يظن أنهم مؤمنون برسالته قائلاً ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والمراد سؤالهم قبول دعوته لنصرة دين الله. ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أننا سنكون معك لنصرة دين الله وقيل: إنهم اثنا عشر رجلاً هم: يوحنا بن زبدي وأخوه يعقوب وسمعان بطرس وأخوه اندراوس وتوما ومتى العشار وفيلبس ويعقوب بن حلفي وبرثو لمادس وسمعان القانوي ولباوس ويهوذا الاسخريوطي. قيل: إن منهم من كان قصاراً وصياد سمك. ومن عادة الأنبياء والرسل أن يستنصروا بمن يعتقدون في نجدته ومساعدته حين يكذبهم قومهم كما قال نبي الله لوط ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾(١). وكما نادى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام في مواسم الحج قائلاً: (**هل من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام**

---

(١) سورة هود من الآية ٨٠ .

ربي فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي)[1]. وقد حظي بذلك الأنصار فآووه ونصروه وجاهدوا معه فكانت لهم العزة في الدنيا والآخرة. ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: أننا قد صدقنا بالله وبما جاء من عنده. ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: يا عيسى اشهد علينا بأنا مسلمون مستسلمون لله منقادون له بالطاعة.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ هذا قول الحواريين بأنهم آمنوا بما أنزل على عيسى، وأنهم اتبعوه وسألوا الله أن يكتبهم ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: مع أمة محمد ﷺ.

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ المقصود هنا من كفر من بني إسرائيل وهم من استشعر منهم الكفر فسأل النصرة ممن توسم فيهم الإيمان برسالته. وقيل: إنه لما أخرج هو وأمه عاد مع الحواريين يجدد الدعوة لهم فهموا بقتله فذلك هو مكرهم. ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ قيل: إنهم لما اجتمعوا على قتله هرب منهم وكانوا قد وشوا به إلى حاكمهم مدعين أنه يؤلب الناس ويفسدهم فأمر رجلاً منهم يقال له يهودا أن يدخل عليه البيت ويقتله فدخل هذا البيت فلم يجد عيسى

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ج٣ ص٣٩٠، ٣٢٢، والترمذي في كتاب فضايل القرآن برقم (٢٩٢٥)، سنن الترمذي ج٥ ص١٦٨، وابن ماجة في مقدمته برقم (٢٠١)، سنن ابن ماجة ج١ ص٧٢، والدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب القرآن كلام الله برقم (٣٣٥٤)، سنن الدارمي ج٢ ص٥٣٢.

بل رفعه جبريل إلى السماء ووضع في البيت شبيهاً له فأخذوه وقتلوه وصلبوه[١] وشاهد هذا قول الله ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير أنّ على الداعي أن يستنصر بمن يرى أنه قادر على مساعدته في نشر دعوته؛ فكما أن الحواريين قد نصروا عيسى حين دعاهم فإن الأنصار نصروا رسول الله ﷺ حين دعاهم فآووه في المدينة، وجاهدوا معه بأنفسهم وأموالهم فاستحقوا رضا الله عنهم كما قال عز وجل ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[٢].

ومن الأحكام: تقرير أنّ من يمكر بالدعاة الى الله ويكذبهم أو يؤذيهم سوف يمكر الله به عاجلاً أم آجلاً.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٣٤٥-٣٤٦ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٠ .

تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ أي: قابضك ورافعك إلى السماء وشاهده قوله عز وجل ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾[1].

﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ لما رفع الله عيسى إلى السماء أصبح من بعده ثلاث فرق: فرقة ألَّهته قالت: كان فينا ثم صعد إلى السماء، وفرقة قالت: إنه ابن الله ثم صعد إلى السماء، وفرقة مؤمنة قالت: كان فينا نبياً ورسولاً ثم رفعه الله إليه وهؤلاء هم المؤمنون.

وفي تلك الفترة حرف الذين كفروا في الإنجيل وعبثوا فيه فزادوا فيه، ونقصوا منه، وأحلوا ما كان محرماً فضلَّ الناس عن سواء السبيل حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ مجدداً دعوة العباد إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام، وتحليل ما أحل الله وتحريم ما حرمه.

﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ وقد يكون المراد به الحواريين الذين اتبعوه ونصروه بأن جعل الله لهم

---

(١) سورة النساء من الآية ١٥٨ .

العلو والمنزلة السامية على الذين كفروا به فكانت لأولئك المنزلة على الكافرين إلى أن بعث الله محمداً نبياً ورسولاً فنسخت رسالته جميع الرسالات. ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ المراد بذلك من آمن من قوم عيسى، ومن كفر منهم لأن المخاطب هنا عيسى لاتصال الآية ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ بالآية ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فسيحكم الله بينهم يوم القيامة فيجازي من آمن منهم بحسن الجزاء، ويجازي من كفر بسوء العذاب.

قوله ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هذا عطف على ما سبق في قوله ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: أن الذين كفروا بهذه الرسالة التي جاء بها عيسى وحرفوها سوف يلقون العذاب في الدنيا بالخزي والذلة، وهذا هو ما حصل لليهود من التشرد والمصائب التي حلت بهم وفي الآخرة البوء بغضب الله. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: أنه في الحياة الآخرة لن يكون لهم ناصر من الله فيما فعلوه من تكذيب رسوله وطرده والمكر به.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾

مازال السياق في الحكم يوم القيامة بعد الرجوع إلى الله؛ فالذين آمنوا أي: صدقوا بالله وبما أرسل به رسوله فسوف تستكمل لهم أجورهم لقاء إيمانهم وتصديقهم. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ توكيد

لما سبق عن توبيخ الكافرين وتكذيبهم لرسوله عيسى. ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه لك (يا محمد) عن قصة عيسى هو الواقع الذي بيناه لك كما هو مكتوب ومبين في اللوح المحفوظ.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير أن الله رفع عيسى حيّاً خلافاً للذين يعتقدون أنه قتل مصلوباً والأصل فيه قول الله تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[1]. تقرير أنّ الذين يكذبون رسالات الله كما فعل بنو إسرائيل في تكذيبهم لنبي الله عيسى سوف يجزون يوم القيامة لقاء تكذيبهم. أما الذين آمنوا به في زمانه فسوف يعطون أجورهم. وهذا الحكم عام في معناه؛ فالذين كذبوا رسول الله محمداً ﷺ من اليهود والنصارى أو من غيرهم سيجزون يوم القيامة لقاء تكذيبهم.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ

---

(١) سورة النساء من الآية ١٥٧ .

ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ هذا رد على نصارى نجران حين قالوا لرسول الله ﷺ: أرنا عبداً خلق من غير أب ؟ فقال لهم عليه الصلاة والسلام: (**فآدم لا أب له ولا أم**). أي: إن مثل عيسى مثل آدم؛ فالأول خلق بكلمة، والثاني آدم خلق من تراب حيث تحول التراب طيناً ثم صار صلصالاً ثم خلق الله منه آدم فكلاهما خلقا بالكينونة الدالة على معجزة الله وقدرته.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: أن ما ذكرناه عن عيسى وحقيقة كينونته وحقيقة آدم هو قول حق وفصل من ربك يا محمد فلا تكن من الشاكين في ذلك، وحاشاه أن يكون كذلك.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ هذه الآية في سياق نصارى نجران ومجادلتهم الباطلة وتأليههم لعيسى والمراد أن من خاصمك بعد الذي تم بيانه لك يامحمد عن عيسى وأمه وصفته. ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ أي: اقبلوا واحضروا. ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ وتأكيداً لدعوته جاء بفاطمة، والحسن، والحسين، وعلي خلفهم وقال لهم: (**إذا أمّنت**

فأمِّنوا) والمراد هنا الدعاء بمعنى الابتهال. ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: يكون ابتهالنا هو أن يجعل الله اللعنة على من كذب في قوله ومجادلته.

ولما عرف نصارى نجران ما ستؤول إليه حالهم لمعرفتهم أن محمداً نبي مرسل، وأن دعوته ستصيبهم وأجيالهم أبوا المباهلة بعد أن قال لهم كبيرهم (العاقب): أنهم إن باهلوا سوف يضرم عليهم الوادي ناراً فعادوا إلى بلادهم بعد أن رضوا بالجزية.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ المراد به القرآن فما ورد فيه من بيان عن عيسى وصفته هو الحق الذي لا مراء فيه. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: ليس في الوجود إلَه حقّ غير الله فهو الخالق والصانع والمدبر. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما يقول ويفعل.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: إن أعرضوا عن الإيمان بالقرآن والتصديق به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: أنه يعلم من يعمل بالحق ومن يعمل بالباطل وسوف يجزي كل واحد بما يعمل.

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بتساوي آدم وعيسى في كيفية خلقهما؛ فقد خلقا بإرادة الله وحكمته من غير أب. ومن الأحكام: أن ما ذكره الله عن قصة خلق آدم وعيسى هو الحق الذي لا مراء فيه. ومنها: مشروعية المباهلة وهي

الابتهال إلى الله أن يجعل اللعنة على الكاذب في قوله. ومنها: أن ابن البنت يعد ابناً، وشاهده دعوة رسول الله ﷺ للحسن والحسين معه إلى المباهلة بوصفهما ابنيه فيدخل في الوصية والوقف. ومن الأحكام: وعيد الله للمفسدين الذين يعرضون عن الإيمان بالقرآن.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿قُلْ﴾ أمر لنبي الله محمد. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد به اليهود والنصارى. ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾ أي: كلمة عدل وإنصاف. وفي

هذا المعنى كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم: (**بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. «أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام» أسْلِم تَسْلَم أسلِم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**)(١).

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى قوله ﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

قوله ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: لا نعبد وثناً ولا صنماً ولا ملكاً ولا نبياً ولا صليباً. ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ أي: تكون عبادتنا خالصة له وحده لا نشرك معه غيره فيها. ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المراد ألا نطيع إلا الله، ولا نعترف إلا به فنحل ما أحله، ونحرم ما حرمه، ونحب من أطاعه، ونبغض من عصاه. ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: أعرضوا عما دعوتهم إليه. ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ أي: أن ديننا هو الإسلام وليس لنا دين غيره؛ فلا نتبع إلا هو ولا نؤمن إلا بما جاء به فَنُحِلُّ ما أحله ونحرم ما حرَّمه فمن اتبع هذا الدين فهو منا ومن لم يتبعه فليس منا.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اليهود يدعون أن إبراهيم على دينهم، والنصارى يدعونه كذلك. وقد بيَّن الله كذبهم بياناً محسوساً لا

---

(١) الأريسيون: الأكارون والفلاحون والخدم، والحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب حدثنا أبو اليمان، فتح الباري ج١ ص٤٣، برقم (٧) .

يقدرون على المجادلة فيه فقال لهم ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: تخاصمون في انتسابه إلى دينكم. ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ وقيل: إنه كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألف سنة؛ فاقتضى هذا استحالة انتساب إبراهيم لأي من الديانتين للفارق الكبير في الزمن. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: لماذا لا تكونون عقلاء وتعترفون بخطئكم.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هذا إنكار بصيغة التوبيخ أي: أنكم خاصمتم في نبوة محمد وأنكرتموها مع أنّ لكم بها علماً تعلمونه في كتبكم. ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: أنكم تخاصمون في شيء لا تعلمونه لأن كتبكم لم تذكر لكم أن دين إبراهيم هو اليهودية أو النصرانية فمحاججتكم إذاً باطلة في كلتا الحالتين. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا تأكيد لجهلهم وعدم علمهم.

ولما أبطل الله محاجّتهم فيما ليس لهم به علم عن ديانة إبراهيم جاءت هذه الآية توكيداً لما سبق ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ وهذا نفي لديانته بأي من الديانتين. ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ أي: مائلاً عن الشرك إلى هدي الإسلام. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ توكيد لتوحيده الله في ألوهيته وإخلاص العبادة له وحده.

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ ذكر ابن عباس أن رؤساء اليهود قالوا: يا محمد والله لقد علمت أنا أولى الناس بدين إبراهيم فإنه كان يهودياً وما بك إلا الحسد، فأنزل الله تعالى قوله ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ أي: أن أحق الناس به أولئك الذين صدقوه وآمنوا بما جاء به وصدقوه. ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي: أن محمداً والذين آمنوا هم الذين اتبعوا ملة إبراهيم وهم أولى به منكم. وفي ذلك روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: (**إن لكل نبي ولاة من النبيين وإن وليّي منهم أبي وخليل ربي**) ثم قرأ ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾[1]. ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: المتولي والناصر للذين آمنوا به وبرسله.

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بأن البشر على اختلاف أزمانهم وأماكنهم ولغاتهم ومذاهبهم ملزمون حكماً بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، وأن تكون طاعتهم وعبادتهم له وحده؛ وهذا ما يجب أن تكون عليه دعوة المسلمين إلى غيرهم من الأمم. ومن أحكام الآيات: أن الله أبطل مزاعم أهل الكتاب بأن إبراهيم على ملتهم وذلك لأنه توفي عليه السلام قبل نزول التوراة والإنجيل فلا يعقل أن يتبع دينهم. ومن الأحكام:

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٣٢، والحديث أخرجه أحمد ج١ ص٤٢٩، والترمذي في كتاب التفسير برقم (٢٩٩٥)، سنن الترمذي ج٥ ص٢٠٨ .

تحريم المحاجّة بلا علم، وتحريم الكذب على الله وعلى أنبيائه. ومن الأحكام: أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً بل كان حنيفاً مسلماً مهتدياً بهدي الإسلام. ومن الأحكام: أن رسول الله محمداً ﷺ وأمته هم أولى الناس بإبراهيم لأنهم المتبعون لملته وهي الحنيفية.

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ ذكر القرطبي: أنها نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود

إلى دينهم[١] وقد يكون المعنى عامّاً يدل على أن اليهود والنصارى يحبون ثني المسلمين عن الإسلام، ودخولهم في دينهم كما قال تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾[٢]. وهذا الوُدُّ ليس محصوراً في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآية بالإخبار عنهم؛ بل هو مستمر إلى أن تقوم الساعة. ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أي: يعيدوكم للضلال كما هم عليه. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: أنهم بفعلهم هذا ما يضلون إلا أنفسهم بهلاكها. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أنهم لا يعقلون ما يفعلونه.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ استفهام تعجب وتوبيخ لهم على كفرهم بالله، وهم يشهدون ويعرفون آيات الله في كتبهم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ وهذا أيضاً تكرار للمعنى السابق توبيخاً لهم على خلطهم الباطل بالحق للتزوير على الناس لإيهامهم بأن الباطل حق وأن الحق باطل. ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: تخفونه. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تقومون بهذا عمداً وإصراراً.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص١١٠ .

(٢) سورة البقرة من الآية ١٠٩ .

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ لما وبخ الله اليهود على تلبيسهم الحق بالباطل، وكتمانهم للحق الذي يعرفونه أخبر عز وجل عن مكايدهم، ومنها: قولهم للجهلة منهم ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ ﴾ والمراد بالقائل هنا كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف فكانا يقولان للجهلة من اليهود: صلوا الصبح مع محمد وقومه، وفي المساء صلوا إلى بيت المقدس، وعندئذٍ سيقول الناس ما فعلوا هذا إلا بعدما تبين لهم أن الحق في استقبال بيت المقدس(١). وقد يكون المعنى قولهم لعامتهم صلوا مع محمد وآمنوا به في ظاهركم، وأنتم على دينكم، ومن يراكم على هذه الحال سوف يشكّ في دين محمد لأنه يعرف أنكم أهل كتاب، وما فعلتم ذلك إلا لعلم عندكم من كتابكم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي: مرادهم من الكيد والتشكيك محاولة إرجاع المسلمين عن دينهم.

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ بعد أن وجه رؤساء اليهود عامتهم أن يشككوا في دين الله ويتخذوا النفاق وسيلة لهم في ذلك، قالوا لهم ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ أي: لا تصدقوا إلا من كان على دينكم وملتكم اليهودية. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ هذه آية معترضة للتعجيل بالرد على اليهود بأن يقول لهم رسول الله ﴿إِنَّ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٤ ص١١١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٣٥٢-٣٥٣.

ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ وهو الإسلام، وليس بدينكم الذي نسخ برسالة الإسلام ونبوة محمد. ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ هذا قول رؤساء اليهود كعب بن الأشرف ومن معه متصلاً بقولهم ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ ولعل المراد لن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضائل والآيات، وعليكم أن تكتموا ما لديكم من علم عن نبيهم حتى لا يحاجوكم بذلك عند ربكم.

قلت: وقد أشكل تفسير هذه الآية لدى المفسرين فقال القرطبي: إن هذه الآية أشكل ما في هذه السورة(١).

وقد ذكر ابن جرير في تأويلها قوله: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم بمعنى: لا يؤتى أحد بمثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم بمعنى: أن يحاجكم أحد عند ربكم بإيمانكم لأنكم أكرم على الله منهم بما فضلكم به عليهم فيكون الكلام كله خبراً عن قول الطائفة التي قال الله عزوجل ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ ﴾ سوى قوله ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ ثم يكون الكلام مبتدأ بتكذيبهم في قولهم: قل يا محمد للقائلين ما قالوا من الطائفة التي وصفت لك قولها لِتُبَّاعها من اليهود ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ إن التوفيق توفيق

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص١١٢ .

الله والبيان بيانه وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء لا ما تمنيتموه أنتم يا معشر اليهود[١].

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ المراد أنه يختص برحمته من يشاء من عباده كما اختصكم أيها المسلمون بدين الإسلام وبالرسالة التي جاء بها نبيكم وهو صاحب الفضل العظيم عليكم.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير أن طوائف من أهل الكتاب يودون صرف المسلمين عن دينهم، وهذا واقع في كل زمان ومكان. وما نراه من قيام المنصِّرين اليوم بالتغلغل في أوساط المسلمين في آسيا وإفريقيا بل وفي بلاد المسلمين عامة والعمل على ردتهم والتشويش عليهم بنشر الطرق والزوايا كالصوفية شاهد على ذلك. ومن الأحكام: توبيخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله وهم يشهدون صدقها في كتبهم. ومنها: تحريم التلبيس والتدليس ومايدخل في معناه من التزوير والكذب. ومن الأحكام: تقرير خداع طوائف من أهل الكتاب خاصة اليهود حين يتظاهرون بأنهم مؤمنون بالإسلام كافرون به في دواخلهم مع قيامهم بالتشكيك فيه والتمويه على غيرهم. ومنها: بيان أنّ أهل الكتاب يقولون لبعضهم لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، وهذا يقتضي شعورهم بالعداء للمسلمين وعدم الثقة فيهم. ومن الأحكام: توكيد

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٣ ص٣١٥-٣١٦ .

أنّ الهدى هدى الله، وأنه يؤتي الفضل من يشاء من عباده كما اختص المسلمين بدين الإسلام وهداهم إليه.

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ في هذا بيان أنّ من اليهود من تأمنه بقنطار من الذهب فيؤديه كما يفعل المؤمنون منهم بالإسلام كعبد الله بن سلام. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ أي: أن منهم خائناً لا يؤدي الأمانة إلا إذا لازمه الدائن بالطلب والإلحاح. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ هذا قول اليهود أي: أنهم إذا تبايعوا مع المسلمين لا يتورعون عن ظلمهم برد حقوقهم ويقولون إن هذا في كتابهم وقيل: إنهم إذا استدانوا من الأعراب المشركين أموالاً ثم أسلم هؤلاء جحدوا حقوقهم وقالوا لهم: رجعتم عن دينكم فسقط دَيْنكم ويدَّعون أن هذا في كتبهم. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ

﴿يَعۡلَمُونَ﴾ أي: أنهم يكذبون على الله وينسبون إليه ما لم ينزله في كتبهم، وهم في أنفسهم يعلمون أنهم كاذبون.

لما قال اليهود ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ من حيث عدم أداء الأمانة لهم رد الله عليهم بقوله ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما قالوا من عدم الوفاء بأمانتهم؛ بل إن عليهم عظيم الإثم والعذاب بسبب خيانتهم. قوله ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ أي: أدى الأمانة التي عليه واتقى الله في ذلك ولم يجحد حقوق غيره. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: يحب الذي يوفي بعهده، ويتقي الله في قوله وفعله وأمانته.

أحكام ومسائل الآيتين:

في الآية دليل على عدم ائتمان من يخون أمانته، ولا يرد حقوق الناس إليهم إذا تبايعوا معه. وقد احتج الإمام أبو حنيفة بقول الله ﴿إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗا﴾ على أن للطالب ملازمة المطلوب بالدين[1]. وقد خالفه في ذلك العلماء لأن المفلس لا يستطيع أداء الدين مهما كانت ملازمته لأن وفاءه بالدين مما يتعذر عليه.

ومن هذه الأحكام: وجوب أداء الأمانة وجوب عين على من اؤتمن عليها والأصل فيه قول الله جل ذكره ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) أحكام القرآن للجصاص، ج٣ ص٢٩٩ .

﴿وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾(١).

وقول رسول الله ﷺ: **(أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)**(٢).

وقوله: **(آية المنافق ثلاث: ومنها: إذا اؤتمن خان)**(٣). ولما قال رجل لابن عباس: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ولا نرى في ذلك بأساً قال له: هذا كما قال أهل الكتاب ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ فإذا أدوا ما عليهم من الجزية لا يحل لكم أن تأخذوا منهم شيئاً إلا ما طابت به أنفسهم. ومن الأحكام: أن من يوفي بعهده ويتقي الله فإن الله يحب المتقين، وهذا يقتضي حكماً أن من لم يوف بعهده ولم يتق الله فإن إثمه عظيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

بيان الآية:

ما زال السياق عن اليهود فقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ

---

(١) سورة الأحزاب من الآية ٧٢ .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب البيوع، باب ٣ برقم (١٢٦٤)، سنن الترمذي ج٣ ص٥٦٤، وأحمد في المسند ج٣ ص٤١٤، والدارمي في كتاب البيوع، باب أداء الأمانة واجتناب الخيانة، برقم (٢٥٩٧)، ج٢ ص٣٤٣ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم (٣٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ج١ ص١١١ .

﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ نزلت -كما قيل- في الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين أحد اليهود أرضٌ فجحدني فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله: (**هل لك من بينة؟**) قلت: لا، قال لليهودي: (**احلف**) قلت: إذاً يحلف فيذهب بمالي، فأنزل الله هذه الآية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي: لن يكون لهم نصيب من الخير في الآخرة ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: سوف يحتقرهم فلا يحظون بشرف كلامه أو نظره كما ينظر إلى المتقين. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لن يطهرهم من الذنوب. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد جزاء أعمالهم المسيئة.

أحكام ومسائل الآية:

الحكم أن من حلف يميناً كاذبة يقتطع بها مال امرئ مسلم فقد استحق عقاب الله، وحكم الحاكم لا يحل المال الحرام لقول رسول الله ﷺ: (**إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار**)[١].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، برقم (٧١٦٩)، صحيح البخاري مع فتح الباري، ج١٣ ص١٦٨ .

ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

بيان الآية:

ما زال السياق في الإخبار عن سلوك اليهود في المدينة فقوله ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا﴾ أي: طائفة منهم. ﴿يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ والمراد أنهم يتكلمون بكلام محرف يميلون ألسنتهم به للتمويه على من يسمعهم أنه من التوراة. ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ نفي لكونه من التوراة. ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: يكذبون على من يستمع لهم بأن ما يقولونه من عند الله. ﴿وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ توكيد للنفي الأول. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: يفترون على الله الكذب وهم يعلمون أن ما يقولونه من عند أنفسهم، وليس من الله في شيء.

أحكام ومسائل الآية:

بيان ما كان يفعله فريق من اليهود من تحريف ما ورد في التوراة ونسبته إلى الله، وهذا يقتضي تحريم الكذب والوعيد لأصحابه كما قال عز وجل ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٢١ .

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

ما زال السياق أيضاً في الرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى خاصة نصارى نجران الذين كانوا يؤلهون عيسى ابن مريم فقوله ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ أي: ما كان ينبغي لبشر ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: أن من آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة كما أعطى ذلك لعيسى لن يقول للناس: اعبدوني من دون الله لأن هذا القول شرك. وقد نزه الله أنبياءه عن ذلك فهذا أمر مستحيل ومن يقول بهذا عن أحد من الأنبياء أو المرسلين فهو كاذب ومتقول عليه. وكعادة اليهود في التمويه قيل: إنهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أتريد أن نعبدك مع الله فأنزل الله هذه الآية. قوله ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾ أي: يمكن أن يقولوا لهم كونوا متعلمين أو علماء تعلمون الناس الكتاب وتدرسونه لهم ليعرفوا طاعة الله وعبادته.

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ ﴾ أحد آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن تتخذوا

الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله. ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ إنكار مفاده أنه لا يمكن لمن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يرد من أسلم إلى الكفر.

أحكام ومسائل الآيتين:

تنزيه أنبياء الله ورسله أن يدعوا الناس إلى عبادتهم لأن ذلك شرك، وهم منزهون عنه. ومن الأحكام: تحريم كل عبادة لغير الله سواء كانت على صفة ركوع أو سجود أو تعظيم أو على أي: صفة كانت لأن ذلك من أعظم الشرك الذي خلد الله أصحابه في النار. ومن الأحكام: أن خير الناس من يدعو إلى الخير ويساعد من يفعله.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (٨٢)﴾.

قوله ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾ يخبر جل ذكره أنه أخذ العهد على النبيين بما أعطاهم

من الكتاب المنزل عليهم، والحكمة البالغة أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم وجب عليهم الإيمان به ونصرته؛ ذلك أن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً لأن كلاً منهم لا يأتي بشيء من عنده بل من عند الله. ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ الرسول هنا هو محمد ﷺ أي: أن الله أخذ على الأنبياء إذا أدركوا محمداً أن يصدقوه ويتبعوه كما أخذ عليهم الميثاق أن يؤمن أتباعهم به. ﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِي﴾ استفهام تقريري والمراد أنكم أقررتم بذلك وأخذتم على ذلك عهدي. ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ﴾ جواب منهم بأنهم أقروا بما عهد به إليهم. قال ﴿فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: أن الله قال لهم: اشهدوا على أنفسكم وعلى أممكم بذلك، وأنا معكم سأشهد على ما شهدتم عليه وعلى ما عهدته إليكم.

وفي هذا ميزة وفضل عظيم لنبي هذه الأمة محمد ﷺ بأن جعل دينه آخر الأديان، ورسالته خاتمة الرسالات، وأمته أفضل الأمم فلله الحمد والشكر على ما أنعم به وتفضل.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: أن من أعرض من أمم الأنبياء عن اتباع رسول الله محمد ﷺ بعد أن أخذ الله عليهم الميثاق لاتباعه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله.

أحكام ومسائل الآيتين:

الحكم أن الله عز وجل أخذ الميثاق على النبيين، وعلى أممهم بتصديق رسالة رسول الله محمد ﷺ؛ وهذا يقتضي أن كل دين قبله قد نسخ وأن من لم يتبعه معرضاً عنه يعد فاسقاً وعاصياً لله ولا يقبل منه أي عمل.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٨٥)﴾.

بيان الآيات:

قوله ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ قيل: إن كعب بن الأشرف وأصحابه تخاصموا مع النصارى عند رسول الله ﷺ فقالوا: أينا أحق بدين إبراهيم فقال لهم رسول الله: (**كل منكم بريء من دينه**) فقالوا: مانرضى بما قضيت كما لا نرضى بدينك فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: استسلم له

وانقاد كل من في السموات والأرض من الملائكة والجن. ﴿طَوْعًا﴾ أي: أسلم له المؤمن طواعية. ﴿وَكَرْهًا﴾ وهذا هو إسلام الكافر بما أخذ عليه من الميثاق كما قال عز وجل ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾(١). ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي: أنهم جميعاً مؤمنهم وكافرهم سيرجعون إليه وسيجزي كلاًّ منهم بعمله.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ بعد أن وبخ الله اليهود والنصارى في قوله ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ وجه رسوله وأمته توجيه علم وكمال فقال ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ والإيمان هنا مطلق التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان كذلك بالقرآن. ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: ما أنزل على هؤلاء النبيين من الصحائف والكتب. ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ والمراد بالأسباط بطون إسرائيل، وما أنزل على موسى أي: التوراة، والإنجيل الذي أنزل على عيسى. ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: جميع الأنبياء دون تفريق بينهم. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مستسلمون لله طائعين له.

---

(١) سورة الأعراف من الآية ١٧٢ .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ في هذا توكيد على أنه لا دين إلا دين الإسلام، وأن من يبتغي ديناً غيره فهو مردود عليه غير مقبول منه. ﴿وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ توكيد مضاف بأن من ابتغى غير هذا الدين سيكون من الخاسرين وشاهده قول الله ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴾[1]، ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[2]، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾[3].

أحكام ومسائل الآيات:

الإنكار الشديد على من يعرض عن دين الإسلام ويبتغي غيره؛ مع أن كل ما في الكون قد خضع لأمر الله وآمن بما قدره وقضاه بأن جعل هذا الدين آخر الأديان ورضيه لخلقه. ومن الأحكام: وجوب الإيمان بكل ما جاء به الرسل وعدم التفريق بينهم، ووجوب الإيمان بكل ما أنزل الله من الكتب دون تفريق بينها. ومنها: الحكم بأن من ابتغى ديناً غير دين الإسلام فلن يقبل منه وعمله مردود عليه وهو في الآخرة من الخاسرين؛ ذلك أن هذا الدين قد نسخ كل الأديان السابقة فوجب على أصحابها أن يؤمنوا به.

(١) سورة الكهف الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الكهف الآية ١٠٤ .

(٣) سورة الكهف الآية ١٠٥ .

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ قيل: في سبب نزول هذه الآية إن رجالاً من المسلمين أسلموا ثم ارتدوا عن إسلامهم ولحقوا بالمشركين ثم ندموا على ما فعلوا؛ فأرسلوا إلى قومهم في المدينة ليسألوا رسول الله ﷺ عما إذا كان لهم من توبة. فلما سألوا رسول الله عن ذلك نزلت هذه الآية ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ وقيل: إنهم عادوا إلى الإسلام وقبلت توبتهم ولعل هذا هو الصحيح لأن الله يتوب على من يتوب من عباده. وقوله ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المراد منه أنه لا يهدي الذين يبقون على كفرهم بعدما جاءتهم البينات أما إذا أسلموا وتابوا قبل الله ذلك منهم فهو أرحم بالعباد من أنفسهم يقبلهم إذا أقبلوا عليه بالتوبة كما قال عز وجل ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[1].

---

(١) سورة النساء من الآية ٢٧ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي: أن هؤلاء إذا بقوا على كفرهم وضلالهم سوف يلعنهم الله، وتلعنهم الملائكة ويلعنهم الناس أجمعون.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ أي: مؤبدين في اللعنة فلا يزول عنهم العذاب ولا يؤجل عنهم.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ هذا استثناء من المستحقين للعذاب خاص بالذين يتوبون من كفرهم وردتهم، والمراد به المسلمون الذين ارتدوا ثم ندموا ومنهم الحارث بن سويد وأبو عامر الراهب[١].

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بالطرد من رحمة الله لكل من كفر بعد أن عرف الحق وآمن بالله وبرسالة رسوله محمد ﷺ. ومن الأحكام: قبول توبة الكافر والمرتد إذا صلحت حالهما؛ فالآيات وإن نزلت في المسلمين الذين ارتدوا ثم تابوا وتاب الله عليهم إلا أنها عامة في كل كافر ومرتد يتوب إلى الله توبة نصوحاً بشروطها الثلاثة وهي: العودة إلى الإيمان، والندم على ما فات، والعزم على عدم العودة للضلال.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٤٠، والجامع لأحكام القرآن ج٤ ص١٣٠ .

كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٩١)﴾.

بيان الآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ لعل المراد الذين ارتدوا بعد إسلامهم ثم استمروا على ردتهم. ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي: عند مماتهم؛ لأن التوبة يجب أن تكون في فسحة العمر، وليس عند نهايته وشاهده قول الله جل ذكره ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[1]. وشاهده أيضاً قول رسول الله ﷺ: **(إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر)**[2]. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ وصف للمستمرين على كفرهم وردتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ المراد أن من مات وهو كافر فلن يقبل منه ما عمله من خير كصدقة ونحوها لأن كل الأعمال مترتبة على الإسلام؛ فإذا انتفى هذا انتفى كل عمل آخر مهما كان حجمه، وهو معنى قوله ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ

---

(١) سورة النساء من الآية ١٨ .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات باب فضل التوبة والاستغفار، برقم (٣٥٣٧)، سنن الترمذي ج٥ ص٥١١، وأحمد في المسند ج٣ ص٤٢٥، والتبريزي في المشكاة في كتاب الدعوات، باب الاستغفار والتوبة برقم (٢٣٤٣)، المشكاة ج٢ ص٧٢٤، وابن ماجة في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، برقم (٤٢٥٣)، سنن ابن ماجة ج٢ ص١٤٢ .

﴿ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ وفي ذلك روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **(يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به فيقول: نعم فيقال له: كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك)**[١]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: لا ناصر لهم في الآخرة لا مالاً ولا ولداً ولا قريباً.

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير أن من استمرأ الضلال بعد أن آمن ومات على حاله تلك فلن تقبل توبته عند مماته لأن التوبة لا تكون إلا في حال فسحة العمر.
الحكم: بأن الذي يموت وهو كافر فلن يقبل منه يوم القيامة فداء مهما كانت قوته، ولن يكون له ولي يواليه، أو شفيع يشفع له من العذاب الذي سوف يقاسيه.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾﴾.

بيان الآية:

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ﴾ أي: لن تحصلوا على ثواب الله أو جنته ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: أن تكون نفقتكم من أحبّ الأموال إليكم لأن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً، برقم (٢٨٠٥)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٩ ص٢٥٣.

المرء إذا أنفق في سبيل الله من أعز ما لديه من أمواله كان ذلك دليلاً على صدق إيمانه، لأن المال مما تحبه النفوس. فلما نزلت هذه الآية قال أبو طلحة: إن ربنا ليسألنا من أموالنا فأشهدك يا رسول الله إني جعلت أرضي لله فقال رسول الله ﷺ: **(اجعلها يا أبا طلحة في قرابتك حسان بن ثابت وأبي بن كعب)** فقال: أفعل يا رسول الله وكانت بئر بيرحاء في المدينة أحب أمواله إليه[1]. ولما نزل بأبي ذر ضيف قال للراعي: ائتني بخير إبلي فجاء بناقة مهزولة فقال أبو ذر: خنتني فقال الراعي: وجدت خير الإبل فحلها فذكرت يوم حاجتكم إليه فقال: إن حاجتي إليه يوم أوضع في حفرتي. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي: أن ما تنفقونه من طيب أو رديء يعلمه الله بعلمه المطلق وستجزون عليه.

أحكام ومسائل الآية:

المراد بالنفقة في الآية صدقة الفرض أي: الزكاة وصدقة التطوع. والأصل في فضيلة الصدقة من المال الجيد هذه الآية قول الله ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[2]. ومن أحكام الآية: فضل الصدقة على القريب لأنها صدقة عليه وصلة له.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)، برقم (٤٥٥٤-٤٥٥٥)، صحيح البخاري مع فتح الباري، ج٨ ص٧١ .

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٦٧ .

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣ ﴾.

بيان الآية:

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: أن كل الأطعمة حلال لبني إسرائيل. ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ أي: استثنى منه ماحرمه إسرائيل (وهو يعقوب) على نفسه وفي الحديث عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال: **(كان يسكن البدو فاشتكى عرق النسا فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرمها)** قالوا: صدقت[1]. وقيل: إنه نذر إن برئ من مرضه ليتركن أحب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل وألبانها. ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ ﴾ أي: أن تحريمه للطعام الذي حرمه كان قبل نزول التوراة على موسى وقد يكون إسرائيل حرم أحب الأشياء إليه تقرباً لله وكان هذا سائغاً في شريعتهم؛ فله مناسبة بعد قول الله ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وقد ذكر هذا ابن كثير. ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ وهذا أمر من الله لنبيه محمد

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الرعد، سنن الترمذي ج٥ ص٢٧٤، برقم (٣١١٧).

أن يحاجهم بأن الطعام كان حلالاً لهم باستثناء ما حرمه إسرائيل على نفسه، وأن ما حرم عليهم لم يكن قديماً بل كان طارئاً عليهم بسبب ظلمهم وعدوانهم لقول الله ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾(١).

أحكام ومسائل الآية:

من حرم شيئاً على نفسه وجب عليه الامتناع منه ومن ذلك النذر كما فعل يعقوب بتحريم لحم الإبل وألبانها، ومن ذلك اليمين كما فعل رسول الله ﷺ حين حرم العسل أو جاريته مارية القبطية ونزل فيه قول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾(٢). كما سيأتي. ومن ذلك تحريم المرأة بالطلاق.

ولكن لا يجوز أن يحرم ما أحل الله له من الطيبات والأصل فيه قول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾(٣). والأصل فيه أيضاً نهي الله لنبيه في الآية السابقة عن تحريم ما أحله له، فاقتضى هذا أن من حرم على نفسه ما يحل له لا يحرم عليه، وله استباحته بعد التحريم، ويلزمه كفارة يمين لقول الله تعالى لنبيه ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾(٤).

---

(١) سورة النساء من الآية ١٦٠.

(٢) سورة التحريم من الآية ١.

(٣) سورة المائدة من الآية ٨٧.

(٤) سورة التحريم من الآية ٢.

﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ في هذا رد على كذبهم بأن ذلك كان محرماً عليهم قبل نزول التوراة أي: من زمن إبراهيم وفي هذا دلالة كبرى على نبوة رسول الله ﷺ الذي أخبرهم أن التحريم عليهم لم يكن في التوراة ولما أمرهم أن يأتوا بها أبوا حين عرفوا أنه أخبر بذلك لما أوحاه الله إليه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي: المعتدون الذين لا يقولون الحق وفي هذا نكتة وإشارة قيل: إنهم قالوا لرسول الله: من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك فقال: (**إن ولي جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه**) قالوا: فعندها نفارقك فلو كان وليك غيره لتابعناك[1].

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ ﴾ أمر لنبي الله محمد ﷺ أن يقول لهم صدقت الله فيما أوحاه وأنتم الكاذبون فيما قلتم. ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: يجب عليكم أن تلزموا ملة إبراهيم الحنيفية وهي ملة الإسلام وعليكم هجر دينكم الذي نسخه الله بسبب تحريفكم له بعد أن سيطرت عليكم أهواؤكم وأعراض دنياكم.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج١ ص٢٧٨، والطبراني في المعجم الكبير ج١٢ ص٢٤٧ .

أحكام ومسائل الآيتين:

الحكم بأنه لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله وينسب إليه مالم يكن منه من الآيات أو الأحكام. وفي هذا رد على اليهود الذين قالوا: إن أنواعاً من الطعام كانت محرمة عليهم في التوراة فكذبهم الله. ومن الأحكام: ثبوت نبوة رسول الله ﷺ حين تحدى اليهود فعجزوا عن الإتيان بما يثبت أقوالهم التي كانوا يريدون منها عدم تصديق رسالته عليه أفضل الصلاة والسلام.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ هذا بيان أن أول بيت وضع لعبادة الناس لله في طوافهم وصلاتهم وعمرتهم وحجهم ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ مكة وبكة من أسماء مكة قيل: سميت بهذا لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها..[١]. وفي الحديث عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في

(١) تفسير القرآن العظيم ج١ ص٣٩١ .

الأرض قال: (**المسجد الحرام**) قلت: ثم أي ؟ قال: (**المسجد الأقصى**) قلت: كم بينهما؟ قال: (**أربعون عاماً ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل**)(١). ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: يضاعف الأجر والثواب فيه. ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فيه مبتغاهم من التعبد لله بالطواف والصلاة فيه.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآيات البينات هي مقام إبراهيم الذي كان يقوم عليه أثناء بنائه الكعبة، ولا يزال أثر قدميه باقياً منذ آلاف السنين على صخرة صماء وكان هذا المقام ملاصقاً للكعبة إلى أن أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه توسعة للطائفين.

وقد أمر الله عباده أن يتخذوا منه مصلى في قوله تعالى ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾(٢).

قلت: ومع تغير الأحوال وكثرة الحجاج والعمار الذين يفدون إلى مكة -زادها الله تشريفاً-، ولما كان المقام في وضع يشق على الطائفين في أيام الحج والمواسم التي يكثر فيها المعتمرون، ولما أصبح من الصعب أداء الصلاة فيه بوضعه الحالي؛ فقد بات من المهم أو الضروري تنحيته إلى مكان آخر لكي يتسع للطائفين مطافهم، ويتحقق فضل الصلاة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد، برقم (٥٢٠)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٢ ص٤٠٩ .

(٢) سورة البقرة من الآية ١٢٥ .

فيه عملاً بالآية الكريمة. والعبرة هنا في النية وليس المكان لأن المكان الذي هو فيه الآن ليس المكان الذي كان عليه زمن رسول الله ﷺ.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ الأمن في البيت الحرام من آيات الله كما قال عز وجل ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾(١). وقال ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾(٢). ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾(٣). وقد أهلك الله من أراده بسوء كما فعل بجيش أبرهة ملك الحبشة حيث قال عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾(٤). ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾(٥). ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾(٦). ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾(٧). ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾(٨).

هذا في الكتاب أما في السنة فقد أكد رسول الله ﷺ على حرمة مكة في قوله: (**إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولا يعضد فيها شجرة فإن أحد**

---

(١) سورة العنكبوت من الآية ٦٧ .
(٢) سورة قريش الآية ٣ .
(٣) سورة قريش الآية ٤ .
(٤) سورة الفيل الآية ١ .
(٥) سورة الفيل الآية ٢ .
(٦) سورة الفيل الآية ٣ .
(٧) سورة الفيل الآية ٤ .
(٨) سورة الفيل الآية ٥ .

ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب)[١].

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ ﴿وَلِلَّهِ﴾ أي: حق ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: أداء شعائر الحج بوصفه أحد أركان الإسلام الخمسة. وكما أمر الله عباده بالحج أمرهم كذلك رسوله فيما رواه أبو هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: (**أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا**) فقال رجل: كل عام يارسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال رسول الله: (**لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم**) ثم قال: (**ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**)[٢].

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ الاستطاعة تكون بالبدن وتكون بالمال، فأما بالبدن فمسلَّم به؛ ذلك أن من لا يستطيع الركوب على أداة النقل لعجزه أو كبره ينبغي أن يحج عنه ولده أو قريبه أو يحج عنه من ماله، فإن لم يكن له كل ذلك فأمره إلى الله يُرجى أن يعفو عنه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب جزاء الصيد، باب لا يعضد شجر الحرم، برقم (١٨٣٢)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٤ ص٥٠ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، برقم (١٣٣٧)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٤ ص٤٢٧ .

ولهذا يجب على المسلم أن يبادر بالحج قبل حدوث ما لا يستطيعه أو يدركه أجله. والأصل في ذلك قول رسول الله ﷺ: **(من أراد الحج فليتعجل)**[١]. وأما المال فالزاد والراحلة والأصل في ذلك أن رسول الله ﷺ سئل ما السبيل ؟ قال: **(الزاد والراحلة)**[٢].

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: من ترك الحج منكراً له فهو كافر لقول رسول الله ﷺ: **(من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً)**[٣]. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: ليس في حاجة إليهم فمن أطاع فلنفسه ومن عصى فإثم عصيانه عليه لأن الله لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين.

أحكام ومسائل الآيتين:

الحكم بأن البيت الحرام يعد أول بيت وضع لعبادة الله بالطواف فيه في الأرض فهو قبل بيت المقدس. ومنها: وجوب الأمن لمن دخل البيت الحرام ولكن هذا لا يمنع أخذ الجاني بجنايته؛ فمن يقتل فيه ظلماً يقتص من قاتله. ومن يسرق فيه يجازى بجرم السرقة. ومن يعتدي فيه

---

(١) أخرجه ابن ماجة في كتاب المناسك، باب الخروج إلى الحج برقم (٢٨٨٣)، سنن ابن ماجة ج٢ ص٩٦٢، السنن الكبرى للبيهقي ج٤ ص٣٤٠ .

(٢) أخرجه ابن ماجة في كتاب المناسك، باب ما يوجب الحج، برقم (٢٨٩٦)، سنن ابن ماجة ج٢ ص٩٦٧، والترمذي في كتاب الحج، باب ما جاء في إيجاب الحج بالزاد والراحلة، برقم (٨١٣)، سنن الترمذي ج٣ ص١٧٧ .

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الحج، باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج، برقم (٨١٢)، سنن الترمذي ج٣ ص١٧٩ .

يعاقب بما يستحقه اعتداءه. وإذا جنى الجاني خارج الحرم والتجأ إليه أخذ بجنايته وهذا قول عامة العلماء وقد أخذ الأحناف بظاهر حديث رسول الله ﷺ بأن الله حرم مكة فقالوا: إذا قتل في غير الحرم ثم دخل الحرم لم يقتص منه ما دام فيه ولكنه لا يبايع ولا يؤاكل إلى أن يخرج من الحرم فيقتص منه، وإن قتل في الحرم قتل، وإن كانت جنايته فيما دون النفس في غير الحرم ثم دخل الحرم اقتص منه(١).

ومن الأحكام في الآية: أن الحج ركن من أركان الإسلام وهو مرة واحدة في العمر بوصفه فريضة. أما التطوع فلا حد له لقول الله جل ذكره ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾(٢). ولكن إذا كثر الناس وضاق المكان بالحجيج فأصبح في الحج صعوبة بالغة ومشقة عظيمة فعدم التطوع بالحج أولى بالأجر من مضايقة الحجيج. والحج فرض عين على الكافة ذكرهم وأنثاهم باستثناء صغارهم، وهو على الفور وليس على التراخي لأن الإنسان لا يدري وقت أجله؛ ومع ذلك فهو على اليسر والاستطاعة البدنية.

ومن الأحكام: أنه لا يجوز للوالد منع ولده من الحج، ولا للزوج منع زوجه من الحج، ولا للحاكم منع رعيته من الحج لأنه ركن من أركان الإسلام وطاعة لله، والمنع منه معصية له، ولا طاعة لمخلوق في

---

(١) أحكام القرآن للجصاص، ج٢ ص٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) سورة البقرة من الآية ١٩٧ .

معصية الخالق. وتجوز النيابة في الحج، والأصل فيه حديث الخثعمية فقد لقيت رسول الله في حجة الوداع فقالت: يا رسول الله إن فريضة الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال: (**نعم حجي عنه أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيته؟**) قالت: نعم قال: (**فدين الله أحق أن يقضى**)[١].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ هذا توبيخ وتقريع لأهل الكتاب اليهود والنصارى على كفرهم برسالة رسول الله ﷺ وقد جاءتهم البينات في كتبهم الدالة على نبوته ورسالته. ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: أن الله شاهد على أفعالكم وكفركم وتكذيبكم له وسيجازيكم على ذلك.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ ﴾ صد الشيء صرفه. ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ استفهام وإنكار

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب وجوب الحج وفضله، برقم (١٥١٣)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٣ ص٤٤٢، وابن ماجة في كتاب المناسك، باب الحج عن الحي إذا لم يستطع، برقم (٢٩٠٩)، ابن ماجة ج٢ ص٩٧١ .

وسبيل الله هو الإسلام. ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ من عباده الذين خلقهم لعبادته ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: تريدون لسبيل الله عوجاً أي: ميلاً. ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي: تدركون من كتابكم التوراة أن الإسلام هو دين الله الحق. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ والمراد أن الله يعلم عملهم وجحودهم لما في كتابهم.

أحكام ومسائل الآيتين:

إنكار الله على أهل الكتاب كفرهم برسالة رسول الله محمد ﷺ، وهم يعلمون حق العلم من كتبهم حقيقة نبوته ورسالته. وإنكار الله كذلك عليهم في صدهم الناس عن الإسلام وصرفهم عنه وهم يعلمون أيضاً من كتبهم أن الإسلام هو دين الله الحق. ومن الأحكام: أن الله يعلم ما يفعله هؤلاء وغيرهم من جحودهم لما في كتبهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ المراد الأوس والخزرج فقد أراد شأس

ابن قيس اليهودي تجديد الفتنة بينهم بعد انقطاعها بوجود رسول الله ﷺ في المدينة ودخولهم في الإسلام. فقد جاء هذا اليهودي إليهم وهم مجتمعون يتحدثون حديث الإخوة فأنشدهم شعراً قاله شاعر أحد الحيّين في حروبهم السابقة فقال الحي الآخر: وقد قال شاعرنا كذا وكذا فوقع الشجار بينهم فقالوا: تعالوا نرد الحرب جذعة كما كانت فنادى هؤلاء يا آل أوس، ونادى هؤلاء يا آل خزرج فاجتمعوا ورفعوا السلاح واصطفوا للقتال فنزلت هذه الآية. فجاء رسول الله ﷺ فنزل بين الصفين فقرأ هذه الآية ورفع صوته ثم قال: (**أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية وألف بين قلوبكم**) فلما سمعوا ذلك أنصتوا له يستمعون. فلما فرغ من القراءة ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً وجعلوا يبكون وعرفوا أن ما حدث نزعة من شيطان أراد تفريق صفوفهم وتمزيق وحدتهم[١].

قلت: هذه واحدة من الفتن والدسائس التي تعرضت لها الأمة منذ تكوين دولتها. وقد ظلت هذه الفتن تتابع عليها في كل مرحلة من مراحل تاريخها فكانت تنتصر عليها عندما تكون راسخة العقيدة قوية العزيمة شديدة البأس. ولم تزل هذه الفتن تتوالى، وستظل كذلك ولن تنتهي إلا إذا تمسكت الأمة بقرآنها وعرفت أن ما يتعرض له سلفها سيتعرض له

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٤٢ - ٢٤٣، والجامع لأحكام القرآن ج٤ ص١٥٥ .

خلفها، وأنه لا نجاة لها من هذه الفتن إلا إذا تمسكت بالقرآن والسنة كما فعل الأوس والخزرج حين قرأ عليهم رسول الله هذه الآية.

قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ المراد بهم الأوس والخزرج. ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني شأس بن قيس وأعوانه. ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ أي: يخرجونكم من دين الإسلام، وتعودون كما كنتم متحاربين في يوم (بعاث)[1] وغيره.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ هذا استفهام إنكاري والمراد الأوس والخزرج أي: كيف تقتتلون وتعودون إلى ملتكم السابقة من العداوة والكفر وكتاب الله يتلى عليكم. ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ أي: ما زال رسول الله بينكم يعظكم ويعلمكم أمور دينكم. ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ ﴾ أي: أن من يتمسك بالله فيتبع كتابه ونبيه ورسوله. ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: وفقه الله إلى الطريق القويم وهو طريق الله.

أحكام ومسائل الآيتين:

تحذير المؤمنين من طاعة أعدائهم لكونهم يريدون إعادتهم إلى

---

(١) بعاث: المكان الذي وقعت فيه الحرب بين الأوس والخزرج وكان الانتصار للأوس وكان يوم بعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ثم جاء الإسلام واتفقت الكلمة واجتمعوا على نصر الإسلام وأهله وكفى الله المؤمنين القتال. انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير ج١ ص٥٣٨ .

الكفر بعد أن أنقذهم الله منه، وهذا هو ما يجب أن تكون عليه الأمة في كل زمان من التفطّن لما يريده لها أعداؤها حتى وإن بدوا في ظاهرهم يزعمون نصحهم لها. ومن الأحكام: إنكار الله على الذين يستمعون لكلام أعدائهم ويصدقونهم. ومنها: وجوب الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ فمن تمسك بهما أمن الفتن ووفقه الله إلى الطريق القويم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠٣﴾.

بيان الآيتين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المنادى هم المؤمنون ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ومعناها رواه عبدالله بن يحيى أن رسول الله ﷺ قال: **(حق تقاته أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر)**[1]. وقيل: إن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على الصحابة وقالوا:

---

(١) أخرجه الهيثمي عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفا في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج٦ ص٣٢٦، وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٣٦٦، موقوفاً عن ابن مسعود رضي الله عنه.

يا رسول الله من يقوى على هذا فأنزل الله عز وجل قوله ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[1]. وقد يكون المعنى اتقوا الله حق تقاته بقدر ما تستطيعون لأن الله قد قال ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾. ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي: لا يأتيكم الموت إلا وأنتم على دين الإسلام الذي ارتضاه الله لكم.

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ لا يزال السياق في الأوس والخزرج، وما تعرضوا له من نزغ الشيطان الذي أراد بهم العودة إلى القتال فأمرهم الله بالاعتصام بحبل الله. والاعتصام التمسك وحبل الله هو القرآن لأنه يتضمن عهد الله وفي هذا قال رسول الله ﷺ: **(إن هذا القرآن هو حبل الله)**[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: **(القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم)**[3].

﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ المراد به النهي عن التفرق في الدين، وفي هذا تحذير لأمة محمد ﷺ ألا تفترق في دينها كما افترق أهل الكتاب في دينهم. وكما حذر الله من التفرق حذر منه رسول الله ﷺ بقوله:

---

(١) سورة التغابن من الآية ١٦ .

(٢) أخرجه الترمذي ج٥ ص١٥٨ في كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في فضل القرآن، برقم (٢٩٠٦)، والدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن برقم (٣٣٣١)، الدارمي ج٢ ص٥٢٦ .

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، برقم (٢٩٠٦)، ج٥ ص١٥٨ .

(ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى لو كان منهم من يأتي أمه علانية لكان من أمتي من يصنع ذلك وأن بني إسرائيل تفرقت اثنتين وسبعين ملة وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة) قالوا: من هي يارسول الله ؟ قال: **(ما أنا عليه وأصحابي)**[1].

قلت: وليس هذا هو القدر الذي حكمه الله على هذه الأمة؛ بل هو تحذير لها من أن تفعل ما فعله أهل الكتاب من الافتراق. والمؤلم أن ما حذر الله منه وحذر منه رسوله وقع في هذه الأمة، ولم يكن هذا يصيبها لو أنها تمسكت بحبل الله المتين كما أمرها بذلك؛ ذلك أنه عزوجل وضع لعباده قواعد وسنناً وأمرهم باتباعها في دينهم ودنياهم، ولم يضعها لهم إلا وهو أعلم بهم وأرأف بأحوالهم ومن هذه السنن: الوحدة في دينهم، وعدم التفرق بينهم فإذا خالفوا هذه السنن تحكمت فيهم أهواؤهم فتشتت جمعهم وانهزموا في أنفسهم، وهو ما حذر منه عز وجل الأوس والخزرج فأدركوه.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ تذكير لهم بما كانوا عليه من الحروب والعداوة أكثر من مائة سنة. ﴿فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: أوجد المحبة في قلوبكم فانتهيتم عما كنتم عليه من العداوة.

---

(١) أخرجه الترمذي ج٥ ص٢٦ في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، برقم (٢٦٤١)، وقال أبو عيسى : «هذا حديث مفسَّر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه».

﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ أي: أنكم لما دخلتم الإسلام وصدقتم رسالة نبيكم صرتم إخواناً متحابين لا تنزع بكم عصبية ولا يفرقكم أحد. ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي: كنتم أقرب إلى النار بسبب الكفر الذي كنتم عليه فنجاكم منها بالإسلام. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: أن الله بين لكم ما كنتم عليه وهداكم بالإسلام فعليكم أن تتمسكوا به.

أحكام ومسائل الآيتين:

وجوب التمسك بالإسلام عقيدة ومنهجاً. وجوب الوحدة بين الأمة. والاختلاف المنهي عنه هو ما كان في العقيدة والأصول أما الاختلاف المبني على الاجتهاد في الفروع فلا بأس به لما روي أن رسول الله ﷺ قال: (**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**)[1].

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ المراد أن تكون من الأمة طائفة أو فرقة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ برقم (٧٣٥٢)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٣ ص٣٣٠ .

﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ والخير والمعروف مترادفان وهو كل أمر فيه خير ونفع للمرء في دينه ودنياه. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو كل ما كان متعارضاً مع دين الله من المحرمات. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين وفقهم الله للفلاح.

أحكام ومسائل الآية:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القربات وأفضل الأعمال، والأصل في ذلك الكتاب، والسنة. أما الكتاب فقد وصف الله الأمة بـ الخيرية في قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[1]. كما وصف عز وجل المؤمنين والمؤمنات بأنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر فقال جل ذكره ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[2]. وقال ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[3]. ووصف المنافقين والمنافقات بأنهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف بقوله تقدست أسماؤه

---

(١) سورة آل عمران من الآية ١١٠ .

(٢) سورة التوبة من الآية ٧١ .

(٣) سورة الحج من الآية ٤١ .

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾(١).

أما في السنة فقد روت درة بنت أبي لهب قالت: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وهو على المنبر فقال: من خير الناس يا رسول الله؟ قال: (**آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم لرحمه**)(٢). وفي حديث أنس بن مالك قال: قيل: يارسول الله متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال: (**إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم**) قلنا: يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: (**الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالتكم**)(٣).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مفهوم الإسلام ليس مجرد وعظ وتذكير للأمة أن تقوم به؛ بل واجب لا ينفك عنها وهو على وجهين: الأول- واجب على ولاية الأمة وجوب فرض؛ ذلك أن المسلم محكوم - كما ذكر- بضوابط إلَهية فليس له الحق في أن يرتكب المحرمات بحجة (حريته). فإن لم يكن له وازع من ذاته وجب أن يكون له وازع من الولاية يمنعه من إظهار ما حرم الله. فإن ستره فأمره إلى الله، والشاهد في هذا قول رسول الله ﷺ: (**... والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن**

(١) سورة التوبة من الآية ٦٧ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج٦ ص٤٣٠ .

(٣) أخرجه ابن ماجة في كتاب الفتن، باب قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم)، برقم (٤٠١٥)، ابن ماجة ج٢ ص١٣٣١ .

المنكر ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً)[١]. وقوله: (**.. وما ظهرت الفاحشة في قوم إلا ابتلوا بالأمراض التي لم تكن معروفة في أسلافهم)**[٢].

وفي الحديث الأول توجيه للأمة في عمومها مقتضٍ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو قوله (لتأمرن) و(لتنهون) بصيغة الجمع المخاطب به الأمة. وفي الحديث الثاني تحذير يقتضي النهي عن ارتكاب الفواحش، وهذا لا يكون إلا بوازع خارجي إذا لم يكن للإنسان وازع من ذاته - كما ذكر - .

أما الواجب الثاني- فيقوم به الفرد من الأمة في مساعدة الولاية في تحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إما من خلال قيامه بهذا الواجب إذا كان مكلفاً به من قبلها، أو من خلال نصحها للقيام به إذا كانت مقصرة فيه. أو من خلال قيامه به بمفرده إذا لم تقم به، وهذا مشروط بالقدرة لقول رسول الله ﷺ: (**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)**[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، سنن أبي داود ج٤ ص١٠٧، برقم (٤٣٣٦).

(٢) أخرجه ابن ماجة مفصلاً في كتاب الفتن، باب العقوبات، برقم (٤٠١٩)، سنن ابن ماجة ج٢ ص١٣٣٣ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، برقم (٤٩)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج١ ص٢٥١ .

فدل هذا على أن الأمر بالمعروف مما يجب القيام به، وأن النهي عن المنكر مما يجب تغييره، وأن الذين يقولون بعدم هذا وذاك إنما يقلدون غيرهم من الأمم التي بادت بسبب فشو الفواحش والمحرمات فيها؛ كما يقلدون غيرهم من الأمم المعاصرة التي تنتهك فيها حرمات الله، وتعاني بسبب ذلك من المفاسد مما هو معلوم.

قلت: والأمر بالمعروف لا يقتصر على الأمة في داخلها؛ بل إنها بحكم عقيدتها مطالبة بأن تدعو الأمم إلى الإسلام، وإلى التمسك بالأخلاق، ومحاربة الرذيلة والفواحش التي أصبحت تتفشى بين الأمم وقد تكون سبباً في غضب الله عليها وانتقامه منها كما انتقم من الأمم التي ارتكبت ما حرمه عليها.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ﴾ المراد بهم أهل الكتاب الذين تفرقوا وكانوا شيعاً رغم ماجاءهم من البينات في كتبهم وقد يراد بهم كل من تفرق واختلف في دينه رغم ما جاءه من العلم. ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: بسبب فرقتهم واختلافهم على أنبيائهم.

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ أي: في ذلك اليوم، أو بعد الممات مباشرة. قيل: إنهم أهل الكتاب، وقيل: إنهم الكفار أو المنافقون أو أهل الأهواء. ولعل المراد هو كل من حاد عن الطريق السوي طريق الإسلام الذي جاء بالبينات، ويدخل فيه عموم الكفر وشاهده قول الله ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ أي: أنكم قد كفرتم بعد أن كنتم مؤمنين، وهذا يشمل المرتدين، ويشمل أهل الكتاب الذين لم يصدقوا رسالة محمد ﷺ رغم علمهم بها في كتبهم. كما يشمل كل من ضل عن سواء السبيل من أهل الأهواء والفرق المنحرفة. ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي: اصلوا عذاب النار جزاء كفركم.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ المراد بهم أهل التقوى وأهل اليقين الذين آمنوا بالله وصدقوا ما جاء به رسوله. ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ وصف لحالهم في الآخرة بأنهم يتنعمون برحمة الله وخلودهم في النعيم.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ المخاطب هنا محمد ﷺ والمراد بآيات الله القرآن وما فيه من الآيات. ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: يتنزل بها جبريل صدقاً وحقاً لا ريب فيه. ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: أنه العادل في الحكم فلا يظلم أحداً بغير ذنب ارتكبه بل يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولكنه أرحم الراحمين كما قال عز وجل: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾(١).

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ توكيد لكون جميع ما في السموات وما في الأرض وما بينهما ملكاً لله عز وجل يتصرف فيه كيف يشاء برحمته وبعدله فلا يظلم أحداً من خلقه. ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي: كل راجع إليه.

أحكام ومسائل الآيات:

تحريم الفرقة والاختلاف بين الأمة، وتحذير المسلمين من أن يكونوا مثل الأمم التي تفرقت بعدما جاءها من البينات فحق عليها العذاب. ومن الأحكام: أن المؤمنين الذين التزموا شرع الله وكانوا على المحجة البيضاء تبيض وجوههم يوم القيامة ويعرفهم الناس بها. أما أهل الكفر والمرتدون عن دين الله فتسود وجوههم، ويوبخون على كفرهم بعد إيمانهم، ويحالون إلى العذاب الذي كانوا يكذبون به. ومن

---

(١) سورة الأعراف من الآية ١٥٦ .

الأحكام: التوكيد على نبوة رسول الله محمد ﷺ وتنزل القرآن عليه بالحق. ومنها: الحكم بأن لله مافي السموات ومافي الأرض وما بينهما وأن جميع الخلق عبيده، وتحت تصرفه ومشيئته.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

بيان الآية:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ أي: أن الله جعلكم خير أمة. ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ أي: ظهرت للناس وقد ورد في فضل هذه الأمة آثار كثيرة منها: قول رسول الله ﷺ: (**أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء**) فقيل: يارسول الله ماهو ؟ قال: (**نصرت بالرعب وأعطيت مفاتيح الأرض وسميت أحمد وجعل التراب لي طهوراً وجعلت أمتي خير الأمم**)[١]. ومنها: قوله عليه الصلاة والسلام: (**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة. ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه الناس لنا فيه تبع غداً لليهود وللنصارى بعد غد**)[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ج١ ص٩٨، والبيهقي في كتاب الطهارة ج١ ص١٤٠، والألباني في إرواء الغليل ج١ ص٣١٧، وقال: «فالحديث صحيح متواتر عن رسول الله ﷺ».

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، برقم (٨٥٥)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٣ ص٢١٧-٢١٨ .

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ هذا مدح وفضل للأمة إذا قاموا به, بل هو أساس الشروط في خيرية الأمة لأنه لما ذكر هذه الخيرية قرنها بالأمر بالمعروف فأصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ملازماً لصفة الخيرية؛ فلو تركت الأمة هذا الأمر زالت عنها هذه الصفة.

قلت: ولا يكفي أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصّاً بها نفسها - كما ذكر من قبل - بل يجب عليها أن تأمر الأمم بالمعروف وتنهاها عن المنكر، ومن ذلك الدعوة إلى الإسلام والعمل على تبليغه لمن لا يعرفه. ومن ذلك التنبيه على مخاطر المنكرات التي تتفشى بين الأمم في هذا الزمان كالزنا واللواط والربا ونحو ذلك من المحرمات.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: تصدقون به وبكل ما أنزل من الكتب وأرسل من الرسل. ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي: لو آمنوا بمحمد ورسالة الإسلام لكان ذلك خيراً لهم مما هم عليه. ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الذين آمنوا من أهل الكتاب بالله وجعلوا الإسلام دينهم كما هو حال عبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الذين استمروا على معاداتهم للإسلام وهم الكثرة.

أحكام ومسائل الآية:

تقدم الكلام على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، ولكنه قد يكون فرض عين إذا كان دين الله يتعرض للأذى وفي مقدور المرء أن يقوم بالدفاع عنه. والأصل في ذلك قول رسول الله ﷺ: (**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع بلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**)[١]. ويكون هذا للسلطان أو ولي الأمر لأن عمر رضي الله عنه كان يفعله حين يخرج بالدرة لتغيير ما يراه منكراً.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ لعل المراد ما لحق بمن أسلم من اليهود من الأذى حيث إن رؤساءهم كانوا يعنفون بالقول من

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان ...، برقم (٤٩)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٣ ص٢٥٠ .

أسلم منهم كعبد الله بن سلام. والمقصود بالأذى الأذى النفسي.
﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ في هذا إخبار بل وعد من الله بأنهم لن ينتصروا في قتال المسلمين، وستكون عاقبتهم الهزيمة. وهذا الإخبار أو الوعد مما كتبه الله لعباده المؤمنين الذين ينصرون رسالته، ويجاهدون في سبيله سواء في الوقت الذي نزلت فيه الآية أو ما بعده. ولكن النصر على العدو مشروط بما يكون عليه المؤمن من أهلية الإيمان، والثبات على الحق، وهذا ما ثبت للمسلمين في خيبر وفي الشام وغيرها.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي: المهانة. ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي: وجدوا. ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ المراد من الحبل من الله دخولهم في الإسلام. ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يكونون ذميين في عهدة المسلمين. ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: حق عليهم بسبب جحودهم وعنادهم. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: شح النفس وفقرها ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: أن ما حصل لهم من الذلة والمسكنة كان بسبب عنادهم وإصرارهم على عدم تصديق رسالة الله وآياته التي عرفوها في كتابهم.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذكر أنهم قتلوا النبي (أرمياء) و(زكريا) و(أشعياء بن أموص). ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾

أي: بسبب ما ذكر من جحودهم وعصيانهم واعتدائهم على أنبيائهم مما سبب لهم الذلة والمسكنة .

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير وعد الله للمؤمنين أن اليهود لن ينتصروا في قتالهم معهم بل ستكون الهزيمة عاقبتهم. تقرير ما يصيب اليهود من الذلة والمسكنة بسبب كفرهم وعصيانهم لله واعتدائهم على أنبيائهم وقتلهم بغير حق.

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ يعني أهل الكتاب، فهم ليسوا متساويين فمنهم المؤمن ومنهم الكافر. ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ ولعل المراد بهم الذين أسلموا ومنهم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسِيد ابن عبيد وغيرهم وقد وصفهم الله خير وصف في قوله ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ

ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴾ وذلك لصلاتهم وتهجدهم وفي هذا رد على كبار اليهود الذين قالوا: ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا. وقيل: إن المراد هم الذين كانوا يصلون صلاة العتمة؛ فقد ذكر ابن مسعود أن رسول الله ﷺ خرج ليلة وقد أخر الصلاة فمنا المضطجع ومنا المصلي فقال: (**إنه لا يصلي أحد من أهل الأرض هذه الصلاة غيركم**)[1].

﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ أي: يقرون بوجوده ويصدقون رسوله. ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ أي: باتباع الإسلام ونبيه محمد. ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ أي: يتبرؤون من كل قول أو فعل خلاف ذلك. ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ أي: يبادرون بعمل كل خير غير مترددين ولا متباطئين فيه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ هذا وصف لهم بصلاح أعمالهم وقبولها من الله.

﴿ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ ﴾ لما نعت الله المؤمنين في آخر الآية بأنهم من الصالحين أكد أن ما فعلوه من خير لن يعدموا ثوابه وجزاءه بالحسنى. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي: عالم بأهل التقوى الصادقين في إيمانهم.

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٤٧، وأخرجه أحمد في المسند ج١ ص٣٩٦، وابن حبان في كتاب الصلاة باب ذكر الإباحة للمرء تأخير العشاء الآخرة إذا لم تخف ضعف الضعيف وكان ذلك برضاء المأمومين، برقم (١٥٢٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ج٤ ص١٨٧ .

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بأن من أهل الكتاب مؤمنين صادقين في إيمانهم متبعين لسنة رسول الله محمد ﷺ وهديه، وقد وصفهم الله بالصلاح، ووعدهم بالثواب والجزاء الحسن. وفي ذلك قال رسول الله ﷺ: (**ثلاثة من أهل الكتاب يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران**)(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ لما ذكر الله جل علاه أن ما يفعله المؤمنون من خير سيلقون جزاءه عقَّب على ذلك ببيان مآل الكافرين مبيناً أن أموالهم وأولادهم وهم أقرب الناس إليهم لن يغنوا عنهم من الله من شيء. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته برقم (١٥٤)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج١ ص٤٤٢ .

أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي: أن هؤلاء هم نزلة النار وقد كتب لهم الخلود فيها لقاء كفرهم.

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ هذا وصف وتشبيه للحال التي ينفق فيها الكافرون أموالهم في حياتهم وهو ﴿ كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ ﴾ الريح الصر هي الريح الشديدة البرودة التي تعرضت لحرث قوم من الظلمة فأهلكته بعد أن كانوا ينتظرون جداده، وفي هذا ألم وحسرة لهم؛ لأن جهدهم في الزرع قد ذهب هباء فلم يكن لهم منه نصيب إلا التعب والندم. فحال الكفار الذين ينفقون أموالاً لا يبتغون بها وجه الله وإنما يبتغون منها التفاخر والخيلاء والرياء وحب الشهرة والسلطة كحال الذين أهلكت زروعهم الريح فليس لهم من نفقاتهم إلا الخسارة والندم.

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: أن الله لا يظلم أحداً كما قال جل ذكره ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾(١). ﴿ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ أي: أنهم هم الظالمون لأنفسهم لكونهم أنفقوا أموالهم في غير سبيل الله فما ينالهم من العذاب هو بسببهم أنفسهم.

أحكام ومسائل الآية:

توكيد أنه لن يغني أحد عن أحد شيئاً يوم القيامة كما قال تعالى

---

(١) سورة النساء من الآية ٤٠ .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾(١). ﴿ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴾(٢). ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾(٣). ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾(٤). ومنها: أن أهل الكفر يخلدون في العذاب ومنها: الحكم بأن من أشرك به أو مات وهو كافر فلن ينفعه عمل عمله ولو كان صالحاً كالبر أو الصدقة. ومن الأحكام: تنزيه الله جل وعلا عن الظلم، وأنّ أهل الكفر هم الذين يظلمون أنفسهم بسبب كفرهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) ﴾.

بيان الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ فيه تحذير مثل قوله في الآية السابقة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾(٥). وبطانة الرجل خاصته ومن يطلع على سرائره. ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي: من غير أهل

(١) سورة عبس الآية ٣٤ .
(٢) سورة عبس الآية ٣٥ .
(٣) سورة عبس الآية ٣٦ .
(٤) سورة عبس الآية ٣٧ .
(٥) سورة آل عمران الآية ١٠٠ .

دينكم وخاصة الذين تظهر عداوتهم ومكايدهم للمسلمين. ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يتورعون عن العمل في إفسادكم. ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: أنهم يحبون العنت والمشقة لكم في دينكم ودنياكم. ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بما يتحدثون به من العداوة والأذى النفسي للمسلمين ومثال ذلك ما سبق ذكره عن إيقاع شأس بن قيس اليهودي العداوة للفتنة بين الأوس والخزرج. ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ فيه بيان أن ما يسرونه في أنفسهم من العداوة أكبر مما يبدونه بأفواههم. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: تلك التي تدل على عدم موالاة أعداء الله. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما ذكرناه لكم عن حال أعدائكم.

أحكام ومسائل الآية:

التحذير من موالاة من تبدو منهم العداوة للمسلمين من أهل الكتاب، أو غيرهم سواء في حربهم أو تربصهم بالمسلمين، أو الكيد لهم. أما الذين لا تظهر منهم هذه العداوة فلا خلاف حول التعامل معهم في الحدود التي تقتضيها أحكام الشريعة، وما يعود على المسلمين من هذا التعامل. ويدخل في حكم الموالاة التشبه بهم ونحو ذلك مما يؤثر على المسلمين في عقيدتهم أو تراثهم.

ومن هذه الأحكام: عدم جواز شهادة العدو على عدوه استدلالاً

بقول الله جل ذكره ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآية. وهذا خلافاً لبعض أصحاب الإمام أبي حنيفة القائلين بالتفصيل: فإذا كانت العداوة دنيوية تمنع قبول الشهادة وتقبل إن كانت بسبب الدين(١)، وقيل: أن العداوة بسبب الدنيا لا تمنع الشهادة مالم يفسق بسببها أو يجلب منفعة أو يدفع بها عن نفسه مضرة وهو الصحيح وعليه الاعتماد(٢).

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ المخاطب هم المؤمنون. ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ أي: تحبون هؤلاء المنافقين فيما يظهرون لكم من المودة والمحبة وتودون أن يدخلوا في الإسلام. ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي: رغم محبتكم لهم لا يحبونكم. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ وتؤمنون بكتابهم ومع ذلك فهم لا يحبونكم.

---

(١) تبيين الحقائق للزيلعي ج٤ ص٢٢١ .

(٢) حاشية ابن عابدين ج٥ ص٤٨٠، وحلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء لأبي بكر القفال ج٣ ص٢٦٢ .

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي: أنهم يخادعونكم ويظهرون أنهم على دينكم. ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: إذا ذهبوا عنكم عضوا على أطراف أصابعهم حقداً وغيظاً عليكم. ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: إن حسدكم وحقدكم لن يغير في الأمر شيئاً، بل إن المؤمنين سيزداد إيمانهم بالله، وسوف ينصر الله عباده المؤمنين، ولن يحصل لكم إلا الحسرة والندامة وقد يكون فيه معنى الدعاء عليهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: إنه يعلم ما في صدور هؤلاء المنافقين من الحقد والبغضاء.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ هذا موصول بما قبله عن سيرة المنافقين وعلاقتهم مع المؤمنين. والمراد إن تكونوا في خير ونعمة ووحدة في عقيدتكم فإن ذلك يؤذيهم في مشاعرهم. ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ أي: إذا أصابتكم بأساء أو ضراء أو فتن يفرحوا بها لأن نظرتهم للمؤمنين نظرة حقد وحسد. ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ هذا توجيه للمؤمنين بأنهم إذا صبروا واتقوا الله وثبتوا على إيمانهم فإن كيد الكائدين لا يضرهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما يعملونه في سرهم وعلانيتهم.

قلت: هذا التوجيه الرباني للمؤمنين يتضمن الأمر لهم بمواجهة مكايد الأعداء وتربصهم بهم؛ إذ إن حكمته اقتضت أن يكون في الناس أخيار وأشرار، وأن المرء كما يتعرض في مساره للخير يتعرض فيه للشر وفي ذلك قال الله جل ذكره ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1]. وهنا يكون المرء بين خيارين إما أن يستسلم للعدو الذي يمثل الشر فلا يكون أمامه إلا الانهزام والمهانة؛ وإما أن يصبر ويصابر ويرابط ويتقي الله بطاعته واجتناب محارمه وعندئذٍ سينتصر ويهزم عدوه بلا مراء لأن الله وعد بهذا عباده في قوله ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾. وقد عرفنا من وقائع التاريخ أن الأمة حين تكون على النحو الذي أراده الله لها من التقى، والوحدة، والاعتصام بحبله فإنها تنتصر على عدوها مهما كانت قوته وجبروته. وحين تكون على النحو الذي نهاها عنه، وحذرها منه، وهو كثرة المعاصي ترتد على أعقابها فتنهزم في ذاتها أولاً، ثم تنهزم أمام عدوها ثانياً.

والأعداء الذين كانوا في المدينة زمن رسول الله ﷺ يتكررون في كل زمان؛ فقد اقتضت حكمة الله وقضاؤه أن يظل الصراع قائماً بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، إلى أن يرث الله الأرض ومن

(١) سورة العنكبوت الآية ٢ .

عليها، ولا ينتصر في هذا الصراع إلا الأقوياء بإيمانهم، ولا ينهزم فيه إلا الضعفاء في هذا الإيمان، وتلك سنة الله التي قد خلت في عباده.

أحكام ومسائل الآيتين:

بيان حقيقة أعداء المسلمين بأنهم لا يحبون لهم الخير؛ فإن أصابتهم ضراء فرحوا بها واستبشروا بها، وإن أصابتهم سراء أساءتهم وغمتهم. ومن الأحكام: أن الذين يصبرون على تقوى الله وخشيته ويثبتون على دينهم لا يضرهم كيد أعدائهم بل ينصرهم الله عليهم.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾.

بيان الآيات:

المناسبة غزوة أحد يوم السبت من شوال في السنة الثالثة من الهجرة. ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: خرجت في الغدوة وهو الصباح من أهلك. ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: تنزلهم وتهيئهم. وكان سببها أن المشركين أرادوا الثأر من المسلمين حين قتل منهم من قتل في غزوة بدر، وسلمت العير التي كانت مع أبي

سفيان حينئذٍ قال أبناء الذين قتلوا فيها ومن بقي من رؤساء المشركين لأبي سفيان: ارصد هذه الأموال لقتال محمد ففعل فجمعوا السلاح والعتاد وساروا في نحو ثلاثة آلاف رجل حتى نزلوا قريباً من جبل أحد قرب المدينة.

فلما صلى رسول الله ﷺ الجمعة استشار الناس عما إذا كان من المناسب أن يخرج إليهم أم يبقى في المدينة فأشار عبد الله بن أبي بن سلول بالبقاء فيها، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار آخرون من الصحابة بالخروج إليهم خاصة ممن لم يشهد بدراً وقالوا: اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا جبنا عنهم فقال ﷺ: (**إني رأيت في منامي بقراً مذبحة حولي فأولتها خيراً ورأيت في ذبابة سيفي ثلماً فأولته هزيمة ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة**)[١]. فدخل رسول الله فلبس لأمته فخرج عليهم وقد ندم بعضهم وقالوا: خشينا أنا استكرهنا رسول الله فقالوا: يا رسول الله إن شئت أن نمكث فقال عليه الصلاة والسلام: (**ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يرجع حتى يحكم الله له**)[٢].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ج١ ص٢٧١ .

(٢) جامع البيان ج٧ ص٣٧٢ .

فسار عليه الصلاة والسلام في نحو ألف من الصحابة ورجع عبدالله بن أبي بن سلول بثلث الجيش لعدم أخذ مشورته، واستمر رسول الله ﷺ مع من بقي معه حتى نزل بالقرب من أحد في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: (**لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال**) وجعل على الرماة -وهم خمسون رجلاً- عبدالله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف وقال لهم: (**انضحوا الخيل عنا ولا نؤتين من قبلكم والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم**)[1]، وظاهر عليه الصلاة والسلام بين درعين، وأعطى اللواء لمصعب بن عمير وتحفزت قريش ومعهم مائة فرس وجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار. وقد اشتد القتال فجرح رسول الله ﷺ في وجهه وكسرت رباعيته وهشمت الخوذة على رأسه والذي فعل ذلك ابن قميئة وعتبة بن أبي وقاص وقد صبر رسول الله ﷺ وصابر وجاهد بكل قواه فجزاه الله عن أمته ودينه بأفضل ماجزى به نبياً ورسولاً [2].

وفي هذه المعركة قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه؛ قتله وحشي مملوك جبير بن مطعم؛ فقد جعلوا له أعنة الخيل إن قتل

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ج٦ ص١٦٢.

(٢) الدر المنثور ج٢ ص١١٩ - ١٢٢، وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٣٧٧ - ٣٧٨، وجامع البيان للطبري ج٣ ص٧٠ - ٧٢، والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٩٠ - ٩٣.

نبي الله، ومائة ناقة إن قتل علي بن أبي طالب، وحريته من العبودية إن قتل حمزة بن عبد المطلب، فقال وحشي: أما محمد فعليه حافظ من الله لا يخلص إليه أحد، وأما علي فما برز إليه أحد إلا قتله، وأما حمزة فرجل شجاع وعسى أن أصادفه فأقتله.

نعم: كانت هذه المعركة امتحاناً للمسلمين لمعرفة صبرهم وثباتهم، وكانت درساً للذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ لهم بالثبات في مواقعهم. وعلى كل حال فإن النصر في النهاية كان من نصيب المؤمنين حين دالت دولة الشرك والوثنية وفتح رسول الله ﷺ مكة معقل المشركين، وأذّن بلال الحبشي رضي الله عنه في مواقع الطغاة بعد أن دكتها جحافل المسلمين، ودخل الناس في دين الله أفواجاً فحلت المحبة محل العداوة. فالحمد لله الذي أعز دينه ونصر نبيه ورحم الله حمزة بن عبد المطلب ومن استشهد معه من المهاجرين والأنصار.

قوله ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: أماكن له. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: أنه سميع بما كنتم تقولونه وما تنوونه .

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ الطائفتان هما بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس؛ ذلك أن عبد الله بن أبي ابن سلول قال للناس: علام نقتل أنفسنا وأولادنا فهم بنو سلمة

وبنو حارثة بالرجوع عن القتال فلم يرجعوا. ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: عصمهما فلم يرجعوا وقد يكون المعنى أنهم يعرفون أن الله هو الذي ينصر دينه ونبيه وعباده فلماذا لم يتوكلوا عليه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: أن المؤمنين هم الذين يتوكلون على الله فلا يجبنون عند اللقاء مع العدو.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ في هذا تسلية للمؤمنين عما أصابهم في أحد فبيَّن جل ذكره أنه نصرهم في معركة بدر. ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ المراد بذلك قلتهم؛ فقد كان رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً وكانوا قليلي العدة والسلاح فقد خرجوا على النواضح يتعاقب النفر منهم على البعير الواحد. وفي المقابل كان المشركون يزيدون في عددهم على ألف رجل ومعهم مائة فرس وعتاد وقوة. ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ توجيه للمؤمنين بالتزام تقوى ربهم والثناء عليه بما هيأ لهم من النصر. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لعلكم تشكرون ربكم بما منَّ عليكم من هزيمة عدوكم رغم كثرته وقلتكم.

أحكام ومسائل الآيات:

وجوب التوكل على الله في كل أمر يهم به المسلم لأنه جل ذكره قد تكفل بعون من يتوكل عليه كما قال ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ

حَسْبُهُۥٓ﴾[١] أي: كافيه وقال ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[٢]. وفيها: تذكير الله لعباده بما أنعم عليهم ووجوب شكره عليهم.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

بيان الآيتين:

هذا موصول بما قبله وهو منة الله على رسوله وعلى المؤمنين بالنصر يوم بدر، وإخبار الله بما وعدهم به رسوله بأن الله سوف يمدهم بالملائكة فذكَّر الله رسوله بما قاله لهم ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ وقوله ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ إلى قوله ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ والمعنى أنه يكفيكم أيها المؤمنون أن تصبروا وتتقوا ثم يمدكم ربكم بالملائكة؛ ذلك أن كرز بن جابر المحاربي وعد المشركين أن يمدهم برجاله ليقاتلوا معهم فشق ذلك على الصحابة؛ فوعدهم رسول الله بأن الملائكة ستكون معهم. فلما علم كرز بهزيمة المشركين انهزم معهم فلم يمدهم بما وعدهم به فلم يمدهم الله إذاً إلا بألف من الملائكة كما ورد في سورة

(١) سورة الطلاق من الآية ٣ .

(٢) سورة الطلاق من الآية ٤ .

الأنفال في قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[1]. وأما الوعد بإمدادهم بخمسة آلاف فكان هذا مترتباً على وعد كرز المحاربي للمشركين، فلما انهزم ولم يمدهم بما وعدهم به اقتصر إمداد الله تعالى للمؤمنين على الألف من الملائكة. قوله ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلمين بعمائم صفر.

أحكام ومسائل الآيتين:

منازلة العدو وهزيمته تقتضي الصبر على القتال؛ ذلك أنه لا نصر إلا بجهد ورباط ومثابرة، وقد أمر الله المؤمنين بذلك في قوله جل ثناؤه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾[2]. ولما كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يذكر له جموع جيوش الروم، وما يتخوف منهم كتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله له بعدها فرجاً، وأنه لن يغلب عسر يسرين ثم ذكر قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾.

وكما يقتضي القتال الصبر عليه يقتضي أولاً أن يكون في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، وعز دينه، ونصر رسوله. وما كان المسلمون الذين نشروا دين الله في الأرض يفعلون ذلك إلا بعد أن صلحت نياتهم

---

(١) سورة الأنفال الآية ٩ .

(٢) سورة آل عمران من الآية ٢٠٠ .

وسرائرهم؛ فأرادوا نصر دين الله فنصرهم بعد أن صبروا وصابروا ورابطوا. وما كانت الهزيمة لتحل بالمسلمين في الأزمنة المتأخرة وبخاصة في زماننا هذا إلا بعد أن ضعفت العقيدة في نفوسهم فلم يناجزوا عدوهم بما يجب أن ينازلوه به من التقوى، والصبر، والمرابطة، وصنع السلاح؛ فمن لا يتقي الله ولا يصنع السلاح بنفسه ويصبر على القتال لا يمكن أن ينتصر على عدوه.

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ أي: أن إنزال الملائكة للقتال معكم كان بشرى لكم بأن الله معكم في جهادكم ضد المشركين. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ أي: أن وجودهم معكم مما يسكن روعكم، ويقوي عزيمتكم وصبركم. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي: أن نصركم على عدوكم هو من عند الله بإرادته، وقوته، وحكمته. ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي: العزيز بقوته الحكيم في قوله وفعله.

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ المراد أن النصر الذي تحقق

لكم أيها المؤمنون هو ليهلك قوماً من الذين كفروا أي: المشركين، وقد تحقق ذلك بقتل أكثر من سبعين من رؤساء المشركين وأسر مثل هذا العدد. ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي: يحزنهم ويخزيهم. ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ أي: خاسرين لما نال بعضهم من القتل والأسر، وما نال من بقي منهم من الهزيمة والذلة.

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير اشتراك الملائكة مع صحابة رسول الله ﷺ في قتال المشركين.

تقرير أن النصر لا يكون إلا بإرادة الله وتوفيقه، وهذا يقتضي وجوب طلب النصر منه مع الاستعداد للقتال بما يلزمه من القوة كما قال عزوجل ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(١).

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ أي: أن أمر المشركين موكول إلينا. ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أي: أنه المرجع والفصل في التوبة عليهم أو تعذيبهم؛ فهو بحكمته وعلمه بخلقه أعلم بهم. وقد روي

---

(١) سورة الأنفال من الآية ٦٠ .

في سبب نزول هذه الآية عدة أقوال منها: أن رسول الله ﷺ لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد كان يسلت الدم ويقول: (**كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله**)[١]. وقيل: إنه استأذن ربه أن يدعو في استئصال المشركين خاصة يوم بدر، ونزول الملائكة للقتال مع المسلمين فنزلت هذه الآية؛ فعلم أن منهم من يسلم ويكون له شأن في الإسلام، ومن ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص[٢] وقد تاب الله عليهم.

وقيل: إنه بينما رسول الله ﷺ يدعو على مضر إذ جاءه جبريل فأومأ إليه أن اسكت فسكت فقال: (**يا محمد إن الله لم يبعثك سباباً ولا لعاناً وإنما بعثك رحمة ولم يبعثك عذاباً ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون**) قال: ثم علَّمه هذا القنوت فقال: (**اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونخنع لك ونخلع ونترك من يكفرك اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد إن عذابك بالكافرين ملحق**)[٣].

وعلى أي حال فلعل المراد أن الله وجه نبيه أن أمر هؤلاء المشركين كلهم أو بعضهم متروك إلى الله؛ فهو أعلم بهم وأحكم بما يفعله بهم

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٥٠، والحديث أخرجه أحمد في المسند ج٣ ص٢٥٣، والترمذي في كتاب التفسير ج٥ ص٢١١-٢١٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص١٩٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٢٠١.

من التوبة أو العذاب. ﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: أنهم ظلموا أنفسهم بشركهم وقتال المسلمين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ بعد أن قال تعالى ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾ أكد جل ذكره أن له كل ما في السموات والأرض يغفر لمن يشاء من عباده بسبب توبته وإنابته إلى الله، ويعذب من يشاء منهم بسبب كفره وجحوده. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: يغفر لعباده ويرحمهم.

أحكام ومسائل الآيتين:

النهي عن الدعاء على غير المسلمين من حيث العموم لأسباب منها: أن هؤلاء قد يتحولون إلى الإسلام ويكونون قوة له، وهذا محسوس ومشهود؛ فبعض جنود الأعداء الذين يأتون لمحاربة المسلمين يتحولون إلى الإسلام لما يرون من سماحة الإسلام وظلم حكامهم. ومن الأحكام: أن حكمة الله اقتضت أن يكون في بني آدم إسلام وكفر، ومن واجب أهل الإسلام دعوة غيرهم إليه بالحسنى، أو بالجهاد إذا اقتضت الحال ذلك.

هذا من حيث العموم، أما إذا كان الدعاء على شخص عدو بعينه فهذا جائز.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾

بيان الآيات:

هذه آية وردت أثناء الحديث عن قصة غزوة بدر، وأحد قال ابن عطية: لا أحفظ في ذلك شيئاً مروياً وذكر القرطبي: أن الله خص الربا من بين سائر المعاصي لأنه الذي أذن الله فيه بالحرب في قوله ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾[1]. والحرب يؤذن بالقتال فكأنه يقول: إن لم تتقوا الربا هزمتم وقتلتم فأمرهم بترك الربا لأنه كان معمولاً به عندهم[2].

قلت: والله أعلم أن لها مناسبة قد لا تكون ظاهرة، ولكن الله علمها فقد يكون بعض المسلمين أراد اللجوء إلى الربا لتقوية جيش المسلمين بما يجمعه من المال. وقد يكون أمراً أسره بعض المؤمنين في أنفسهم في ذلك الوقت الذي كانت فيه غزوة أحد، خاصة وما كان فيها من قلة عدد المسلمين وضعف سلاحهم فأراد الله إنزال هذه الآية حسماً لأمر كان مخفياً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ مناداة وأمر للمؤمنين وتحذير لهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٢٠٢ ، والآية في سورة البقرة من الآية ٢٧٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٢٠٢ .

﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ والمراد به ربا النسيئة الذي كان سائداً عند العرب في جاهليتهم فيضيف فيه الدائن على المدين حين يعجز هذا عن الوفاء فيقول الدائن له: إما أن تقضي الدين، أو تربي أي: تزيد عليه مقابل مد الأجل. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اخشوه وخافوه فلا تتعاملوا بالربا وعبر عنه مجازاً بالأكل. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تفوزون بالفلاح وهو النعيم.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ هذه متعلقة بالآية قبلها، والمراد التخويف من عذاب النار بسبب أكل الربا. ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: التي هيأها الله مكاناً ومقاماً للكافرين.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذه عطف على ما قبله حول الربا، والمراد أطيعوا الله فيما حرم عليكم من الربا، وكذلك طاعة رسوله فيما بينه لكم عن هذا التحريم.

أحكام ومسائل الآيات:

تحريم الربا والتشديد في تحريمه ولو كان الغرض منه مشروعاً كالصدقة أو البر؛ لأن الربا من الخبائث وقد حرم الله الخبائث فلا يتقرب إلى الله بها لأنه طيب لا يقبل إلا طيباً كما قال جل ثناؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾(١).

(١) سورة البقرة من الآية ٢٦٧ .

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٞ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قد يكون المراد المسارعة بطلب المغفرة والتوبة من الربا لمن كان يتعامل به أو كان يفكر فيه، وهذا هو الأقرب لصلة الآية بالآيات قبلها. وقد يكون المراد التوجيه العام للمؤمنين بالمسارعة في الطاعات، أو المسارعة بالصبر على القتال. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وفي الحديث أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت قول الله ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فأين النار ؟ قال: (**أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء فأين النهار؟**) قال: حيث شاء الله، قال: (**وكذلك النار تكون**

حيث شاء الله عز وجل)[1].

قال الإمام ابن كثير: وهذا يحتمل معنيين أحدهما- أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل. الثاني- أن يكون المعنى أن النهار إذا تفشى وعم العالم من هذا الجانب فإن الليل يكون من الجانب الآخر فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش وعرضها كما قال الله عزوجل كعرض السماء والأرض والنار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض وبين وجود النار[2].

﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: للذين اتقوا ربهم والمعنى ظاهر. ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ هذا بيان لسلوك المتقين الذين أعد الله لهم الجنة، ومنهم الذين ينفقون في اليسر والعسر، وفي الرخاء والشدة سواء على أولادهم وأقاربهم، أو على المحتاجين من الفقراء والمساكين لا يبتغون في ذلك مدحاً ولا ذكراً لهم، وإنما يبتغون مرضاة الله. ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ صفة ثانية للمتقين، وكظم الغيظ ضبط النفس عن الانتقام ممن يقدر عليه فيصبر على ما أصابه ابتغاء مرضاة الله، وفيه قول رسول الله ﷺ: **(من كظم غيظاً وهو**

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج١ ص٣٨٢، والدر المنثور ج٢ ص١٢٩ .

(٢) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير ص٢٤٦ .

يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً)[١]. ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ صفة ثالثة للمتقين المستحقين الجنة وهذا من أهم ضبط السلوك، والصبر على الأذى، وتحمل الإساءة عندما يترك المرء حقاً له ابتغاء وجه الله ومرضاته. وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من كان أجره على الله فليدخل الجنة فيقال: من ذا الذي أجره على الله فيقوم العافون عن الناس فيدخلون الجنة بغير حساب)**[٢]. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المحسنون صفة تشمل من ذكرهم الله في الآية. كما تشمل كل من عمل خيراً يبتغي منه وجه الله ومرضاته.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ هذه صفة أخرى لأهل الجنة؛ فالموصوفون الأُول كانت لهم جزاء عملهم وفضل الله عليهم، والآخرون جزاء توبتهم ورحمة الله لهم. الفواحش ذات مسميات كثيرة ومنها: الزنا والخمر ونحو ذلك مما حرمه الله. ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بسبب ذنب أو ذنوب ارتكبوها. ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: تذكروا نهيه عما فعلوه، وتذكروا عقابه وندموا على ما فعلوا. ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بادروا بالاستغفار من الله عما فعلوه.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب من كظم غيظاً برقم (٤٧٧٧ - ٤٧٧٨)، سنن أبي داود ج٤ ص٢٤٨، والترمذي في كتاب البر، باب في كظم الغيظ برقم (٢٠٢١)، سنن الترمذي ج٤ ص٣٢٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٢٠٨، وقال القرطبي: «ذكره الماوردي».

وفي ذلك روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: -كما سبق ذكره- **(أن رجلاً أذنب ذنباً فقال: رب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي فقال الله عزوجل: عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره لي فقال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم إني قد غفرت لعبدي فليعمل ما يشاء)**[1].

كما روى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني أبو بكر أن رسول الله ﷺ قال: **(ما من عبد يذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له)** ثم تلا هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ الآية. وقد ورد في الاستغفار وفضله أحاديث كثيرة، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: **(إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة)**[2].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج٢ ص٢٩٦، والبخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى (يريدون أن يبدلوا كلام الله) برقم (٧٥٠٧)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٣ ص٤٧٤ .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الوتر، باب في الاستغفار برقم (٢٥٢١)، سنن أبي داود ج١ ص٥٦٣، والترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، برقم (٤٠٦)، سنن الترمذي ج٢ ص٢٥٧، وابن ماجة في كتاب الإقامة، باب ما جاء في أن الصلاة كفارة برقم (١٣٩٥)، سنن ابن ماجة ج١ ص٤٤٦ .

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بيان وتوكيد أنه ما من أحد يغفر الذنوب إلا الله. ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ صفة للتائبين بأنهم لا يقيمون على ذنوبهم، بل يتوبون إلى الله ويستغفرونه منها. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: أنهم لا يصرون على ذنوبهم وهم عالمون بخطئها.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ هذا وعد من الله للمتقين والتائبين غير المصرين بأن جزاءهم جنات يخلدون فيها. ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ أي: أن هذا جزاء للذين اتقوا، والذين تابوا من ذنوبهم بالاستغفار والتوبة إلى الله.

أحكام ومسائل الآيات:

دعوة الله لعباده أن يسارعوا بالتوبة من ذنوبهم لكي يغفرها لهم، وهذا من رحمته ورأفته بهم من العذاب. وفيها: بيان سعة الجنة التي أعدها الله للمتقين من عباده. ومن الأحكام: فضل الإنفاق في السراء والضراء كما قال عز وجل في وصف المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١). ومن الأحكام:

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٤ .

فضل ضبط النفس عند الغضب والتحكم فيها عن الانتقام والتشفي. ومنها: فضل العفو عن الخطأ الذي يقع من الناس مؤمنهم وكافرهم، وهذا لا يشمل الخطأ إذا كان انتهاكاً لحرمات الله.

ومن الأحكام: وجوب الاستغفار من الأخطاء التي يرتكبها العباد في حق الله، ووعد الله للمستغفرين بالتوبة عليهم. أما حقوق الناس فلا تسقط إلا بالوفاء بها في الدنيا لأصحابها أو استيفائها منهم في الآخرة.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أي: ما سنه الله في الأمم السابقة، والخطاب لأمة محمد وقد يكون المراد تسلية رسول الله وصحابته

عما جرى لهم يوم أحد بأن ما حدث لكم في تلك المعركة قد حدث لمن كان قبلكم من الأمم السابقة. وقد يكون المراد أن ما حدث من تكذيب المشركين وجحودهم لرسالة الله سبق أن حدث في الأمم السابقة فعاقبهم الله، ولكن النصر والغلبة تكون في النهاية للمتقين الصابرين. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ المراد التدبر فيما حصل للذين قبلكم، وما كان للمتقين منهم من حسن العاقبة، وما كان للمكذبين من سوئها.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: القرآن فيه سيرة الأمم الغابرة فتدبروه. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وفيه الدليل إلى الهدى وفيه موعظة للمتقين بما حل بالأمم السابقة.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ قيل: في سبب نزول هذه الآية إن المسلمين لما انهزموا يوم أحد، وبينما هم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال رسول الله ﷺ: **(اللهم لا يعلنَّ علينا اللهم لا قوة لنا إلا بك اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر)** فأنزل هذه الآية[١].

وفيها نهي للمؤمنين عن الوهن، والعجز، والضعف، ونهي عن الحزن على ما أصابهم يوم أحد. والمقصود ألا يتركوا قتال المشركين

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ج٤ ص١٠٣، وأسباب النزول للواحدي ص٢٥٣-٢٥٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٤ ص٢١٧ .

ومنازلتهم، بل يجب عليهم أن يصبروا على ذلك ثم سلاهم عز وجل بقوله ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: إن العاقبة بالنصر والغلبة ستكون لكم، وقد كانت لكم في بدر حيث أصبتم منهم فيها أكثر مما أصابوا منكم في أحد. قال الإمام القرطبي: وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه لأنه قال لموسى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وقال لهذه الأمة ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾(١).

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط مؤداه أن الغلبة والنصر من نصيبكم دائماً إذا كنتم مؤمنين بصدق ما وعدتكم به من النصر على أعدائكم.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ القرح الجرح والمعنى إن كان المشركون قد أصابوا منكم يوم أحد، فقد أصبتم منهم أكثر من ذلك يوم بدر، ومع ذلك فلم يضعفوا بل عادوا إلى قتالكم. وليس في هذا مدح لهم بل تذكرة وتنبيه للمؤمنين بألا يهنوا ولا يحزنوا على ما أصابهم يوم أحد. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: نصرِّفها بين الناس؛ فتارة ينتصر هؤلاء، وتارة ينهزم أولئك، وكل ذلك بحكمة الله وإرادته. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ليعلم من هو الثابت على الإيمان، ومن هو خلافه، ومن هو الصادق في إيمانه، ومن هو المنافق. وقيل: إن المراد هو أن يعلم الله صبر المؤمنين بمعنى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج٤ ص٢١٧ .

العلم الذي يقع عليه الجزاء كما علمه غيباً قبل أن يكلفهم؛ ذلك أن الله عز وجل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها[١].

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ والمراد أن الله أراد بحكمته أن يكون منكم شهداء يوم أحد إكراماً لهم لما سيلقونه من الجزاء عند ربهم كما قال عز وجل ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٢]. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾[٣]. وهو كذلك تذكير لكم بأن القتال في سبيل الله لابد فيه من التضحية والفداء. وفي ذلك روى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ يوم بدر فقال له: **(خير أصحابك في الأسارى إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفداء على أن يقتل منهم العام المقبل مثلهم فقالوا: الفداء ويقتل منا)**[٤].

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: لا يحب المشركين بسبب شركهم وهم إن أصابوا المؤمنين فليس ذلك دليلاً على محبتهم وقربهم من الله، بل هم أبعد ما يكونون منه فمحبته لا تكون إلا للمؤمنين.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج٤ ص٢١٧ .

(٢) سورة النساء من الآية ٦٩ .

(٣) سورة النساء من الآية ٧٠ .

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب السير، باب ما جاء في قتل الأسارى والفداء برقم (١٥٦٧)، سنن الترمذي ج٤ ص١١٤ .

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التمحيص الامتحان والاختبار؛ فيمحص الله المؤمنين أي: يمتحن صبرهم وجلدهم على القتال ومدى ثباتهم على الإيمان كما قال الله جل ذكره ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾[1]. ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يهلكهم.

أحكام ومسائل الآيات:

من الأحكام: أن عاقبة المكذبين لرسول الله ﷺ الهلاك والعذاب، وأن في آيات القرآن البيان الشافي والهدى لمن يريد أن يهتدي ويتبع الحق وينبذ الباطل ومنها: الحكم بأن المؤمنين هم الأعلون في الدنيا والآخرة. ومنها: أن الحياة دول فكما ينتصر فيها المؤمنون قد ينهزمون، ولكن العاقبة الحسنى تظل دائماً لهم. ومن الأحكام: أن الله جل ثناؤه يبتلي عباده المؤمنين بالشدائد ليعرف مدى صبرهم وثباتهم على الإيمان فإذا فعلوا ذلك زادهم قوة ونصراً على أعدائهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

---

(١) سورة محمد الآية ٣١ .

بيان الآيتين:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أم توهمتم وتخيلتم. ﴿أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ المعنى هل تريدون دخول الجنة بمجرد انتسابكم للإسلام وبدون أن تجاهدوا وتقاتلوا في سبيل الله وتصبروا على ما ينالكم فيه من المشاق والمصاعب.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ فيه مخاطبة للصحابة الذين لم يشهدوا غزوة بدر، وكانوا يتمنون المشاركة في الجهاد مع رسول الله ﷺ لتحصل لهم الشهادة في سبيل الله. وكان هؤلاء هم الذين أشاروا بالخروج لقتال المشركين الذين جاؤوا إلى المدينة، ونزل رسول الله ﷺ عند رغبتهم بينما كان يفضل الإقامة في المدينة لصد المشركين عنها. ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: أنكم شاهدتموه بأعينكم فَقُتِلَ من قُتِلَ منكم، وفي هذا توبيخ لمن كاد أن ينهزم منهم، ويفر من المعركة. وفي ذلك روي أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك لما رأى بعض حال المسلمين في المعركة قال: اللهم إني ابرأ إليك مما جاء به هؤلاء فقاتل واستشهد، فنزل فيه ومن استشهد معه قول الله ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[١].

---

(١) سورة الأحزاب من الآية ٢٣، والأثر أخرجه السيوطي في الدر المنثور ج٢ ص١٤٣-١٤٤، والطبري في تفسيره ج٣ ص١١٢ .

أحكام ومسائل الآيتين:

الحكم بأن حصول النعيم في الآخرة لا يحصل بمجرد الانتساب للإسلام، وإنما يحصل بالجهاد في سبيل الله، وتحمل المشاق. ومن الأحكام: توبيخ الذين أرادوا الانهزام في معركة أحد والثناء على الذين صابروا فيها.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

ما زال السياق في غزوة أحد؛ ذلك أن ابن قمئة الحارثي لما رمى رسول الله ﷺ بحجر فشج رأسه وأقبل يريد قتله فصده مصعب بن عمير عنه وتقاتل معه حتى قُتِل رضي الله عنه وأرضاه؛ فظن ابن قمئة أنه قتل رسول الله ﷺ فصاح في الناس قائلاً: لقد قتلت محمداً فصاح صائح آخر في الناس قيل: إنه الشيطان بأن محمداً قد قتل فسرى في الناس هذا الخبر، فمنهم من حاول الفرار أو فر، ومنهم من قال: فلنأت

عبد الله بن أبي بن سلول ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان ونادى رسول الله في الناس: (**هلموا إلي عباد الله**) فرجعت طائفة منهم فاعتذروا عما بدر منهم وقالوا: نفديك يا رسول الله بأرواحنا[١].

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ أي: أنه مثل من سبقه من الأنبياء والرسل يموتون مثلهم في ذلك مثل البشر في الموت. ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ استفهام إنكاري عليهم معناه هل تنقلبون على أعقابكم إذا مات محمد أو قتل فتصبحوا مرتدين عن الدين الذي جاءكم به من عندنا؟ ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ أي: أن من ينقلب لا يضر إلا نفسه. أما الله فلا يضره شيئاً فلا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين. ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي: يجزي الذين يجاهدون في سبيله فيشكرونه على ما يصيبهم فيه من السراء والضراء.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ تقرير للحقيقة الأزلية، وتقرير لإيمان راسخ بأنه ما من نفس تموت إلا بإذن الله؛ وهذا يقتضي أن كل إنسان سيموت بقتل أو غيره إذا انتهى أجله. وفي هذا

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الصغير ج١ ص٥، وذكره الطبري في تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٣ ص١١١-١١٢، والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص١٠٥ - ١٠٦ .

تذكير وتنبيه للذين حاولوا الفرار من المعركة أن فرارهم لن ينجيهم من الموت إذا كانت آجالهم قد انتهت، وأن دخولهم المعركة وثباتهم فيها لن يقرب موتهم إذا كانت آجالهم باقية؛ ففي هذا كله حث لهم على الجهاد وإعلاء كلمة الله.

﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: أن الأجل مدون في كتاب فلا يتقدم الأجل ولا يتأخر كما قال عز وجل ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [1]. ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: إن كان قصده من جهاده الغنيمة فيؤتى منها فتكون هي جزاءه. ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: إن كان قصده من الجهاد إعلاء كلمة الله وعز دينه ونصرة رسوله فتكون الجنة جزاءه. وفي هذا تعريض بالذين تركوا مكانهم الذي حدده لهم رسول الله ﷺ في المعركة، وأمرهم بالثبات عليه، ولكنهم تركوه واهتموا بجمع الغنائم؛ فكر عليهم المشركون وكان ذلك من أسباب الهزيمة يوم أحد.

﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ توكيد لأنّ الله سيجزي الذين شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام فثبتوا على جهادهم.

الحكم بأن رسول الله محمد ﷺ بشر معرض للموت او القتل

---

(١) سورة يونس من الآية ٤٩ .

كما قال عز وجل ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[١]. وقوله ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[٢]. ومن الأحكام: أن موت رسول الله لا يعني موت رسالته، بل إن دينه باق إلى يوم القيامة كما قال أبو بكر رضي الله عنه بعد موت رسول الله ﷺ: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»[٣]. ومنها: أن كل نفس لن تموت حتى تبلغ أجلها، وأن الفرار من الموت لا يؤخره إذا كان الأجل قد بلغ أمده لأن الله كتب الآجال وقدَّرها فلا يموت أحد قبل أجله. ومن الأحكام: أن كل امرئ يعطى حسب نيته فمن كانت الدنيا غايته آتاه الله منها، ومن كانت الآخرة غايته آتاه الله منها كما قال تعالى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾[٤]. ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[٥]. ومن الأحكام: أن الله يجزي الشاكرين على شكرهم.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ

(١) سورة الأنبياء من الآية ٣٥ .
(٢) سورة الزمر الآية ٣٠ .
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ج٢٨ ص٢١ .
(٤) سورة الإسراء الآية ١٨ .
(٥) سورة الإسراء الآية ١٩ .

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي: كثير من الأنبياء أو كم من الأنبياء قاتل معه ربانيون أي: أناس صالحون صادقون ومخلصون لدينهم. ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما عجزوا عن القتال، وما ضعفوا عن الجهاد بعد نبيهم في حال موته أو قتله. ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ﴾ أي: ما ذلوا وما خضعوا لعدوهم، وفي هذا تعريض وتوبيخ للذين أصابهم الهلع والخوف عندما صاح فيهم الشيطان بأن محمداً قد قتل؛ فحاول منهم من حاول الفرار والانقلاب على عقبيه، ومنهم من أراد أن يستشفع بالمنافقين خوفاً من المشركين. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: الذين صبروا ويصبرون على الجهاد في سبيل الله وما ينالهم فيه من المشقة.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ هذا وصف للربانيين وإخبار بأنهم ما كانوا يقولون إلا

قولهم: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا أي: ما بدر منا من صغائر الذنوب والخطايا وكبائرها. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي: رسخ أقدامنا وعزائمنا على القتال. ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: حقق لنا ما وعدتنا من النصر على عدوك وعدونا والمعنى رغم أنهم ربانيون كانوا يدعون الله بغفران ذنوبهم وتثبيت أقدامهم والنصر على أعدائهم.

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ﴾ هذا موصول بما قبله أي: أن الله أعطى هؤلاء الذين ثبتوا على الجهاد ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أي: النصر والغلبة على عدوهم. ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أي: الجنة ونعيمها. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تقدم معناه.

أحكام ومسائل الآيات:

ثناء الله على المؤمنين الذين يصبرون على القتال في سبيله ويثبتون عليه ولا ينهزمون أمام عدوهم. ومن الأحكام: فضل الصبر وإخلاص الدعاء لله وطلب مغفرته وطلب النصر منه على الكافرين. ومنها: أن الله آتى المؤمنين ثواب الدنيا وهو النصر والعزة والتمكين في الدنيا كما آتاهم نعيم الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا

يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بعد أن بيَّن الله حال المؤمنين الذين كانوا مع الأنبياء، وثباتهم على الجهاد، وعدم الاستكانة لأعدائهم خاطب المؤمنين محذراً لهم من طاعة الكافرين؛ ذلك أنه بعدما حدث في معركة أحد انبرى المنافقون يثبطون عزيمة المؤمنين، ويطعنون في رسالة نبيهم، ويرغبونهم في الرجوع إلى دين آبائهم ويقولون لهم: لو كان محمد نبياً لما أصابه ما أصابه وأصحابه من الهزيمة؛ فما هو إلا رجل مثله مثل الآخرين فأنزل الله هذه الآية ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: تسمعوا أقوالهم وتصدقوهم ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي: إلى الشرك. ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أي: يصيبكم الغم والندم على ما فعلتم لأن الله يعز دينه ورسوله والمؤمنين ويذل أعداءهم.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ أي: أنه وليكم وناصركم ومعزكم، فلا ناصر إلا هو ولا معز إلا هو.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ هذا إخبار ووعد من الله بأنه سيلقي الرعب في قلوب الكافرين؛ ذلك أن المشركين لما كانوا في طريقهم إلى مكة أصابهم الندم فقال بعضهم لبعض: ما عملنا شيئاً قتلناهم حتى إذا لم يبق إلا الطريد منهم تركناهم فنرجع إليهم ونستأصلهم. فلما عرف ذلك رسول الله ﷺ أمر المسلمين بالاستعداد للقائهم رغم ما كان عليه المسلمون من الضعف بعد الهزيمة.

وبينما هم كذلك جاء معبد الخزاعي - وكان كافراً - إلى رسول الله فقال: لقد أساء خزاعة ما أصابكم ثم لحق معبد بقريش فأدركهم في الروحاء وهم يتأهبون للعودة إلى المدينة فسأله أبو سفيان عما وراءه في المدينة فقال معبد: لقد خرج محمد وأصحابه يطلبونكم في جمع لم أر مثله؛ فقد اجتمع له من كان قد تخلف عنه فقال له أبو سفيان: ما تقول؟ قال: ما أرى أنك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل فلما سمع ذلك أبو سفيان وقع الرعب في قلبه ومن معه من المشركين.

وأياً كان سبب تخلفهم عن لقاء رسول الله في الموعد المحدد فإن الله قد أنزل الرعب في قلوبهم، وهذا مما خص الله نبيه من بين الأنبياء كما قال عليه الصلاة والسلام: (**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر**) الحديث[١].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم برقم (٣٣٥)، صحيح البخاري مع فتح الباري، ج١ ص٥١٩.

﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: أن هذا الرعب الذي أصيبوا به كان بسبب شركهم بالله. ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾ أي: ما لا حجة له، والمعنى أن الله لم ينزل بالآلهة التي يعبدونها حجة ولا برهاناً؛ ذلك أن عبادة الأوثان باطلة في كل الأديان فمن عبدها استحق العقاب. ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بئس المكان الذي ينتظرهم.

أحكام ومسائل الآيات:

التحذير من طاعة الكافرين لأن في طاعتهم الردة عن الدين، وما يعقب ذلك من الخسران المبين. ومن الأحكام: أن الله مولى المؤمنين وأنه خير ناصر لهم على أعدائهم. ومنها: وعد الله -ووعده الحق- أنه سيلقي الرعب في قلوب أعدائه بسبب شركهم وكفرهم ومن ثم ملاقاتهم العذاب.

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٥٢) ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ

وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ أي: ما وعد به المؤمنين من النصر إذا صبروا في جهادهم. ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ أي: تقتلون المشركين قتلاً شديداً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: جبنتم في القتال ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ أي: اختلفتم في الأمر ﴿وَعَصَيْتُم﴾ إشارة إلى ما حدث من الرماة في مخالفة أمر رسول الله لهم بالثبات في مواقعهم وعدم تركها كما أشير آنفاً. وفي ذلك روى البخاري في صحيحه عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذٍ وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال: (**لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا**) فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير: عهد إلي النبي ﷺ ألا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد ؟ فقال: (**لا تجيبوه**) فقال: أفي القوم ابن أبي

قحافة ؟ فقال: (**لا تجيبوه**) فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله قد أبقى الله لك مايخزيك، فقال أبو سفيان: أُعلُ هبل، فقال النبي ﷺ: (**أجيبوه**) قالوا: ما نقول ؟ قال: (**قولوا: الله أعلى وأجل**) فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم فقال النبي ﷺ: (**أجيبوه**) قالوا: ما نقول؟ قال: (**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**) قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني[1].

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ أي: من الغلبة والظفر والنصر الذي كان للمسلمين في بداية المعركة حين صرعوا حامل لواء المشركين؛ ذلك أنه لما ذاع هذا الخبر استجمع رسول الله ﷺ وأصحابه أنفسهم ثم توزعوا كتائب متعددة تحيط بالمشركين فأوجعوهم قتلاً وضرباً. ومع أن خيل المشركين كانت تحمل عليهم كرات تنضحهم بالنبال إلا أنها لم تتمكن من إحراز أي نصر بل كانت تفر منهزمة. فلما رأى الرماة المتترسون بالجبل أن الهزيمة تلحق بالمشركين قال بعضهم: كيف نقف هنا وقد هزم الله العدو؟ فتركوا أماكنهم التي عهد بها النبي ﷺ إليهم لكي يجمعوا الغنائم فارتدت إليهم خيل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة أحد برقم (٤٠٤٣)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٧ ص٤٠٥ .

المشركين فأوقعت فيهم قتلاً وضرباً. ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ المراد الغنيمة. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ والمراد بهم الذين عارضوا ترك أماكنهم في الجبل التزاماً بأمر رسول الله ﷺ لهم وهم عبد الله بن جبير أميرهم وبعض أصحابه فحمل عليهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل فقتلوهم.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: بعد أن كانت لكم الغلبة على المشركين صرفكم الله عنهم ليمتحن مدى صبركم على الشدائد. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي: عفا عن مخالفتكم لأمر نبيكم والمراد بعض الرماة الذين تركوا أماكنهم. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو المتفضل عليهم في كل الأحوال بالنصر أو الهزيمة.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أي: تسيرون في الوادي. ﴿وَلَا تَلْوُنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا يلتفت بعضكم إلى بعض إشارة إلى هربهم بعد معرفتهم بالهزيمة. ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: في آخركم يقول: هلموا إلي عباد الله ارجعوا يريد الكرة على المشركين. ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ لعل المراد بالغم الأول ما فاتهم من الغنيمة حين عصوا الرسول وتركوا أماكنهم من أجلها أما الغم الثاني فهو ما أصابهم من الهزيمة والقتل. ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ أي: لا تحزنوا على ما فاتكم من

الغنيمة التي كانت سبب عصيان رسولكم ولا ما أصابكم من القتل والهزيمة. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: أنه عارف وعالم بما تعملونه أو تنوونه في خروجكم للجهاد، وفيه تحذير من أن تكون نيتهم في الجهاد طلب الغنيمة كما فعلوا.

أحكام ومسائل الآيتين:

الحكم بأن الله قد صدق وعده في نصر المؤمنين على الكافرين؛ ذلك أن الرماة في غزوة أحد لما كانوا ثابتين في أماكنهم التي عينها رسول الله ﷺ لهم كان المشركون يلاقون الهزيمة ويفرون من المعركة فلما عصى الرماة أمر رسول الله واهتموا بجمع الغنائم انقض المشركون عليهم؛ فعاتبهم الله بأنهم فعلوا ذلك ابتغاء الدنيا على الآخرة. وقد مدح الله وأثنى على الذين أطاعوا أمر رسول الله ﷺ فلم يبرحوا مكانهم ومنهم أميرهم عبد الله بن جبير. ومن مسائل الآية: عتاب الله وتوبيخه للذين تركوا أماكنهم وما أصابهم من الغم بسبب هزيمتهم وفقدهم للغنائم. ومن الأحكام: أن التفرق والاختلاف وعدم الانضباط في السلوك يؤدي إلى الهزائم سواء في الحرب أو غيرها.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ

فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ أي: تفضل عليكم فغشاكم نعاساً أمناً لكم بعد الخوف الذي أصابكم، وفي هذا ذكر أبو طلحة أن النعاس كان يغشاهم وهم في مصافهم يوم أحد قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه. ﴿يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ المراد بهم الصادقون الذين ثبتوا على القتال ولم يتركوا رسول الله ﷺ. ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني المنافقين وكان منهم مُعَتِّب[1] بن قشير ومن معه لم يخرجوا لأجل نصرة دين الله بل كان خروجهم لأجل الحصول على الغنائم، فلم يغشَهم النعاس لأن همهم كان من أجل الدنيا وهو فوات الغنيمة[2]. ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ

---

(١) معتب بن قشير الأنصاري الأوسي. ذكروه فيمن شهد العقبة وقيل إنه قال يوم أحد لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا، وقيل إنه تاب وذكروه فيمن شهد بدراً. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ج٦ ص١٢٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٢٤٢ .

غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ المعنى أنهم كانوا يظنون أن محمداً لن ينتصر، وكانوا يشككون في نبوته كما كان أهل الجاهلية يفعلون. ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ﴾ أي: أننا قد أكرهنا على الخروج. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ أي: هو الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء لحكمة أرادها وقضاء قضاه.

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ هذا إخبار عن نفاقهم الذي يخفونه ولا يظهرونه لرسول الله ﷺ ولا للمؤمنين، وفي هذا روى الزبير قال: رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا وذقنه في صدره فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير كالحلم يقول لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا هاهنا فحفظتها منه فنزلت هذه الآية[1]. ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ أي: لو كان الأمر بيدنا ومن عندنا ما قتلنا هاهنا أي: ما قتل منا أحد، ولا سيما من خاصتنا؛ وهم بذلك يشيرون إلى رأي عبد الله بن أبي بن سلول الذي لم ير الخروج للمشركين ثم رجع بثلث الجيش من الطريق احتجاجاً على عدم الأخذ برأيه. ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أي: لو كنتم في بيوتكم ولا تريدون الخروج

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٢٤٢ .

لخرج الذين فرض الله عليهم القتل إلى مصارعهم. وبالمعنى الآخر لو تخلفتم عن الخروج للقتال لخرجتم إلى مكان تموتون فيه لأن الله كتب آجالكم في اللوح المحفوظ، فإن لم تموتوا أثناء القتال فسوف تموتون في غيره إذا كانت آجالكم منتهية.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: ليعلم الله ما أنتم عليه من الإخلاص والصدق أو عدمه في القتال وهو موطن الشدة والاختيار فيجازيكم بما كنتم عليه. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: أنه يعلم ما في صدوركم وما تخفونه فيها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ المراد هم الذين فروا في معركة أحد بعدما عرفوا أن المعركة تميل لصالح المشركين، أو الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله إلى المعركة، أو الذين رجعوا من الطريق. ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: أن ما حصل منهم كان من أجل أن الشيطان أزلهم ووسوس في نفوسهم بأن خروجهم إلى المعركة كان خطأ حيث كانوا يعتقدون أن سبب الهزيمة هو الخروج للقاء المشركين فنزه الله رسوله عن الخطأ، وبيَّن أن توليهم عن المعركة إنما كان بسبب ما زينه لهم الشيطان. ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: تجاوز عن خطيئتهم بسبب الفرار. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: أنه يغفر خطايا وزلل عباده ويتوب عليهم لأنه حليم عليهم.

أحكام ومسائل الآيتين:

بيان رحمة الله لعباده المؤمنين الذين كانوا مع رسول الله ﷺ في معركة أحد حيث أنزل عليهم الأمان طمأنةً لنفوسهم مما أصابهم في تلك المعركة من القلق والاضطراب. ومن الأحكام: ذم وتحقير الذين كانوا يظنون بالله ظن السوء، ويندمون على خروجهم للمعركة دون إرادتهم. ومن الأحكام: أن الله كتب الآجال وقدَّرها، وأن الفرار من المعركة لن ينجي من الموت إذا كان الأجل قد بلغ منتهاه. ومنها: أن الله يبتلي عباده لكي يعلم -وهو العليم- ما هم عليه من الصدق في إيمانهم وثباتهم عليه. ومنها: أن الشيطان يستزل عباد الله ليجعلهم من جنده، ولكن الله يعفو عمن يتوب إليه ويتبرأ من الشيطان وأفعاله ووساوسه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

بيان الآيات:

في مقدمة الآية ينهى الله المؤمنين نهي تحذير عن متابعة الكفار

ومشابهتهم في أقوالهم وأفعالهم ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: أقاربهم ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ابتغاء التجارة ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ أي: كانوا في الغزو للجهاد ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا﴾ أي: أنهم لو قعدوا معنا ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ أي: ما ماتوا في السفر ولا في الغزو. ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ والمراد أن اعتقادهم اعتقاد فاسد لأن الآجال بيد الله فقد يموت من كان في بيته كما قال عزوجل ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[١]. وقد يسلم المسافر والغازي؛ ذلك أن الآجال مقدرة بوقت معلوم فاعتقادهم الفاسد هذا أوجد لهم حسرة على موت أو قتل إخوانهم.

﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: أن الحياة والموت والآجال بيد الله فلا تموت نفس إلا إذا استكملت أجلها. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عليم بأقوالكم، وما تخفونه في أنفسكم بصير في تدبيره لخلقه في حياتهم ومماتهم.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الكلام موصول بما قبله في الرد على الذين يزعمون أن الخروج للجهاد يكون سبباً في موتهم؛ فكان الجواب أن القتل والموت في سبيل الله سبب لمغفرة الله ورحمته، وأن هذا خيرٌ مما تجمعون من حطام الدنيا الفانية.

---

(١) سورة النساء من الآية ٧٨ .

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ تنبيه وتذكير بأن التولي عن الجهاد والجلوس في البيوت لن يغنيكم شيئاً لأنكم ستحشرون إليه، فمن الخير لكم أن تجاهدوا في سبيل الله لأن ذلك هو الذي ينفعكم يوم تحشرون إلى الله.

أحكام ومسائل الآيات:

تحريم اتباع الكفار، أو التشبه، أو التمثل بهم في أقوالهم وأفعالهم وشاهده قوله تعالى ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[1]. ومن الأحكام: ذم الذين يعتقدون أن القعود عن الجهاد يدفع عنهم الموت، والحكم بأن هذا اعتقاد فاسد لأن الآجال مقدرة بوقت معلوم. ومنها: تقرير أن الموت في سبيل الله منزلة عظيمة لما يؤدي إليه من المغفرة والرحمة، وهذا خير من الدنيا وما فيها.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

---

(١) سورة هود الآية ١١٣ .

بيان الآيتين:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ يقول الله فيه: إن من رحمة الله أنك لنت في القول لمن تولى عن الجهاد يوم أحد فلم تعنف أحداً ولم تسئ إليه. ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا ﴾ أي: جافياً في تعاملك معهم ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ أي: قاسيه ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ أي: تركوك. ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ أي: تجاوز عن خطئهم فيما مناطه حقك عليهم. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ أي: اطلب من الله أن يغفر لهم فيما مناطه حقه عليهم. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ وهذا رأس التسامح وحسن التعامل؛ ذلك أنه رغم مخالفتهم لأمره بترك المكان الذي وضعهم فيه يوم أحد، ورغم تخلف بعضهم عن الخروج معه أمره الله - إضافة إلى حسن التعامل معهم - أن يشاورهم فيما يبدو له من أمور الدنيا كالحرب ونحوه مما لم يكن فيه وحي من الله. وقد وردت أحاديث عدة عن رسول الله ﷺ تحث بل توجب التشاور منها: قصة الإفك: حيث قال: (**أشيروا عليّ معشر المسلمين في قومٍ أبنوا أهلي ورموهم، وايم الله ما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن؟ والله ما علمت إلا خير**) واستشار علياً وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها[1].

---

(١) أخرج البخاري القصة في كتاب التفسير باب ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾، برقم (٤٧٥٠)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص٣٠٦ - ٣٠٩، وأحمد في المسند ج٦ ص٥٩ .

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إذا عقدت العزم على الرأي بعد المشورة فلا تتردد فيه. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: امضِ وأنت معتمد في فعلك على نصر الله لك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي: يحب من وكل أمره إلى الله بعد أن اتخذ من الأسباب ما يستطيع.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي: إن نصركم فليس لقوة مهما كانت أن تغلبكم لأنه القادر الأوحد على النصر والغلبة، وعليكم أن تتوكلوا عليه وتطيعوا ما أمركم به رسوله، وحينئذٍ سيكون النصر والغلبة لكم كما حدث لكم في معركة بدر. ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: إن خذلكم فلا أحد يستطيع نصركم كما حدث لكم في معركة أحد. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: أن على المؤمنين التوكل عليه وتفويض أمورهم إليه فهو المانح للنصر المانع للهزيمة.

أحكام ومسائل الآيتين:

اللين وحسن التعامل من واجبات الحاكم، وهو حق للمحكومين عليه، وهو إن كان بهذه المنزلة من الوجوب عليه فهو خير له لأن ضده يؤدي إلى إظهار ضغائنهم وخروجهم عليه. ومن هذه الأحكام: أن المشاورة بين الحاكم والمحكومين قاعدة من قواعد الشريعة والأصل فيه قول الله في هذه الآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ وهذا أمر يقتضي الوجوب

وقوله في مدح المؤمنين ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[١]. والشورى يجب أن تكون فيما لم ينزل به وحي أي: تكون في أمور الحرب ونحوها ولهذا قال رسول الله ﷺ لأصحابه في غزوة بدر (**أشيروا علي في المنزل**) فقال الحباب بن المنذر: أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال رسول الله ﷺ: (**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**) قال: فإن هذا ليس بمنزل انطلق بنا إلى أدنى ماء القوم[٢].

ولما كانت مشاورة النبي لأصحابه في غير أمور الوحي فهذا يقتضي ألا تكون المشاورة في أصول الدين، فهذه ثوابت يحرم تغييرها أو تفسيرها على غير حقيقتها. فالتشاور إذا ينصب على ما أشكل في فروع الدين المترتبة على الاجتهاد. كما ينصب على أمور الدنيا كالتنمية والإعمار والحرب والسلم ونحو ذلك.

ومن هذه الأحكام: وجوب التوكل على الله في كل عزائم الدنيا، والتوكل لا يكون إلا بعد بذل الأسباب المؤدية للنفع والنافية للضرر. ومن الأحكام: تقرير أن النصر من عند الله، وأن الإنسان مهما بلغ من القوة لا يستطيع أن يحقق نصراً لم يرده الله له. وأن الله إذا خذل قوماً فلن يستطيع أحدهم نصرهم. وقد دلت الوقائع على هذا؛ فكم من

---

(١) سورة الشورى من الآية ٣٨ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٣١٢-٣١٣، والبداية والنهاية لابن كثير ج٣ ص٢٦٦-٢٦٧، والحاكم في المستدرك في ذكر مناقب الحباب بن المنذر ج٣ ص٤٨٢-٤٨٣ .

أمة ضعيفة هزمت أمة قوية كما قال عز وجل ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(١).

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي: ما كان لنبي أن يخون أمته. وقيل: إن هذه الآية نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم غزوة بدر فقال بعض الناس أو بعض المنافقين: لعل رسول الله ﷺ أخذها فبرأ الله رسوله من أقوال المنافقين. ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يأت به يوم القيامة يحمله مثقلاً عليه وقد انهتك ستره، وافتضح للناس غلوله وخيانته. وقد عظمت السنة النبوية أمر الغلول وشددت

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٤٩ .

في تحريمه بوصفه من الكبائر ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وهو يخطب في صحابته: (**لأُلفَينَّ أحدكم يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك من الله شيئاً قد أبلغتك، وعلى رقبته بعير له رغاء يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك. وعلى رقبته صامت يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك**)[1].

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: أن كل نفس تجزى بما كسبته من خير أو شر فلا تظلم مثقال ذرة.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ المراد أن من اتبع رضوان الله بالجهاد في سبيله وعدم الغلول ليس شبيهاً بمن استحق سخط الله وغضبه بالتولي عن الجهاد أو الغلول فيه. وانتفاء الشبه بينهما مترتب على طبيعة عملهما، فالأول- يبتغي رضوان الله بأداء ما وجب عليه فله ما يستحقه من الثواب، والثاني- لا يكترث بهذا الواجب فله إذاً ما يستحقه من السخط. ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: مقره ومثواه جهنم. ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المقر.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ بيان لما سبق، فمن اتبع رضوان الله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب الغلول وقول الله تعالى (ومن يغلل يأت بما غل)، برقم (٣٠٧٣)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٦ ص٢١٤ .

تختلف درجته عن درجة من باء بسخطه. فالمتبع لرضوان الله جزاؤه النعيم المقيم، والذي باء بسخط الله يجزى بالعذاب الأليم فهما متفاوتان في الدرجة والفضل. فكما أن المؤمنين يتفاوتون في المنازل والدرجات في النعيم، فإن الكفار يتفاوتون أيضاً في درجات العذاب.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منن الله على عباده كثيرة منها: منته عليهم بخلقهم وتصويرهم في أحسن الصور وتهيئة أسباب العيش لهم ومنة خاصة وهي بعثة رسول الله إلى البشرية. وقد ذكر الله المؤمنين لأنهم هم الذين آمنوا به وصدقوه. ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من جنسهم يتكلم لغتهم ويعرف عاداتهم. ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يقرأ عليهم ما يوحى إليه. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يطهرهم من أدران الشرك والكفر وأعمال الجاهلية.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: القرآن والسنة التي توحى إليه. ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أنهم كانوا قبل بعثته من الضالين بسبب ما كانوا عليه في الجاهلية من الشرك والكفر.

أحكام ومسائل الآيات:

تحريم الغلول بكل صوره، وشاهده قول رسول الله ﷺ في الذي غل الشملة يوم خيبر: (**والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر**

من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً)(١). ومن الأحكام: أن الغال يعزّر. ومنها: وجوب ابتغاء رضوان الله واجتناب سخطه. ومنها: تقرير منة الله على خلقه حين جعل لهم الإسلام دينا، وأرسل إليهم رسولاً يعلمهم دينهم ويطهرهم من أدران الشرك والوثنية.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿أَوَلَمَّآ﴾ الهمزة للاستفهام. ﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ أي: هزيمة. ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ من عدوكم كيوم بدر بأن قتلتم منهم قتلاً كثيراً وأسرتم منهم أسرى كثيرين. ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي: لماذا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب هل يدخل في الأيمان والنذور الأرض والغنم والزرع والأمتعة؟ برقم (٦٧٠٧)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١١ص٦٠٠.

انهزمنا، ونحن نجاهد في سبيل الله وإعلاء كلمته؛ بينما عدونا يعادي الله ويحارب رسوله. ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: أن ما أصابكم من الهزيمة هو بسبب فعلكم حين خالفتم أمر رسولكم فتركتم مكانكم، وتناديتم لجمع الغنائم، والمراد بهم الرماة. وقد يكون المراد عبد الله بن أبي بن سلول، ومن معه حين رجعوا من الطريق إلى المدينة متولين عن مواجهة المشركين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: هو القادر على منحكم النصر بسبب طاعتكم وإنزال الهزيمة بكم بسبب معصيتكم.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ المراد به يوم أحد ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: كان بقضاء الله وقدره. ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: يميّز بذلك المؤمنين الذين لم يتخلفوا عن الجهاد بل ثبتوا وقاتلوا. ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ أي: ليميز هؤلاء المنافقين. ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ المراد بذلك عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، وهم الذين رجعوا من الطريق متخلفين بذلك عن القتال فناداهم عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري وعدد من المؤمنين يطلبون منهم المشاركة في القتال، أو على الأقل تكثير المسلمين لإخافة العدو وهو المراد بقوله ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْ﴾.

﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ هذه مقولة عبد الله بن أبي

ابن سلول ومن معه قالوا: لو نعلم أنكم تواجهون قتالاً لاتبعناكم. ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: أنهم بمقولتهم هذه ورجوعهم عن القتال أظهروا حقيقتهم ونفاقهم فهم أقرب إلى الكفر. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ المراد أنهم أظهروا الإيمان أمام الناس ولكنهم غير صادقين في ذلك، بل إن قلوبهم تضمر الكفر والعداء للمؤمنين. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي: أنه المطلع على سرائرهم، وما يكتمونه في أنفسهم وفيه تهديد ووعيد لهم على ما فعلوا.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾ المراد أن هؤلاء المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول الذين جبنوا عن حضور المعركة قالوا لأقارب الشهداء الذين قتلوا في أحد ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي: لو أنهم سمعوا مقالتنا وما رأيناه بألا يخرجوا إلى قريش وقعدوا في المدينة لما حدث لهم القتل. ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن كنتم أيها المنافقون صادقين في قولكم فادفعوا عن أنفسكم الموت وقيل: إنه مات يوم قيل هذا سبعون من المنافقين.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير أنّ ما يصيب الإنسان هو نتيجة أخطائه وذنوبه، وشاهده

قول الله عز وجل ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[1]. فما من خطيئة أو ذنب إلا وله أثر؛ كما قال بعض السلف: إني لأعصي الله فأرى ذلك في خلق دابتي وامرأتي[2]. ومن الأحكام: أن ما يحدث في الكون إنما يحدث بعلم الله وإرادته. ومنها: أن الذي يقول في ظاهره ما يخالف باطنه قريب من الكفر بعيد عن الإيمان لأنه من أهل النفاق. ومن الأحكام: تقرير خطأ الذين يظنون أن عدم خروجهم إلى الجهاد يرد عنهم الموت؛ ذلك أن الله عزوجل كتب الآجال وقدرها فلا يفوت أحد قبل بلوغ أجله.

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (١٧٠) ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٧١) ﴾.

بيان الآيات:

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ ﴾ المخاطب رسول الله ﷺ، وقد يكون المراد به أي واحد. أي: لا يظن ظان أن الذين قتلوا أي: استشهدوا في سبيل الله لجهاد أعدائه وأعداء رسوله أنهم أموات.

---

(١) سورة الشورى الآية ٣٠ .

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي للإمام ابن قيم الجوزية ص٣٥ .

﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ والمعنى أنهم أحياء بمعنى الحياة المنافية للموت. ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ أي: أنهم مقربون إليه ويرزقون مما أكرمهم به من النعيم.

روي في سبب نزول هذه الآية عدة أحاديث منها: ما روي أن رسول الله ﷺ قال: (**لما أصيب إخوانكم في أحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم فنزلت هذه الآية**)[١].

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: مسرورين بما أكرمهم الله به من النعيم. ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ أي: يفرحون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا بعد في سبيل الله فيلحقوا بهم. أو أن المعنى كما قال قتادة: استبشارهم بأنهم يقولون إخواننا الذين تركنا خلفنا في الدنيا يقاتلون في سبيل الله مع نبيهم فيستشهدون فينالون الكرامة مثل ما نحن فيه فيسرون ويفرحون لهم بذلك. ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: أنهم في النعيم

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٥٨، وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة برقم (٢٥٢٠)، سنن أبي داود ج٢ ص٣٥٢ .

الذي أكرمهم الله به لا ينتابهم خوف ولا هم يحزنون لأن ما هم فيه من النعيم أذهب عنهم كل ما يتعرض له أهل الدنيا من الخوف والحزن.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يفرحون بما أنعم الله عليهم به من الجنة. ﴿وَفَضْلٍ﴾ توكيد لما أنعم الله به عليهم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يخلف ما وعدهم به من الجنة جزاء إيمانهم.

وقد ورد في الحديث -الذي سبق ذكره- عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء غير الشهيد فإنّه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة**)(١).

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير فضل المجاهدين الذين قتلوا في سبيل الله، وكونهم أحياء عند ربهم حياة أبدية كاملة. تقرير أنهم يستبشرون بإخوانهم المؤمنين الذين يجاهدون في سبيل الله، وما يدخره لهم من الحياة الكريمة عندما يقدمون إليه. ومن الأحكام: أن الخوف والحزن لا ينالان المجاهدين الذين قتلوا في سبيل الله. ومنها: أن الله لا يضيع أجر المؤمنين بل ينميه ويدخره لهم في الآخرة، وشاهده قول رسول الله ﷺ: (**إن الله**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، برقم (١٨٧٧)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٦ ص٦٠٣ .

يربي الصدقة بيمينه كما يربي أحدكم فَلوّه)[١]. ومن الأحكام: أن شهيد القتال في سبيل الله لا يغسل ولا يصلى عليه وشاهد ذلك حديث البخاري في شهداء أحد: **(ادفنوهم بدمائهم)**[٢].

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

بيان الآيات:

هذه الآية نزلت في (حمراء الأسد)؛ ذلك أن المشركين لما أصابوا من المسلمين في أحد ما أصابوا هموا بالرجوع فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ نادى في المسلمين فساروا معه رغم ما كان فيهم من الجراح حتى بلغ حمراء الأسد. وكما ذكر من قبل فقد قيض الله لرسوله وصحبه معبداً الخزاعي فقد جاء إلى أبي سفيان - كما سبق ذكره - وقال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، برقم (١٤١٠)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٣ ص٣٢٦ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب من لم ير غسل الشهداء، برقم (١٣٤٦)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٣ ص٢٥١ .

له: لقد تركت محمداً وأصحابه في حمراء الأسد في جيش عظيم قد اجتمع له من كان تخلف عنه وهم قد تحرقوا عليكم فالنجاء النجاء فإني أنهاك عن ذلك فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان فرجع هو ومن معه إلى مكة وعاد رسول الله إلى المدينة منتصراً وشاهد ذلك قول الله تعالى ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ وفي هذا بيان لما ينالونه من الأجر بسبب استجابتهم لرسول الله، وقبول أمره لهم بالخروج في أثر المشركين بعد عزمهم للعودة إلى المدينة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ما زال السياق في غزوة أحد وملابساتها؛ ذلك أن أبا سفيان قال للمسلمين بعد المعركة: موعدكم بدر في العام المقبل، وكان بذلك يريد الثأر عما حل بالمشركين يوم بدر. ورغم مقولته تلك فقد كره لقاء المسلمين كما توعدهم ولكنه لا يريد أن يكون إخلاف الوعد منه، فلما رأى ركباً من أهل تهامة يريدون المدينة للميرة ومعهم نعيم بن مسعود الأشجعي حادثهم وجعل لهم جعلاً ليرجفوا بين المسلمين بأن قريشاً قد جمعت للقائهم الجموع الكبيرة حتى يضعف المسلمون ولا يخرجوا إلى بدر. فلما سمع المسلمون ذلك زادهم إيماناً واستعداداً للقاء المشركين. ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: أنه حسبنا وناصرنا وهو نعم من

نتوكل عليه، فخرجوا إلى بدر في نفس الموعد فلم يجدوا فيها أحداً. ولما عرفوا أن المشركين قد انكفؤوا على أعقابهم اتجروا من سوق بدر ورجعوا إلى المدينة(١). وقد غنموا أجر الدنيا بالاتجار، وأجر الآخرة بما كتب لهم من الجزاء لاستجابتهم لربهم ونبيهم وهو ما بينه الله عز وجل في الآية التالية ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ وقد بيَّن الله في هذه الآية أن للمسلمين الذين خرجوا إلى بدر للقاء المشركين أربع فضائل: الأولى- سلامتهم من القتال بسبب الرعب الذي أصاب المشركين. الثانية- الربح من التجارة التي وجدوها في سوق بدر حيث اشترى رسول الله ﷺ عيراً فباعها وربح فيها مالاً كثيراً قسمه بين أصحابه. الثالثة- عدم تعرضهم للسوء. الرابعة- اتباعهم لأمر رسولهم بخروجهم معه فرضي الله عنهم وأرضاهم. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ أي: لتفضله عليهم بهذه الفضائل.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ لعل المراد أن الشيطان يخوفكم عن طريق أوليائه وهو نعيم الأشجعي أو أبو سفيان وأصحابه في محاولتهم الإرجاف على المسلمين لتثبيط عزائمهم وثنيهم عن الخروج إلى بدر. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ أي: لا تخافوا هؤلاء

---

(١) الدر المنثور ج٢ ص١٧٨، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٣ ص١٨١، والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص١٣٦ - ١٣٧.

بإرجافهم بقولهم ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾. ﴿وَخَافُونِ﴾ أي: خافوا عصيان أمري. ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مصدقين ما وعدتكم به.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير فضل صحابة رسول الله ﷺ واستحقاقهم للأجر العظيم لاستجابتهم لنداء رسولهم للقاء المشركين في حمراء الأسد رغم ما فيهم من الجراح بعد معركة أحد. ومن الأحكام: فضل كلمة (حسبنا الله ونعم الوكيل) لما فيها من تفويض أمر العبد إلى الله عندما تلم به ملمّة أو تحدث له حادثة. ومنها: أن الشيطان يخوف المؤمنين بما يوحيه إلى أوليائه. وعلى المؤمن الثبات على إيمانه وعدم الخوف منهم لأنهم لا يملكون نفعاً ولا يدفعون ضراً، وعليه أن يخاف الله الذي بيده الأمر وإليه يرجع الأمر.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ المراد بهم أناس أسلموا ثم ارتدوا حين خوّفهم المشركون. وقيل: رؤساء اليهود الذين أبوا حقيقة الإسلام وأظهروا النفاق والعداوة للمسلمين وقد اغتم لذلك رسول الله ﷺ لحرصه على دخول الناس في طاعة الله كما وصفه الله بقوله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾[1]. فأنزل الله هذه الآية تسلية له.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: إن نفاقهم وكفرهم لن يضر الله شيئاً لأنه لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين. وفي الحديث القدسي: (**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**)[2]. وكما أنهم لن يضروا الله فلن يضروا رسوله بشيء. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: أنهم بكفرهم ونفاقهم فقدوا حظهم في الآخرة وهو الثواب والنعيم المقيم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ توكيد على سوء حظهم وذلك بشدة العذاب لهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: الذين باعوا إيمانهم بالكفر وهم الذين ارتدوا عن الإسلام. ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾

---

(١) سورة التوبة من الآية ١٢٨ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم برقم (٢٥٧٧)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٨ ص٥٣١ .

توكيد لما سبق بأن كفرهم ونفاقهم لن يضر الله ولا رسوله، وإنما يضرهم أنفسهم بما ينالهم من العذاب الشديد وهو قوله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ ما زال السياق في غزوة أحد، والمعنى لا يظنن الذين كفروا أن ما حصل لهم من نصر على المسلمين هو خير لهم؛ ذلك أن كفر الكافر يقتضي عدم الخيرية له لأن هذه الخيرية للمؤمنين وليس للكافرين كما قال تعالى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾(١). ثم بيَّن الله علة النصر أنى كانت أو تكون للكافرين سواء في تلك المعركة أو في أي معارك أخرى تقع بين المؤمنين والكافرين وهي قوله عز وجل ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ والمراد أن حكمة الله اقتضت أن من جاءه البلاغ من الله وبيّن له الخير من الشر ثم أصر على فعل الشر يزيد الله له في أجله ليزداد إثمه. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ توكيد لكون الكافر كلّما ازداد إثماً كان عذابه أشد وآلم.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير أنّه يجب على المؤمن أن يتوكل على الله وحده، وهذا يقتضي ألا يحزنه كفر الكافر ولا فسق الفاسق. ومن الأحكام: تحذير

---
(١) سورة آل عمران من الآية ١٩٨.

الكافرين من إمهال الله لهم وهم على كفرهم فهذا الإمهال لا يزيدهم إلا في آثامهم وعذابهم.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

السياق لا يزال في معركة أحد ولعله خطر في قلوب المؤمنين أن يميز الله بين المؤمن والمنافق بعلامة يعرف بها كل منهما حتى لا يلتبس الأمر عليهم فأجابهم الله أنه ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ وهذا التمييز لا يكون إلا بالتكليف والامتحان؛ فبذلك يعرف المؤمن الصادق والمنافق الكاذب؛ وهذا هو ما حدث في معركة أحد حيث ظهر المؤمنون على حقيقتهم بثباتهم واستشهاد من استشهد منهم في القتال، وظهر المنافقون على حقيقتهم، فمنهم من رجع في الطريق، ومنهم من شكك في نبوة

رسول الله بعد الهزيمة في المعركة .

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي: أن الله لن يطلعكم على غيبه في خلقه حتى يجعلكم تميزون بين المؤمن منهم والمنافق. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يطلع من يراه من رسله على غيبه عن طريق الوحي إليه لأن الرسول هو الواسطة بين الله وبين خلقه فيما يبلغهم من عند الله. ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: صدقوا بما جاءكم به رسولكم، وهذا يكفيكم فيما سألتم عنه. ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ توكيد جزاء الإيمان والتقوى بأنه أجر عظيم.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لعل هذه الآية نزلت في المنافقين، ورؤساء اليهود الذين منعوا زكاة أموالهم حتى لا يتقوى المسلمون في معركة أحد؛ إذ إن هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن هذه المعركة. والمعنى لا يظن الذين بخلوا بزكاة أموالهم التي آتاهم الله أن في بخلهم ذلك خيراً لهم. ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أي: أن عاقبة هذا البخل سوء عليهم وشر لهم. ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ أي: سوف يكون مالهم وبالاً عليهم بمثابة الطوق الذي يطوقهم؛ وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه**

يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - أي شدقيه - يقول: أنا مالك أنا كنزك) ثم تلا الآية[١]. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أن له كل ما في السموات والأرض من الخلق والأموال؛ فهو المالك لها أصلاً. وفي هذا توبيخ وتقريع للذين يبخلون بمال الله الذي آتاهم. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: أنه العليم الخبير المدرك لما يعمله المرء من الإنفاق أو البخل في سبيله، وفي هذا تحذير ووعيد للذين يبخلون بأموالهم في سبيل الله بالزكاة وغيرها.

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير أنّ حكمة الله اقتضت أن يبتلي عباده ليتبين منهم الصادق في دينه، والمنافق فيه كما قال عز وجل ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[٢]. ومن الأحكام: أن الله لا يطلع على الغيب أحدا من خلقه إلا من ارتضاه من رسله كما قال تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾[٣]. ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[٤]. ومنها: وجوب الإيمان بما جاء به رسل الله، وهذا من أركان الإيمان. ومن الأحكام: ذم البخل وتقرير

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، برقم (١٤٠٣)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٣ ص٣١٥ .

(٢) سورة محمد الآية ٣١ .

(٣) سورة الجن الآية ٢٦ .

(٤) سورة الجن من الآية ٢٧ .

أنه شر لصاحبه كما قال عز وجل ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾(١).

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ المراد بهم اليهود لأنهم لما نزل قول الله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(٢)، قالوا: يا محمد افتقر ربك فيسأل عباده القرض. وقيل: في سبب نزول الآية أن رسول الله ﷺ أرسل أبا بكر إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة،

---

(١) سورة محمد من الآية ٣٨ .

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٤٥ .

وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً فقال فنحاص وهو أحد رؤسائهم: إن الله فقير حين سألنا القرض فلطمه أبو بكر فقال: لولا العهد الذي بيننا وبينكم لفعلت بك كذا وكذا[١].

ورؤساء اليهود لما قالوا هذا القول يعرفون من كتبهم ومن عقولهم أن الله غني، وإنما مقولتهم جاءت من تكذيبهم لرسول الله ﷺ وعدم التصديق بما جاء به فقالوا هذه المقولة، ويستوي في الإثم ما إذا قالوها حقيقة أم استهزاء لأن من استهزأ بكلام الله يعد مكذباً له ولو كان لا يقصد من الاستهزاء التكذيب. ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ أي: سنسجل عليهم مقولتهم هذه ليجزوا عليها والمراد به وعيد لهم بما كتبه الله عليهم في الكتاب ليروه يوم القيامة. ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: أن مقولتهم هذه تساوي قتلهم الأنبياء، والمراد بقتل الأنبياء قتل أسلافهم لهم ورضا الخلف بذلك. ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: يقال لهم يوم القيامة: ذوقوا عذاب الحريق أي: النار الملتهبة بسبب مقولتكم الشنيعة وقتلكم الأنبياء.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ هذا موصول بالآية السابقة فلما ذكر الله أن للقائلين بأن الله فقير عذاب الحريق بيَّن أن هذا العذاب بسبب ما قدمته أيديهم، وذكر اليد مجاز للدلالة على أنهم قالوا هذا

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٦٣-٢٦٤، وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٤١٠، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٣ ص١٩٤ - ١٩٥ .

القول بالفعل. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: أنه لن يظلم أحداً فيعاقب من لم يستحق العقاب بل هو أرحم وأعدل في حكمه في خلقه.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ هؤلاء هم الذين ذكرهم الله في الآية السابقة بقوله جل ذكره ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ ..﴾، وقيل: إنها نزلت في وهب بن يهوذا وفنحاص بن عازورا وكعب بن الأشرف من زعماء اليهود فقد أتوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا محمد تزعم أن الله قد أرسلك إلينا ولكنه بيَّن لنا في كتابنا الذي عهد به إلينا ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار؛ فإن جئتنا بهذا القربان آمنا بك وصدقناك فأنزل الله هذه الآية[1].

وقولهم هذا يشيرون فيه إلى أن النبي منهم كان يقدم قرباناً ويدعو فتنزل نار فتأكل القربان، وقد نسخ هذا الأمر في شريعة عيسى؛ وطلبهم هذا من رسول الله تعجيز له، وإلا فهم يعرفون أن هذا الأمر منسوخ، وأن كتابهم قد بيَّن لهم أمر محمد ﷺ ونبوته ورسالته وقد وجَّه الله نبيه أن يقول لهم ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٦٥ .

﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي: جاؤوكم بالبينات وبالقرابين ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وفي هذا إشارة إلى قتلهم لأنبيائهم إشعيا وزكريا ويحيى وغيرهم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ في هذا تسلية لرسول الله ﷺ والمراد أنهم إن كذبوك فلست الوحيد في ذلك فقد حدث هذا التكذيب لرسل من قبلك جاؤوا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الآيات ﴿وَالزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ لعل المراد به التوراة والإنجيل قبل تحريفهما.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير وعيد الله للذين تجرؤوا وقالوا: إن الله فقير (تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً). ومن الأحكام: تقرير قتل أسلاف اليهود لبعض أنبيائهم، وقتل النبي من أشد الجرائم وأخطرها. فمن رضي بهذه الجريمة فهو شريك فيها فالرضا بالشرك يعد شركاً، والرضا بالمعصية يعد معصية. وفي هذا قول رسول الله ﷺ: (**إذا عُملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها كان كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها**)[١]. ومن مسائل الآيات: تكذيب أسلاف اليهود الذين ادعوا أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسولٍ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي برقم (٤٣٤٥)، سنن أبي داود ج٤ ص١٠٩.

حتى يأتيهم بقربان؛ وذلك لأن هذا الحكم الذي كان في شريعتهم قد نُسخ. ومن المسائل تسلية رسول الله ﷺ بأنه ليس أول من كُذِّب من الرسل بل سبق أن كذبت أمم الرسل الذين جاؤوها بالكتب التي أنزلها الله هداية لهم.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ لما ذكر الله ما جرى في غزوة أحد في الآيات السابقة وتشفي الكافرين من قتلى المسلمين، وما قد يكون داخل نفوس بعض المؤمنين حول شهدائهم وحزنهم عليهم بيَّن الله بياناً عامّاً أن كل نفس ذائقة الموت لا محيد ولا محيص ولا مفر من ذلك؛ فكل صائر إلى هذه الحقيقة الحتمية من الملائكة والجن والإنس وكل المخلوقات. فلا يبقى إلا الله عز وجل كما قال عز ذكره ﴿كُلُّ مَنْ

عَلَيْهَا فَانٍ ﴾[١]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾[٢].

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أن كلا منكم سيوفى أجره، فالمؤمن يؤجر ويثاب على عمله والكافر كذلك. ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: أن من أبعده الله عن النار وأدخله الجنة فهو ذو الحظ العظيم لفوزه برضا الله، وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد ألا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله ويأتي إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه)**[٣].

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ تعريف للحياة بأنها مجرد متاع مؤقت سرعان ما ينتهي، فعلى المؤمن ألا يغتر بها وأن يعمل للآخرة الباقية وشاهده قول الله جل ذكره ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾[٤]، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[٥].

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ خاطب الله رسوله بأنه وأمته معرضون للابتلاء، والامتحان في الأموال والأنفس، وفقد

---

(١) سورة الرحمن الآية ٢٦ .

(٢) سورة الرحمن الآية ٢٧ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول برقم (١٨٤٤)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي، ج٦ ص٥٣٩، وابن ماجة في كتاب الغنى باب ما يكون من الفتن، برقم (٣٩٥٦)، سنن ابن ماجة ج٢ ص١٣٠٧ .

(٤) سورة الأعلى الآية ١٦ .

(٥) سورة الأعلى الآية ١٧ .

الأحبة والأصحاب كما قال تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(١).

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ وسبب نزول هذه الآية ما رواه أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكية وأردف أسامة وراءه يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل معركة بدر قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول وذلك قبل أن يسلم هذا فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة. فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله ابن أبي أنفه بردائه وقال: لا تغبّروا علينا فسلم رسول الله ﷺ ثم وقف فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه فقال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه: بلى يارسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا. ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبي ﷺ: (**يا سعد ألم تسمع ما قال أبو الحباب؟**) يريد

(١) سورة البقرة الآية ١٥٥ .

عبد الله ابن أبي بن سلول قال كذا وكذا فقال سعد: يارسول الله اعف عنه واصفح فوالله الذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة (المدينة) على أن يتوجوه ويعصبوه بالعصابة. فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك فذلك الذي فعل به ما رأيت فعفا عنه رسول الله ﷺ.

وكان رسول الله وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى ... وكان يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً ومكن الله من قتل كفار قريش قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول على الإسلام وأسلموا[١].

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي: إن تصبروا على هذا الأذى في سبيل الدعوة ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتقوى ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: من عزم الله فعليكم الأخذ به.

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير حقيقة الموت، وأنه نهاية حتمية للإنسان في الدنيا ثم يعقبه

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٦٦، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗا﴾، برقم (٤٥٦٦)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص٧٨ .

الحساب والجزاء، وسيكون الفوز للذي يدخله الله الجنة بعد أن نجاه من العذاب. ومن مسائل الآية: أن الدنيا متاع وعبور وهذا يقتضي أن المؤمن لا يغتر بها. ومن أحكام الآية: أن العبد معرض للابتلاء في نفسه وماله وولده وأنه سيتعرض للأذى من أعدائه، وهذا يقتضي من المؤمن الصبر على الابتلاء لما سيكون له فيه من الأجر العظيم كما قال عز وجل ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فيه بيان من الله أنه أخذ العهد على أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى. ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ قد يكون المراد أمر محمد ﷺ ورسالته، وقد يكون المراد بالتبيين الكتاب الذي فيه أمره عليه الصلاة والسلام وهو التوراة والإنجيل. ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ أي: تبينونه واضحاً بدون كتمان. ﴿فَنَبَذُوهُ

(١) سورة الزمر من الآية ١٠.

وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ أي: طرحوا الميثاق الذي أخذ عليهم بتبيين الكتاب. ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ ﴾ المراد أنهم تركوا هذا البيان ليأخذوا مقابل ذلك ثمناً، وهو الربا والرشا من أهل الأهواء ليوافقوهم على هواهم. ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ فيه ذم وتقبيح لعملهم.

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾ المخاطب رسول الله ﷺ وقد روي في سبب نزول الآية أنه عليه الصلاة والسلام سأل اليهود عن شيء في التوراة فكتموا الحق، وأخبروه بخلافه، ورأوا أنهم قد صدقوه واستحمدوا إليه وفرحوا بما فعلوا فبين الله لرسوله كذبهم[١]. ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ ﴾ وفي هذا تسلية له عليه الصلاة والسلام، والمعنى لا تظنن أن الذين كذبوا عليك ويريدون منك حمدهم وشكرهم على ما أخبروك به من الكذب أنهم سينجون من العذاب. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ توكيد لما سينالهم يوم القيامة جزاء كذبهم.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ أي: أن جميع ما في السموات والأرض، وما بينهما ملك لله يتصرف فيه بحكمته وإرادته، وهو قادر على جزائهم بما فعلوا.

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٦٩، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ ﴾، برقم (٤٥٦٨)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص٨١.

أحكام ومسائل الآيات:

تحريم كتمان العلم ووجوب بيانه للناس. والأصل فيه من الكتاب قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. أما من السنة فقول رسول الله ﷺ: (**من كتم علماً عن أهله ألجمه بلجام من نار**)[2]. ومن الأحكام: أنه لا يجوز للعبد أن يسأل ثناء الناس عليه على عمل لم يفعله؛ بل الواجب ألا يحمد على فعل فعله فإن كان هذا الفعل واجباً عليه كالبر ونحوه فقد أدى هذا الواجب، وعليه أن ينتظر جزاء الله عليه. وإن كان هذا الفعل غير واجب عليه، ولكنه عمله فأجره يتضاعف وعليه أن يسأل الله هذا الأجر لأنه أعظم من حمد الناس له وثنائهم عليه. وشاهد هذا قول رسول الله ﷺ في السبعة الذين يظلهم يوم لا ظل إلا ظله ومنهم (**رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**)[3]. ومن الأحكام: تقرير ملك الله المطلق لكل مافي السموات والأرض، وهذا يقتضي من عباده طاعته فيما يأمرهم به، وانتهاؤهم عما ينهاهم عنه.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٤ .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، برقم (٢٦٤٩)، سنن الترمذي ج٥ ص٢٩، وأبو داود في كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، برقم (٣٦٥٨)، سنن أبي داود ج٣ ص٣١٨ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، برقم (٦٦٠)، صحيح البخاري مع الفتح ج٢ ص١٦٨.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾.

بيان الآيات:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: بما هو مشهود ومحسوس من خلقها وارتفاعها واستقرارها دون عمد وما فيها مما لا تدركه العقول والأبصار. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: بما فيها من البحار والأنهار والجبال والأشجار والمكنونات من الأموال. ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: في تعاقبهما وطول أحدهما تارة، وقصر الآخر تارة ثم تقاربهما ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: أصحاب العقول الذين يستدلون بعقولهم على عظمة الله في خلقه حين يرون هذه الآيات الدالة على عظمته وإعجاز صنعه وعظمة قوته وقدرته.

وفي هذا روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قلت لعائشة رضي الله عنها أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وأطالت ثم قالت: كل أمره عجب أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي ثم قال: (**يا عائشة هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟**) فقلت: يا رسول الله إني لأحب قربك وأحب هواك قد أذنت لك فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلي فقرأ من القرآن فجعل يبكي ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي فقال له: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (**يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً**) ثم قال: (**وما لي لا أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة** ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾. ثم قال: (**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**)[1].

قوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا ﴾ أي: يصلون ويذكرون الله وهم قيام، ويذكرونه ويصلون وهم قعود، أي: يصلون ويذكرون الله حسب استطاعتهم كما قال ذلك رسول الله ﷺ لعمران بن حصين: (**صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى**

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٣١٠، وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال برقم (٢٥٧٦)، ج١ ص٥٧٠ .

جنب تومئ إيماء)[1]. ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: وهم مضطجعون وهو موصول بما قبله. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يعتبرون ويتدبرون ما في هذا الكون الواسع من المعجزات والآيات الدالة على عظمة الله وقدرته. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: يقولون في أنفسهم وهم يتفكرون: يا ربنا ما خلقت هذا الكون عبثاً بل خلقته وصنعته وكونته لحكمة رأيتها وقدر قدرته؛ فأنت أعلم بما عملت، وأنت أحكم بما قدرت. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزهت وتقدست عن العبث والهزل. ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: أنقذنا من عذاب النار يوم تنقذ وتنجي عبادك المؤمنين.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي: أهنته وأذللته، وهذا الخزي لا يكون إلا للمشركين ومن عصى الله على بصيرة. أما المؤمنون فلا يخزيهم الله كما قال عز وجل ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾[2]. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: أنه لا ناصر للظالمين ينصرهم يوم القيامة ولا شافع يشفع لهم.

قوله ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ المراد به محمد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تقصير الصلاة، برقم (١١١٧)، صحيح البخاري مع فتح الباري، ج٢ ص٦٨٤.

(٢) سورة التحريم من الآية ٨.

ﷺ. ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: أننا سمعنا منادياً يقول آمنوا بربكم أي: صدقوه. ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ أي: سمعنا وأطعنا لهذا النداء فآمنا بما قال وبما جاء به. ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ تكرار للدعاء وهو طلب لستر الذنوب وتكفير السيئات واللحوق بالصالحين.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ قد يكون المراد آنفاً ما وعدتنا به من تصديق رسلك من الجنة لمن أطاعك، وقد يكون المراد ما وعدتنا به على ألسنة رسلك من الثواب على الطاعة والمعنى متشابه. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: لا تذلنا ولا تعذبنا. ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ إقرار وتوكيد بأن الله منزه ومقدس عن إخلاف ما وعد به العباد من الثواب في حال طاعتهم له وتصديقهم بما جاء به رسله.

أحكام ومسائل الآيات:

وجوب التفكر في خلق السموات والأرض لما في ذلك من الإيمان بعظمة الله وقدرته في صنع هذا الكون في علوه وسفله، وما يجري فيه من اختلاف الليل والنهار. ومن الأحكام: ثناء الله على أولي العقول، وقد وصفهم بأنهم الذين يذكرون الله في قيامهم وقعودهم وعلى جنوبهم، وأنهم يقرون بأنهم سمعوا منادي الإيمان وهو القرآن من رسول الله ﷺ فآمنوا به، وأنهم يدعون ربهم أن يغفر لهم ذنوبهم ويكفر

سيئاتهم؛ وهذا كله مما يدل على استشعارهم عظمة ربهم وطاعتهم ومحبتهم له ورجاءهم لرحمته ومغفرته.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

بيان الآية:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: أجاب دعاءهم. ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ وفي هذا روي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله هذه الآية أي: أن الله لن يضيع من عمل عملاً من ذكر أو أنثى فالذكور والإناث سواء في الجزاء على ما عملوا.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ أي: تركوا أوطانهم فراراً بدينهم إلى المدينة رغم حبهم لوطنهم. ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي: خرجوا منها بسبب ما حصل لهم من أذى المشركين وتضييقهم عليهم بسبب دينهم.

﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ أي: حصل لهم الأذى بسبب دخولهم في الدين الذي ارتضيته لهم .

﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ أي: قاتلوا أعداء ديني ورسولي. ﴿وَقُتِلُواْ﴾ أي: حدث لهم القتل في سبيلي. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي: سوف أسترها عليهم يوم القيامة، وهذا وعد منه عز وجل وهو لا يخلف الميعاد. ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: سوف يدخلون الجنة بما فيها من النعيم. ﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: جزاء حسناً على عملهم. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي: الجزاء العظيم.

أحكام ومسائل الآية:

الحكم بأن الله جل ثناؤه لا يضيع عمل عامل من عباده، وهذا يقتضي التساوي بين عباده المؤمنين والمؤمنات في عملهم، وفي جزائهم من ربهم. ومن الأحكام: فضل الهجرة وفضل الجهاد في سبيل الله، وقد تعهَّد الله أن يكفر عنهم خطيئاتهم ويدخلهم جناته بما فيها من النعيم المقيم.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

بيان الآيات:

الخطاب لرسول الله محمد ﷺ وأمته؛ ذلك أن نفراً من المسلمين قالوا: إن هؤلاء الكفار لهم تجارة وأموال ويتصرفون في البلاد بكسبهم وتجارتهم ونحن على خلافهم فأنزل الله هذه الآية مبيناً أن تجارتهم وأموالهم وتقلبهم في البلاد ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: مجرد متاع فانٍ لا قيمة له وإن كان كثيراً. وشاهده أيضاً قول الله تعالى في حق الكافرين ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾(١). وقوله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢). ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾(٣). ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: أن مصيرهم إلى النار. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: بئس المكان الذي سيؤولون إليه.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لما بيّن الله مآل الكافرين وأن تجارتهم لن تنفعهم بيّن جل وعلا ما سيكون للمتقين من الضيافة عند الله، وهي الجنات بما فيها من النعيم والخلود

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف من الآية ١٨٢ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٨٣ .

فيه، وأن ما عند الله هو خير للمتقين من نعيم الدنيا الفانية.

أحكام ومسائل الآيات:

تزهيد رسول الله ﷺ والمؤمنين في حال الكفار، وما قد يكون لهم من الأموال والتجارات؛ فما ذاك إلا متاع لا يستحق الاغترار به أو النظر إليه لأنه سيؤول لا محالة إلى الزوال ثم يعقبه العذاب. ومن الأحكام: تقرير وعد الله للمتقين بأن لهم الجنة التي يخلدون فيها.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

بيان الآية:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت في النجاشي ذلك أنه لما مات نعاه جبريل لرسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: (**قوموا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم**) فقال بعض المنافقين: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط وليس على دينه[1]. وقيل: إنها نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب وقيل: نزلت

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٧٢، والدر المنثور ج٢ ص٢٠٠، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٣ ص٢١٨ .

في عبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي: القرآن. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ من الكتابين التوراة والإنجيل. ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ أي: أذلاء صاغرين له. ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ﴾ أي: ليسوا كحال الذين يكتمون ما أنزل الله ليرضوا بذلك أهل الأهواء مقابل ما ينالونه منهم من الرشا. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ أي: ما وعدهم الله به من الثواب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: سيجازي كل عامل بعمله بعدما يحصيه سريعاً.

أحكام ومسائل الآية:

تقرير فضل أهل الكتاب الذين آمنوا بالقرآن ورسالة رسول الله ﷺ، ومنهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه؛ فكان من صفاتهم الخشوع لله والانقياد له بالطاعة، واتباع ما جاء به نبيه ورسوله محمد ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾.

بيان الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾ أي: اصبروا على ما قد ينالكم من الأذى بسبب دينكم، وفيه إشارة إلى ما ورد في الآيات السابقة عن

أذى المشركين والمنافقين. ﴿وَصَابِرُوا﴾ أي: غالبوا عدوكم وكونوا أكثر منه صبراً وصلابة. ﴿وَرَابِطُوا﴾ أي: كونوا مستعدين للجهاد، ورد كيد عدوكم بالثبات على ثغوركم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتقوه حق تقاته لأن التقوى هي المحرك للجهاد والصبر عليه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: بسبب صبركم ومصابرتكم تنالون الفلاح في الدنيا والآخرة.

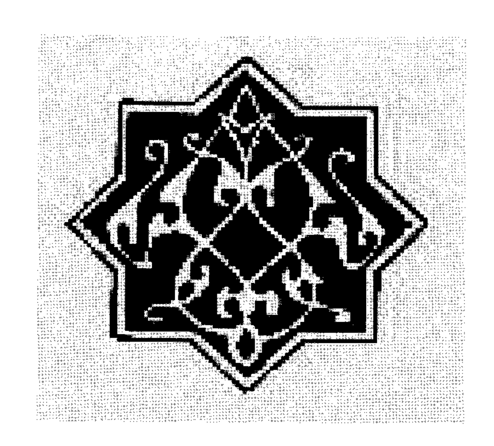
أحكام ومسائل الآية:

أمر الله للمؤمنين بالصبر والمصابرة والرباط، وهذا الأمر ليس خاصّاً بالزمان الذي نزلت فيه الآية، بل هو أمر دائم ولازم لأمة محمد ﷺ يوجب عليها أن تصبر على الجهاد، ومنازلة الأعداء، ومغالبتهم، والرباط في سبيل الله لأن ذلك هو السبيل للحفاظ على دينها وعلى الدفاع عن رسالة نبيها. والأمر في مفهومه الشامل يقتضي وجوب الاستعداد للجهاد بالسلاح وعدة الحرب كما قال عز وجل ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(١)؛ ذلك أنه لم يتحقق للأمة في سالفها نصر وفتح للبلدان إلا بقيامها بما أمرها الله به، فكانت لها الغلبة والنصر. ولم تنكفئ وينحسر مدها ويتسلط عليها الأعداء إلا بعد ما تركت ما أمرها الله به لأن سنته وحكمته في

(١) سورة الأنفال من الآية ٦٠.

خلقه اقتضت أن يكون منهم المسلم والكافر والمؤمن والمنافق والبر والفاجر. كما اقتضت حكمته أن يختبر عباده ليرى منهم الثابت على دينه فيجازيه بنصيب الدنيا والآخرة ويرى منهم المنهزم والضعيف في دينه فيجازيه بعمله.

وشاهد هذا قوله عز وجل ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾(١). ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾(٢). وقوله جل ذكره ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾(٣).



(١) سورة العنكبوت الآية ٢ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٣ .

(٣) سورة محمد الآية ٣١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء

مدنية إلا آية واحدة مكية هي قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾.

بيان الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ نداء للناس المنحدرين من آدم بأن يخافوا الله الذي خلقهم، والنداء هنا يقتضي الأمر والتكليف. ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ المراد به آدم وهو الفرع الأول للخلق. ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ أي: الذي خلق من النفس الواحدة زوجها، وهي حواء حيث خلقت من ضلع من أضلاعه. ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ أي: نشر من آدم وحواء أناساً كثيرين لا يزالون يتتابعون حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ هذا توكيد للأمر بتقوى الله ﴿ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ﴾ كقول المرء للآخر أسألك بالله أن تفعل كذا وكذا فاتقوا الله بطاعتكم له، واتقوا أرحامكم أن تقطعوها.

وذكر القرطبي أنه لا يبعد أن يكون ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ قد أقسم بها كما أقسم بمخلوقاته الدالة على وحدانيته وقدرته تأكيداً لها حتى قرنها بنفسه[١]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ أي: حافظاً ومراقباً لما تعملون.

أحكام ومسائل الآية:

صلة الأرحام من واجبات المسلم، وقد حرم الله عليه قطيعتها والأصل في ذلك هذه الآية، وقوله عز وجل ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾[٢]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾[٣]. والأصل فيه من السنة قول رسول الله ﷺ: **(إن الرحم شجنة من الرحمن فقال الله: من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته)**[٤].

وتترتب الصلة رغم اختلاف الدين والأصل فيه من الكتاب قول الله جل ذكره ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾[٥]. والمصاحبة بمعنى

---

(١) أحكام القرآن، ج٥ ص٤ .
(٢) سورة محمد الآية ٢٢ .
(٣) سورة محمد الآية ٢٣ .
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، برقم (٥٩٨٧)، صحيح البخاري مع فتح الباري، ج١٠ ص٤٣٠ .
(٥) سورة لقمان الآية ١٥ .

الصلة للوالدين المشركين، مع نفي طاعتهما فيما هو معصية وأما السنة فما ثبت أن أسماء بنت أبي بكر قالت: يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي مشركة أفأَصِلُها ؟ قال: (**نعم صِلي أمك بالمعروف**)(١).

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ اليتامى هم الذين فقدوا آباءهم وهم في حال صغرهم؛ فإذا بلغوا مبلغ الرجال انتفت صفة اليتم عنهم والمراد بأموالهم أي: ما كان لهم عن طريق الإرث أو غيره، وقيل: إن هذه الآية نزلت في رجل من غطفان كان معه مال لابن أخ له يتيم فلما بلغ هذا طلب ماله فمنعه منه عمه فنزلت الآية فقال العم: نعوذ بالله من الحوب الكبير ورد المال فقال رسول الله ﷺ: (**من يوق شح نفسه ورجع به هكذا فإنه يحل داره**) أي: جنته. فلما قبض اليتيم ماله أنفقه في سبيل الله فقال رسول الله: (**ثبت الأجر وبقي الوزر**)

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج، برقم (٥٩٧٩)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٠ ص٤٢٧ .

فقيل: كيف يا رسول الله ؟ فقال: (**ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده لأنه كان مشركاً**)[١].

﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ المراد ألا تأخذوا الطيب من مال اليتامى وتتركوا لهم الرديء من مالكم؛ ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يأخذون الجيد من أموال اليتامى الذين تحت ولايتهم ويضعون مكانها الأموال الرديئة. ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ لعل المراد ألا تخلطوا أموالهم مع أموالكم فتأكلوها كأنها أموالكم. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أي: إذا فعلتم ذلك فإنه حوب أي: إثم كبير وقيل: إن هذه لما نزلت تجنب أولياء الأيتام أيتامهم ونأوا بأموالهم عن أموال اليتامى فكادت أموالهم تفسد فنزل قول الله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾[٢].

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ روى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها في تفسير هذه الآية هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره؛ فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق،

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٧٥ .

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٢٠ .

وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن[١].

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ المراد إذا خفتم ألا تقسطوا في مولياتكم من اليتامى فتزوجوا من غيرهن إما زوجتين أو ثلاث زوجات أو أربعاً كما يشاء ويختار الزوج. وليس المراد أن يجمع بين تسع نساء كما فسر ذلك بعض من أساء فهم الآية الكريمة، وأباح الجمع وهو غلط شنيع. ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ أي: إذا خفتم الميل وعدم العدل بين زوجاتكم فاكتفوا بواحدة. ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ أي: إن خاف الزوج ألا يعدل في زوجة واحدة فما ملكت يمينه. أي: إن كانت له أمة فليتسرّ بها ولا يعني ذلك ألا يعدل بها بسبب كونها أمة؛ فالعدل لها واجب لأنه من أمر الله في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[٢]. ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أي: لا تجوروا بالظلم على من تزوجتموهن.

أحكام ومسائل الآيتين:

حق الولاية على مال اليتيم مرهون بعدم بلوغه، فإذا بلغ مبلغ الرجال حق له التصرف في ماله ما لم يكن سفيهاً؛ خلافاً لما رآه الإمام أبو حنيفة من إعطائه ماله إذا بلغ خمساً وعشرين سنة[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ برقم (٤٥٧٤)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص٨٧ .

(٢) سورة النحل من الآية ٩٠ .

(٣) أحكام القرآن للجصاص ج٢ ص٣٤٠ .

ومن الأحكام: تحريم تبديل مال اليتيم بما هو أردأ منه أو أكل ماله. ويجوز خلط ماله بمال وليه إذا كان الهدف من هذا الخلط تنميته وتثميره وإصلاحه. أما إذا كان هذا الخلط يؤدي إلى فساده فذلك محرم. ومن الأحكام: أن المراد بالنكاح مما طاب من النساء إما اثنتان أو ثلاث أو أربع وليس المراد الجمع أكثر من أربع. ومن قال بالزواج من تسع واستدل بأن رسول الله ﷺ توفي عن تسع فقد أساء فهم القرآن وأخطأ فيه خطأ شنيعاً لأن الله لو أراد الجمع لقال: تسعاً دون حاجة إلى تعداد. وشاهد منع ذلك من السنة قول رسول الله ﷺ لغيلان الثقفي لما أسلم وعنده عشر نسوة: (**اختر منهن أربعاً وفارق سائرهن**)[١].

ومن الأحكام في الآيتين: تحريم العول أي: الميل سواء بالنسبة لليتيمات أو الزوجات، وقد ذكر الإمام الشافعي أن معنى الآية فانكحوا واحدة إن خفتم أن يكثر عيالكم؛ فذلك أقرب إلى أن تنتفي عنكم كثرة العيال. وقال أصحابه: لو كان المراد بالعول الميل لم تكن له فائدة لأن الميل لا يختلف بكثرة عدد النساء وقلتهن، وإنما يختلف بالقيام بحقوق النساء فإنهن إذا كثرن تكاثرت الحقوق[٢].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي، ج١ ص٣١٤، وأخرجه أحمد في المسند ج٢ ص١٣، والبيهقي في كتاب النكاح باب من يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة، ج٧ ص١٨١-١٨٣، والدارقطني ج٣ ص٢٧٠ .

(٢) النكت والعيون تفسير الماوردي ج١ ص٤٥٠ .

قلت: وقد لا يكون مراد الله نفي كثرة العيال لأن من خلق الخلق، وتكفل بأرزاقهم، وجعل لهم الأرض ذلولاً، وهيأ لهم أسباب العيش فيها لا يأمر عباده أن يقللوا من نسلهم وهو الخالق أصلاً لهذا النسل. فلو أراد عدمه لكان له ذلك لأنه القادر على عدمه وعلى قلته وكثرته. ورسوله وهو المبلِّغ عنه قال: (**تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**)[1]. وقوله: (**النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني**)[2].

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ ﴾.

بيان الآية:

﴿ صَدُقَٰتِهِنَّ ﴾ أي: مهورهن. ﴿ نِحۡلَةٗ ﴾ أي: عطية عن طيب نفس، والمراد أن الله قد أمر المؤمنين أن يعطوا أزواجهم مهورهن عن طيب نفس لأن ذلك مما فرضه الله لهن لأن أهل الجاهلية كانوا يأخذون مهور مولياتهن فنهى الله عن ذلك. ﴿ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا ﴾ أي: إن طابت نفس الزوجة فأعطت مهرها كله أو بعضه

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب النكاح، باب كراهية تزويج العقيم برقم (٣٢٢٧)، سنن النسائي ج٦ ص٣٧٣، وأحمد في المسند ج٣ ص١٥٨ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح برقم (٥٠٦٣)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٩ ص٥ .

لزوجها فذاك جائز لأنها أعطته بإرادتها ما كان حقاً لها. ﴿فَكُلُوهُ﴾ المراد به جواز أخذه. ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ أي: كلوه ونفوسكم مطمئنة ما دام أن ذلك عن طيب نفوس زوجاتكم. وقيل في سبب نزول الآية: إن هناك من تحرج أن يأخذ شيئاً من المهر الذي أعطاه للزوجة فأباح الله ذلك بقوله ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ﴾ الآية.

أحكام ومسائل الآية:

عقد الزوجية عقد معاوضة يتفق عليه الزوجان، فاقتضى هذا وجوب الصداق على الزوج فهل الأصل فيه سلطة الزوج على الزوجة، أو هو حق فرضه الله لها ؟ لعل الصواب أنه حق فرضه الله لها لأن العقد في الجاهلية كان الشغار فيزوج هذا أخت هذا، وذاك يزوجه أخته فلا يكون للمرأة حق في هذا العقد فحرم الله ذلك، وفرض للمرأة الصداق نحلة منه. أما سلطة الزوج على الزوجة فهي مما أوجبه الله في قوله جل ذكره ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[(١)]. وفي كل الأحوال لا معنى للقوامة أو السلطة إذا اختل عقد الزوجية لسوء العشرة والصحبة أو نحو ذلك من مفسداته.

ومن الأحكام في الآية: أن الصداق لما كان حقاً للزوجة فإن لها الحق في التصرف فيه بالهبة كله أو بعضه لزوجها إذا كان ذلك عن طيب نفس وليس نتيجة إكراه لها.

---

(١) سورة النساء من الآية ٣٤ .

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ الآية موصولة بالآية السابقة ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾؛ ذلك أن الله لما أمر بإيتاء اليتامى أموالهم استثنى من ذلك السفهاء وهم المبذرون لأموالهم أو عديمو التصرف فيها، ويدخل في حكمهم الصغار الذين لا يعرفون قيمة المال، وكذلك النساء غير القادرات أو عديمات التجارب. ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ جعلها لصالحكم في معاشكم وأمور دينكم ودنياكم.

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ أي: اجعلوا لهم من أموالهم ما يسد حاجتهم من الطعام والشراب والكساء لأن ذلك مما تقتضيه حياتهم ومعاشهم. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ المراد أنه حتى مع سفههم والحجر على أموالهم لا ينبغي الإساءة إليهم بل يجب تطييب نفوسهم ووعدهم بأن أموالهم ستؤول إليهم ونحو ذلك من القول الطيب.

أحكام ومسائل الآية:

تقرير نهي أولياء اليتامى عن إعطائهم أموالهم إذا كانوا غير قادرين على التصرف فيها مما يؤدي إلى ضياعها. ويشمل ذلك

السفيه المبذر للمال، والصغير الذي لا يعرف قيمة المال، والمرأة غير المدركة أو ضعيفة التجربة في التصرف. ويشمل الحكم الأب في نهيه عن إعطاء ماله لأولاده، أو أحدهم إذا كانوا على هذا النحو من السفه، أو الصغر، أو قلة التجربة لأن المال أمانة في يد صاحبه فلا يجوز إنفاقه إلا فيما هو مشروع له.

وللحجر من التصرف بالمال ثلاث حالات: الأولى- أن يكون المحجور عليه صغيراً. الثانية- أن يحجر عليه لسوء عقله كالجنون ونحوه. الثالثة- أن يحجر عليه لعدم تبصره في ماله مما يؤدي إلى تلفه. ويعد تصرف السفيه في ماله جائزاً قبل الحجر عليه وقال بهذا طائفة من العلماء[1]. ولعل الأصح والله أعلم عدم جوازه خاصة إذا كان سفهه بيناً وشاهد هذا أن رسول الله ﷺ رد تصرف رجل حين أعتق عبداً ليس له مال غيره ولم يكن محجوراً عليه من قبل[2].

ولا عبرة لكبر السن في الحجر؛ فإن كان سفيهاً حجر عليه ولو بلغت سنه ما بلغت وعلى هذا جمهور الفقهاء، وخالف في ذلك الإمام أبو حنيفة فقال: لا يحجر على من بلغ عاقلاً إلا أن يكون مفسداً لماله.

---

(١) وهم الإمام مالك وجميع أصحابه غير ابن القاسم وقول الشافعي وأبي يوسف، الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٣٠ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات، باب من باع على الضعيف ونحوه فدفع ثمنه إليه وأمره بالإصلاح، برقم (٢٤١٥)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج ص٨٨ .

فإن كان كذلك منع من تسليم ماله إليه حتى يبلغ خمساً وعشرين سنة فإذا بلغها سلم إليه ماله في كل الأحوال سواء كان مفسداً أو غير مفسد لأنه في سنه هذا يعد جداً وقال: أنا أستحي أن أحجر على من يصلح أن يكون جداً(١).

ومن الأحكام في الآية: وجوب نفقة السفيه والصغير من ماله، ووجوب نفقة الوالد على أولاده وإرشاد، وتوجيه السفيه وقليل الخبرة بالكلمة الطيبة، وعدم الإساءة إليه سواء كان هذا يتيماً تحت وليه أو ولداً تحت رعاية والده.

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الابتلاء الاختبار والامتحان ولا يكون هذا إلا بعد البلوغ وقيل: إنها نزلت في ثابت بن رفاعة وعمه فلما توفي رفاعة خلف ابناً صغيراً فأتى عمه رسول الله ﷺ فقال: إن ابن أخي يتيم وهو في حجري فما يحل لي من ماله ومتى أدفعه إليه فأنزل الله هذه

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ج٧ ص١٦٩ .

الآية. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ أي: لا يكون الاختبار إلا بعد بلوغهم وأهليتهم للنكاح لأنهم قبل البلوغ لا يزالون في حكم الصغار. ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ﴾ أي: إذا رأيتم فيها رشداً بعد اختباركم لهم فتبين لكم صلاح عقولهم ودينهم فحينئذٍ ادفعوا إليهم أموالهم. والرشد لا يكون إلا بعد تجربة واختبار، فقد يعطي الولي اليتيم ومن في حكمه شيئاً من ماله لكي يتصرف فيه وعندئذٍ سيدرك مدى رشده في قدرته على التصرف وتنمية المال وعدم إفساده.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ أي: لا تأكلوا أموالهم بالإسراف فيها حين إنفاقكم عليهم لغير سبب الحاجة؛ إذ إن مقتضى الولاية على مال اليتيم حفظه وعدم تضييعه بالإسراف في الإنفاق منه أو بأي صورة من الصور. ﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ أي: تنفقون كما تشاؤون قبل أن يكبر الأيتام فيأخذوا أموالهم منكم. ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ﴾ أي: من كان منكم أيها الأولياء غنياً فلا يطمع في مال اليتيم لأن الله حين أغناه نزهه عن أكل مال من هو في ولايته. ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ أي: يأخذ من مال اليتيم بقدر قيامه عليه ورعايته له. وفي هذا روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال ولي يتيم ؟ فقال: (**كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر**

ولا متأثل مالاً ومن غير أن تفدي مالك)[1].

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذا دفعتم إليهم أموالهم بعد بلوغهم الحلم، وإيناسكم منهم الرشد فأشهدوا عليهم أي: خذوا عليهم البينة بأنهم تسلموا أموالهم حتى يكون في ذلك براءة لذممكم، وعدم ما يؤدي إلى اختلافكم معهم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: كفى بالله شاهداً عليكم ومحاسباً لكم فيما صنعتم في أموالهم.

أحكام ومسائل الآية:

وجوب تسليم مال اليتيم إليه إذا بلغ الحلم وأنس الولي منه رشداً وهو الصلاح في العقل، والدين، وحفظ المال. فلو بلغ الحلم ولم يكن رشيداً لم يسلم إليه المال، ولو كان ظاهره الرشد وهو لم يبلغ الحلم لم يسلم إليه المال كذلك؛ لأن البلوغ والرشد شرطان متلازمان. فإن سُلِّم إليه بعد توفر هذين الشرطين ثم ظهر سفهه بعد ذلك حجر عليه خلافاً للإمام أبي حنيفة كما سبق ذكره.

ويحرم على ولي اليتيم السرف في مال اليتيم، أو تبذيره أو الإنفاق عليه بإسراف. فإن كان الولي غنياً فالأولى له العفاف عن مال موليه،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا، باب ما جاء في ما لولي اليتيم أن ينال من مال اليتيم، برقم (٢٨٧٢)، سنن أبي داود ج٣ ص٣٦، والنسائي في كتاب الوصايا، باب ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه برقم (٣٦٧٠)، سنن النسائي ج٦ ص٥٦٧، وابن ماجة في كتاب الوصايا باب قوله ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ برقم (٢٧١٨)، ابن ماجة ج٢ ص٩٠٧، وأحمد في المسند ج٢ ص١٨٩ .

وإن كان فقيراً أخذ منه بقدر تعبه في رعايته ورعاية ماله.

ومن الأحكام في الآية: وجوب الإشهاد على الأيتام إذا دفع الأولياء لهم أموالهم، وذلك دفعاً لما قد يحصل من الاستشكال معهم والمراد بالإشهاد البينة وهذه تتوفر بالشهادة كما تتوفر بالكتابة أو بأي وسيلة مشابهة.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾ هذه الآية ذات صلة بآية اليتامى؛ ذلك أن الله لما بيّن ما يجب لليتامى على أوليائهم بيّن المواريث وكيفيتها. وقد نزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري فقد توفي وترك زوجة وثلاث بنات، فقام ابنا عمه ووصياه

وهما: سويد وعرفجة فاستوليا على مال ثابت ولم يعطيا لزوجته، ولا لبناته شيئاً، وذلك جرياً على ما جرى عليه العمل في الجاهلية بعدم توريث النساء، والأولاد الصغار، ويقولون: لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة. فجاءت أم كجة زوجة أوس لرسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فدعاهما فقالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كلاً، ولا ينكأ عدواً فقال رسول الله ﷺ: (**انصرفا حتى انظر ماذا يحدث الله لي فيهن**) فأنزل الله هذه الآية رداً عليهما، وإبطالاً لعمل الجاهلية، وما فيه من عدم الرحمة، وأكل أموال القصر، والأرامل واليتامى بالباطل(١).

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ فلما نزلت الآية أرسل رسول الله ﷺ إلى سويد وعرفجة ألا يقسما من مال أوس لأن الله جعل لبناته نصيباً، ولم يبين مقداره فنزل بعد ذلك قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾(٢). فأعطى أم كجة الثمن، وأعطى البنات الثلثين والباقي لابني العم.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ المراد التركة المحددة لأصحابها المعنيين بالنص وقد يحضر قسمتها أناس من قرابة الميت، ومن الأيتام والمساكين

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٧٧ .

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٨٠، والآية في سورة النساء من الآية ١١ .

ذوي الحاجة ولكنهم لا يستحقون منها شيئاً إما لحجب أو لعدم قرابة، أو نحو ذلك من الموانع. وهؤلاء غالباً ما يتشوفون ويتطلعون إلى أن ينالهم منها نصيب؛ فمن رأفة الله بعباده وجبر خواطرهم أوصى من باب الندب للورثة أن يرزقوهم من التركة إن كانت كثيرة. ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ والمراد أنه إذا تعذر إعطائهم شيئاً من التركة إما لقلتها أو لكونها لأيتام صغار ويصعب على وليهم إخراج شيء منها فيعتذر لهم بقول لطيف وعذر حسن تطيب به قلوبهم.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ قد يكون المراد الذين يوصون صاحب المال أن ينفق ماله في سبيل الله، ويترك ولده فخاطبهم الله أن يخشوا على ولد المريض ويشفقوا عليه كما لو كانوا يخشون ويشفقون على أولادهم. وقد يكون المراد الأولياء والأوصياء أن يخشوا الله فيمن تحت أيديهم كخشيتهم على أولادهم. وقد يكون المراد أن الرجل يسمع آخر يوصي بوصية فيها ضرر على أولاده فيجب عليه أن ينصحه بالعدل وشاهده قول الله ﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ المراد الذين يأكلون أموال اليتامى ظالمين لهم غير متورعين في ولايتهم عليهم أو متعرضين لها

بالظلم إذا كانوا من غير أوليائهم. ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: ملئها وفي هذا تشنيع عليهم. ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ وصف من صفات النار.

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بإبطال عمل الجاهلية في عدم توريثهم النساء والصغار، وبيان أن سبب الميراث وعلته هي القرابة للمورث، ووجوب حق الوارث في التركة قليلاً كان أو كثيراً. ومن الأحكام: الندب لإعطاء من لا نصيب له في التركة شيئاً منها ممن لا نصيب له فيها من القرابة أو اليتامى أو المساكين، فإن لم يمكن ذلك وجب الاعتذار لهم لما يؤنس مشاعرهم ويطيب خواطرهم. ومن الأحكام: وجوب نصح من يحيف في وصيته. ومنها: تحريم أكل أموال اليتامى ومن فعل ذلك فقد تعرض لوعيد الله له بالعذاب الأليم.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا

تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾.

بيان الآية:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يعهد إليكم ووصية الله أمر موجب للتكليف. ﴿فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: وجب عليكم أن تكون قسمة تركتكم على هذا النحو فيكون للذكر ضعف حق الأنثى؛ ذلك أن أهل الجاهلية -كما سبق ذكره- يمنعون الإناث من أصل الميراث ويجعلونه كله للذكور فأبطل الله صنيعهم وأعطى للإناث حقهن ولكنه فاوت في مقداره؛ ذلك أن واجبات الرجل أكثر من واجبات المرأة، وذلك فيما يتحمله من أعباء الحياة، ومسؤوليات أولاده وقيامه عليهم بالنفقة وسائر أنواع مؤونتهم.

قلت: ومن ظن أن في هذه القسمة حيفاً على الأنثى فقد أخطأ خطأ شنيعاً لسببين: أولهما- أن الله أعطى الأنثى حقاً كانت محرومة منه في الجاهلية. وثانيهما- أنه أرحم وأعدل وأحكم في خلقه من الخلق أنفسهم؛ لأن علم الخلق وتصورهم يعجز عن علمه وحكمته في خلقه فالحكم ما حكم الله به، والعدل ما أمر به، ورحمته أوسع وأشمل بخلقه فلا معقب لحكمه.

فيكون المراد من الآية أن الرجل إذا مات وترك أولاداً ذكوراً وإناثاً

قسمت تركته على أن للذكر مثل نصيب الأنثيين، فلو ترك ولداً وبنتاً وتركته ثلاثون ألف درهم أخذ الولد عشرين ألف درهم والبنت عشرة آلاف.

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ يستفاد من كون الثلثين للبنتين من حكم الأختين في الآية الأخرى، فما دام أن الأختين ترثان الثلثين فإن ميراث البنتين الثلثين أولى لكونهما أقرب. ويدل عليه أيضاً حديث جابر بن عبد الله أن امرأة سعد بن الربيع جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هاتين ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان إلا ولهما مال فقال: (**يقضي الله في ذلك**) فنزلت آية المواريث فأرسل إلى عمهما فقال: (**أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن وما بقي فهو لك**)[1].

﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ أي: إن ترك بنتاً واحدة فلها النصف والباقي لعصبته.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: إن كان ورثة الميت أمه وأباه وأولاداً ذكوراً وإناثاً فللأب السدس،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الصلب، برقم (٢٨٩١)، سنن أبي داود ج٣ ص٤٥، وابن ماجة في كتاب الفرائض، باب فرائض الصلب، برقم (٧٢٠)، سنن ابن ماجة ج٢ ص٩٠٨، والترمذي في كتاب الفرائض باب ما جاء في ميراث البنات برقم (٢٠٩٢)، سنن الترمذي ج٤ ص٣٦١، وأحمد في المسند ج٣ ص٣٥٢ .

وللأم كذلك السدس وما بقي من التركة للأولاد.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي: إن لم يكن له ولد ولا ولد ولد حق لأمه الثلث .

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ أي: إن كان له إخوة اثنان فأكثر فلأمه السدس أي: ينزل حظها من الثلث إلى السدس لكونها قد حجبت بإخوة ابنها.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: يكون للأم هذا النصيب بعد قضاء دين الميت وإخراج وصيته مع تقديم الدين على الوصية لأن ذمة الميت معلقة بدينه حتى يقضى عنه كما قال ذلك رسول الله ﷺ[(١)].

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ وفي هذا أمر من الله لعباده بتنفيذ وصيته في المواريث كما أرادها لهم دون تفضيل أو بر بعضهم على بعض؛ لأن هؤلاء هم آباؤكم وأبناؤكم فلا تدرون أيهم ينفعكم في الدنيا والآخرة. فاكتفوا بقسمة الله التي وضعها لكم لأنه أعرف بأحوالكم، وما ينفعكم وما يضركم وفي هذا رد على الذين قد يتساءلون عن هذه القسمة أو يحاولون تخطيها فيما

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، ج١ ص١٣١، والترمذي في كتاب الوصايا، باب ما جاء يبدأ بالدين قبل الوصية برقم (٢١٢٢)، سنن الترمذي ج٤ ص٣٧٨، وابن ماجة في كتاب الوصايا، باب الدين قبل الوصية، برقم (٢٧١٤)، سنن ابن ماجة ج٢ ص٩٠٦ .

يعتقدون خطأ أنه الأفضل لهم.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن هذه القسمة التي وضعناها في تفصيل الميراث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض هو حكم من الله حكم به، وقضاء قضى به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: يعلم ما في مصلحة عباده حكيم فيما يعمله.

أحكام ومسائل الآية:

الوصية ينبغي أن تكون بثلث المال لحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: عادني رسول الله ﷺ عام حجة الوداع في مرض اشتد بي فقلت: يا رسول الله أنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بمالي كله ؟ قال: (لا) قلت: فالشطر؟ قال: (لا) قلت: الثلث؟ قال: **(فالثلث، والثلث كثير إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس)**[1].

والصدقة من المال يجب أن تكون في صحة الإنسان في بدنه، وعقله لما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ سئل أي الصدقة أفضل؟ قال: **(أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس برقم (٢٧٤٢)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٥ ص٤٢٧ .

لفلان كذا)[١].

وفي الآية قسم الله تعالى التركة بنفسه، فلم يجعل لأحد فيها اجتهاداً؛ فلا يجوز أن يغير أحد فيها خلافاً لما قرره الله. ووصية الله إلى عباده عهده إليهم فوجب عليهم الوفاء بهذا العهد، ووصيته في الأولاد عام في جميعهم الذكر والأنثى للذكر مثل حظ الأنثيين وهكذا كما فصله الله في الآية.

ومن الأحكام في الآية: حق الميت في الإيصاء بثلث ماله بما يلزمه حال موته كتجهيزه وما بعد موته وهذا قسمان: الأول- وفاء دينه لأن ذمته معلقة بوفائه. والثاني- ما يكون له فيه قربة إلى الله كالإيصاء بالبر حسبما يراه ويحدده .

ومن الأحكام في الآية: تحريم الإيصاء لأحد من ورثته لقول رسول الله ﷺ: **(إن الله أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث)**[٢].

﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، برقم (١٠٣٢)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٣ ص٥٠٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا، باب ماجاء في الوصية للوارث، برقم (٢٨٧٠)، سنن أبي داود ج٣ ص٣٥، وأحمد في مسنده ج٤ ص١٨٦، والترمذي في كتاب الوصايا، باب ما جاء في وصية الوارث، برقم (٢١٢٠)، سنن الترمذي ج٤ ص٣٧٦، وابن ماجة في كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، برقم (٢٧٣١)، سنن ابن ماجة ج٢ ص٩٠٥ .

وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

بيان الآية:

وفي هذه الآية الثانية بيَّن الله الميراث من جهة المصاهرة أي: الزواج فقال جل ذكره: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي: أن لكم أيها الأزواج نصف ما تركت زوجاتكم إن لم يكن لهن ولد أي: إن الزوجة إذا توفيت ولها مال ولم يكن لها ولد ولا ولد ولد ذكراً كان أو أنثى، فإن لزوجها نصف ما تركته.

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: إن تركت ولداً أو ولد ولد ذكراً كان أو أنثى فليس لزوجها إلا ربع ما تركته، وهذا لا يكون إلا بعد قضاء الدين إن كان على الزوجة دين وبعد إخراج وصيتها إن كان لها وصية وهو معنى قوله عز وجل ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ

بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾. بعد ذلك انتقل البيان من نصيب الزوج من زوجته إلى نصيب الزوجة من زوجها فقال عز وجل ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ﴾ أي: إن لها الربع من التركة إذا لم يترك الزوج ولداً أو ولد ولد ذكراً كان أم أنثى.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ أي: أن للزوجة الثمن إن كان للزوج ولد أو ولد ولد ذكراً كان أم أنثى، وذلك بعد قضاء الدين وإخراج الوصية؛ هذا مع ملاحظة أنه إذا كان للزوج المتوفى زوجتان أو أكثر فإن ميراثهن يكون بالاشتراك في الربع أو الثمن بالتساوي بينهن.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ المراد بالكلالة من يتوفى وليس له ولد ولا والد، فيكون ورثته إخوته لأمه أي: إن كان الرجل يورث كلالة أو امرأة أي: هي أيضاً كلالة فإن كان له أخ من قبل أمه فله السدس وكذا إن كانت له أخت فلها السدس.

﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ أي: إن كانوا اثنين فأكثر فلهم الثلث، وهذه المسألة سميت بالمسألة الحمارية أو الحجرية أو المشتركة ومفادها أن تموت امرأة، ووراءها

زوجها وأمها، وإخوة لأمها وأخ لأبيها وأمها فللزوج النصف وللأم السدس والباقي للإخوة لأم ولا نصيب للأخ لأب أولهما فقالوا لمن قضى بينهم: هب أن أبانا حمار أو قالوا: حجر أليست أمنا واحدة؟ وطلبوا تشريكهم في الإرث فسميت المسألة بهذه الأسماء.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ المراد أن تكون وصيته عادلة، فلا يقصد الإضرار، أو حرمان بعض الورثة أو إنقاص نصيبه أو زيادته عما قدره الله له فكل ذلك مما حرمه الله.

﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: أن هذا حكم الله يجب إنفاذه. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ أي: عالم بما في سرائركم حليم على عباده فلا يعجل لهم العقاب إذا عصوه .

أحكام ومسائل الآية:

تقرير استحقاق الزوج من زوجته الميراث واستحقاقها منه، ومن مات ولم يترك والداً ولا ولداً فيكون إرثه لإخوته.

ومن الأحكام في الآية: أن ذكر الوصية قبل الدين جاء في اللفظ ولا يعني تقديمها قبل الوفاء بالدين بل يجب الوفاء بالدين أولاً.

ومن الأحكام في الآية: أن الدين إذا كان غير حقيقي، وأن المراد من الوصية الإضرار بالورثة وجب إبطالهما.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ﴾ لما ذكر الله عز وجل في أول السورة أحكام اليتامى وحقوقهم، وتحريم ظلمهم، ثم ذكر أحكام الوصايا والمواريث واستحقاقات الوارثين بيَّن: أن هذه حدود الله أي: أحكامه وأوامره وقضائه. ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أن من أطاع هذه الأحكام فلم يزد عليها ولم ينقص منها فجزاؤه الجنة بما فيها من النعيم المقيم والخلود. ﴿وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: أن ذلك هو الفوز الذي لا فوز بعده.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ أي: أن من يعص الله بترك أحكامه، وما قضى به فيغير فيها أو يعدل أو يبدل يدخله النار، ويكون له فيها الخلود والعذاب والمهانة.

أحكام ومسائل الآيتين:

تحريم تعدي حدود الله وأحكامه التي وضعها لعباده في الميراث

وغيره، وتقرير ثوابه العظيم لمن أطاعه وأطاع رسوله. ومن مسائل الآية: تقرير الجزاء لمن عصى الله، وتعدى حدوده وذلك بخلوده في العذاب المهين.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ إتيان الفاحشة ارتكابها، وهي كل فاحش من القول أو الفعل. أما في هذه الآية فالفاحشة المقصودة جريمة الزنا. ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ أي: أشهدوا على ارتكابهن الزنا بأربعة شهود .

ولعظم جريمة الزنا وعظم عقوبتها جعل الله إثبات إتيانها بأربعة شهود، حتى لا يكون الادعاء أمراً سهلاً على من يدعيه.

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ والمراد حبس الزانية في البيت إلى أن يدركها الموت حتى لا يكون خروجها

من البيت والتعرض للرجال سبباً لمعاودة الزنا، وكان هذا الحبس أول عقوبة الزانية في ابتداء الإسلام إلى أن نسخ الله هذا الحكم بما هو أشد في العقوبة. ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي: يُنْكَحْنَ وقيل: السبيل هو الحد الذي يقام عليهن.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ المراد أن الذين يأتيان فاحشة الزنا فآذوهما، وذلك بتوبيخهما وتعنيفهما بالسب ونحوه ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ أي: أقلعا عن هذه الفاحشة ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ أي: اتركوا توبيخهما. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي: يتوب على التائبين من عباده ويرحمهم بواسع رحمته.

أحكام ومسائل الآيتين:

تثبت جريمة الزنا بأربعة شهود عدول. وهذا الحكم كما هو في القرآن ثابت في التوراة والإنجيل، وقد رجم رسول الله ﷺ زانياً وزانية يهوديين لما أقر عالم من علمائهم أن هذه العقوبة منصوص عليها في التوراة(١)، والحكمة في جعل الشهود في هذه الجريمة أربعة شهود ابتغاء الستر لعباد الله ما أمكن ذلك.

وقد كانت العقوبة في أول الإسلام الإمساك في البيوت. ولما كثر الزناة وضع لهم سجن لإمساكهم ثم أنزل الله بعد ذلك الحد في قوله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب رجم اليهود, أهل الذمة في الزنى، برقم (١٦٩٩)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٦ ص١٨٨ .

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖ ﴾[١]. فتحصَّل من ذلك أن المحصن يرجم، والبكر يجلد ويغرب الرجل ولا تغرب المرأة، وخالف في ذلك الإمام أبو حنيفة. ولا يجمع على المحصن الجلد والرجم لأن من رجمه رسول الله ﷺ لم يجلده لكون الرجم والجلد عقوبتين فيكتفى بواحدة[٢]. ومن أحكام الآيتين وجوب التوبة بشروطها من فاحشة الزنا كما سيأتي.

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ توبة العبد من ذنوبه واجبة عليه لأن الله أمره بذلك في قوله تعالى ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٣]. والتوبة في صالح التائب وليس لله منها إلا

(١) سورة النور من الآية ٢ .

(٢) الاختيار لتعليل المختار للموصلي الحنفي ج٤ ص٨٦ .

(٣) سورة النور من الآية ٣١ .

حبه أن يتوب عباده عن معصيته حتى يتوب عليهم ويرحمهم ولا يعذبهم كما قال عز وجل ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾[١]. وقوله ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾[٢]. وقد وعد عز وجل عباده أن يقبل توبتهم في قوله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[٣]. وقبول الله توبة عبده يدخل تحت مشيئته، ولكنه وعد بذلك وإذا وعد فلا يخلف الميعاد.

وللتوبة شروط لا تصح إلا بها وهي: أولاً- ندم العبد على مافعل بمعنى أنه يتمنى من قلبه أنه لم يفعل ما فعله من الذنب والخطيئة. ثانياً- الإقلاع عن المعصية التي تاب منها بمعنى التحلل منها بالكلية. ثالثاً- العزم على عدم العودة لمثل هذه المعصية خائفاً بذلك من الله فإن اختل شرط من هذه الشروط لم تصح توبته.

﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ المراد هو العبد يفعل المعصية وهو جاهل بما يؤدي إليه فعله من العقاب ولو كان يفعل هذا الفعل وهو عالم بتحريمه فالجهالة هنا جهالة العاصي بتقديمه لذته وشهواته غير مكترث بخطئه. ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ أي: يتوبون قبل حلول الأجل والأصل فيه قول رسول الله ﷺ: (**إن الله يقبل توبة العبد**

---

(١) سورة التوبة من الآية ١٠٤ .

(٢) سورة طه من الآية ٨٢ .

(٣) سورة الشورى من الآية ٢٥ .

مالم يغرغر)[١]. والأصح أن يبادر المذنب بالتوبة وهو في فسحة من أجله لأنه لا يدري متى يعاجله الأجل. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ أي: أنه يتوب على هؤلاء الذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من قريب أما من عداهم فلا تقبل توبته. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بأحوال عباده وحكيم في تدبيره وتصرفه فيهم.

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ نفي لتوبة الذين يرتكبون المعاصي فلا يتوبون إلا إذا حضر أحدهم الموت أي: واجه حالة الاحتضار فيقول عندئذٍ ﴿إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ فهذا ليس له توبة لأنه أخل بشروطها. ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾ أي: لا توبة كذلك للذين يموتون وهم كفار؛ لأنه بموتهم انتفى تكليفهم فليس لهم بعد الممات من عمل سوى الكفر. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو العذاب الشديد.

أحكام ومسائل الآيتين:

وجوب التوبة على المذنب بشروطها الثلاثة وهي: الندم على المعصية، وتركها، والعزم على عدم العودة إليها. ولا تسقط التوبة حدود الله الخاصة بالعباد؛ فمن قتل أو سرق أو قذف أو زنى وثبت عليه فعله أقيم عليه الحد .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده برقم (٣٥٣٧)، سنن الترمذي ج٥ ص٥١١، وأحمد في مسنده ج٢ ص١٣٢ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩﴾.

بيان الآية:

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ سبب نزول هذه الآية أن الرجل في الجاهلية إذا توفي أصبح أولياؤه أحق بزوجته إن أراد بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها غيره، وإن شاؤوا لم يزوجوها[1] فهي بهذا كالسلعة يتصرف فيها صاحبها كيف شاء فحرم الله ذلك عليهم. ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ﴾ والمراد بالفاحشة نشوز المرأة وبغضها للرجل فإذا بدر ذلك منها حق لزوجها مخالعتها بحيث ترد له ماله الذي أعطاه لها.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ أي: بالأخلاق الحسنة، والمعاملة الطيبة. ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ أي: لعدم جمالهن أو سوء خلق من غير ارتكاب فاحشة أو نشوز. ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٨٠، والأثر أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ برقم (٤٥٧٩)، ج٨ ص٩٣.

﴿فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: لعل كرهكم لهن يكون فيه خير كثير لكم كالأولاد الصالحين ولهذا قال رسول الله ﷺ: **(لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر)**(١).

أحكام ومسائل الآية:

تقرير بطلان عمل الجاهلية بأن يكون لأولياء الزوج المتوفى التصرف في زوجته؛ فأصبحت بحكم الإسلام حرة طليقة تذهب إلى بيت أهلها بعد أن تعتد في بيت زوجها. تحريم عضل الزوجة إذا كرهها زوجها فضايقها لتفتدي منه نفسها على ألا يكون منها إضرار به كالنشوز أو سوء العشرة أو إتيان الفاحشة.

ومن الأحكام في الآية: وجوب معاشرة الزوجة بالمعروف وهو ما قرره الشرع أو جرت به العادة بين الأزواج وزوجاتهم؛ هذا مع الأمر بالصبر عليهن وكراهة طلاقهن لما قد يكون في هذا الصبر من الخير والولد الصالح .

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، برقم (١٤٦٩)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٥ ص١٨٠ .

بيان الآيتين:

المراد أنه إذا أراد أحد منكم أيها الأزواج مفارقة زوجته لكي يتزوج أخرى، فلا يحل له أن يسترد بعض ما آتاها من المهر أو غيره سواء كان هذا قليلاً أو كثيراً. ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: أنكم بأخذكم له قد ظلمتم زوجاتكم بهذا فيكون عليكم إثم عظيم.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ استفهام استنكاري. ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: كيف تأخذون صداقكم من زوجاتكم وقد أفضين إليكم وأفضيتم إليهن بالجماع وعرف كل منكم عورة الآخر، وأصبح بينكم عشرة واجتماع. ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عقد الزوجية بما فيه من وجوب مراعاة أحكام الزواج، وحسن العشرة، ومراعاة تقوى الله فيه.

أحكام ومسائل الآيتين:

لقد أباح الله للرجل أن يطلق امرأته، ويتزوج أخرى. ولكنه حرم عليه ظلم زوجته فلا يحل له أن يسترد بعض أو كل ما أعطاها من مهر أو هبات ونحوها؛ لأن ذلك صار من حقها الذي يحرم التعدي عليه. ومن هذه الأحكام: جواز كثرة الصداق بدليل قوله ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾. ولما خطب عمر في الناس وقال:

ألا تغالوا في صدقات النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية - لما قال هذا قامت امرأة وقالت: يا عمر يعطينا الله وتحرمنا أنت أليس الله سبحانه يقول ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾. فقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر[1]. ومن الأحكام: أن الزوج إذا طلق زوجته من غير فاحشة منها أو نشوز أو سوء عشرة لم يحل له أن يسترد بعض أو كل ما أعطاه لها من مهر أو غيره؛ فما يأخذه من زوجته من غير هذه الأسباب يعد بهتاناً وظلماً لها وعليه عاقبة إثمه. وعلى الزوج في كل الأحوال مراعاة عقد الزوجية لعظمه وما يجب فيه من مراعاة تقوى الله.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب النكاح، باب القسط في الأصدقة بدون ذكر قول «أصابت امرأة وأخطأ عمر»، ج٦ ص١١٧، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٩٩، وقال أخرجه أبو حاتم في صحيح مسنده عن أبي العصفاء السلمي وأخرجه الترمذي في كتاب النكاح، باب ما جاء في مهر النساء، برقم (١١١٤)، الترمذي ج٣ ص٤٢٢، وأبو داود في كتاب النكاح، باب الصداق برقم (٢١٠٦)، أبو داود ج٢ ص١٩٩، وابن ماجة في كتاب النكاح، باب صداق النساء برقم (١٨٨٧)، ابن ماجة ج١ ص٦٠٧، والدارمي في كتاب النكاح، باب كم كانت مهور أزواج النبي ﷺ وبناته ؟ الدارمي ج١ ص١٨٩، وأحمد في مسنده ج١ ص٤١، كلهم بدون ذكر قول «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ سبب نزول هذه الآية أن العرب في جاهليتهم كان الواحد منهم يتزوج زوجة أبيه إذا طلقها أو مات عنها، وكان هذا مباحاً في قريش مع التراضي، كما كان مباحاً أو لازماً في الأنصار. فلما توفي أبو قيس الأنصاري خطب ابنه قيس امرأته فقالت له: إني أعدُّكَ لي ولداً، فأتت رسول الله ﷺ فأخبرته فأنزل الله هذه الآية. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ المراد إلا ما مضى أي: قد انتهى ولكن لا تعودوا إلى مثله.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: إن هذا الفعل الذي كان مباحاً أو سائداً عندكم بعد الجاهلية يعد فاحشة وممقوتاً، وهو مبالغة في الذم لهذا الفعل القبيح. وقيل: إن العرب

إذا تزوج الواحد منهم امرأة أبيه وولدت له ولداً قيل له: (المقتي) أي أنه مقيت.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ لقد حرم الله من جهة النسب تحريماً قاطعاً نكاح الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت وهذا مغاير -والحمد لله- لما يحدث في المجتمعات البدائية أو المجتمعات التي ارتضت لنفسها قوانين وعادات لم ينزل الله بها من سلطان.

كما حرم الله من جهة الرضاع الأم، والأخت. فمن رضع من امرأة خمس رضعات وهو في سن الرضاع حرمت عليه كما حرمت عليه أمها، وجدتها، وبناتها، وأخواتها، وبنات زوجها، وأخواته، وأمهاته لقول رسول الله ﷺ: **(يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)**[1]. فإن كان الرضاع خارجاً عن الحولين لم يحرم لقول الله تعالى ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾[2].

كما حرم الله في الآية من جهة المصاهرة أم الزوجة إذا عقد الزوج على ابنتها. كما حرم الربيبة وهي بنت الزوجة؛ فإذا تزوج الرجل امرأة أي: دخل بها فلا يحل له أن ينكح ابنتها؛ فإن عقد على الأم ولم يدخل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض.. برقم (٢٦٤٥)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٥ ص٣٠٠ .

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٣٣ .

بها حلت له البنت لقوله تعالى ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. ويدخل في حكم التحريم بالمصاهرة امرأة الابن لقوله تعالى ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾. كما تحرم زوجة الابن من الرضاع لأن حكمه في ذلك حكم الابن من الصلب. ويدخل أيضاً في حكم التحريم بالمصاهرة: أخت الزوجة فلا يحل للزوج أن يجمع بين أختين لقول الله جل ذكره ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. فإن طلق زوجته أو توفيت حل له الزواج من أختها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: يغفر ما سبق من الجمع بين الأختين قبل تحريمه.

أحكام ومسائل الآيتين:

تحريم الله على الابن أن يتزوج زوجة أبيه إذا طلقها أو مات عنها، وفي هذا التحريم تكريم للأب أن يطأ ولده زوجته. وهذا الزواج يعد ممقوتاً ومن أكبر الفواحش. ومن الأحكام: أن المحرمات في النسب هي: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.

وأما المحرمات في النكاح من الرضاع فهي: الأم المرضعة للولد، وبناتها، وأخواتها، وعماته، وخالاته، وبنات أخيه، وبنات أخته.

وأما المحرمات في النكاح من المصاهرة فهي: زوجة الأب دخل بها أم لم يدخل، وأم الزوجة، وبنت زوجته (الربيبة)، وزوجة ولده من صلبه دخل بها أم لم يدخل، وزوجة ابنه من الرضاع، وأخت زوجته ما دامت في عصمته.

ومن الأحكام في الآية: أن المحرم من الرضاع ما كان أثناء الحولين، وأنه لابد من خمس رضعات لقول رسول الله ﷺ: (**لا تحرم المصة ولا المصتان ولا الإملاجة ولا الإملاجتان**) أي: المصتان[1]. وقوله عليه الصلاة والسلام: (**لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء من الثدي وكان قبل الفطام**)[2].

ومن الأحكام: أن المراد من الدخول في الآية الجماع وقد يدخل في حكمه اللمس لما فيه من الاستمتاع.

﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الرضاع، باب في المصة والمصتان، برقم (١٤٥٠-١٤٥١)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٥ ص١٣٠ - ١٣٢ .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الرضاع برقم (١١٥٢)، سنن الترمذي ج٣ ص٤٥٨ .

بيان الآية:

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ لما ذكر الله المحرمات من النساء بالنسب، والرضاع، والمصاهرة حرم المحصنات من النساء والمراد بهن المتزوجات فهؤلاء محرمات إلا إذا طلقن أو مات عنهن أزواجهن. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ المراد بهذا المملوكات عن طريق السبي في الجهاد فهؤلاء يحل نكاحهن، ولو كن ذات أزواج ولكن بعد استبراء أرحامهن. وقد نزلت هذه الآية في سبايا أوطاس ففي حديث أبي سعيد الخدري قال: أصبنا نساء من سبي أوطاس ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج فسألنا رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية فاستحللنا بهن فروجهن. ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: أن هذه المحرمات من النساء بسبب النسب أو الرضاع أو المصاهرة أو السبي حرمت بكتاب الله أي: بحكمه وقضائه. ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: أن ما عدا هذه المحرمات فنكاحهن لكم حلال.

﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ أي: أن لكم الحق أن تتزوجوا أربع زوجات وتنكحوا سراريكم، والمهم أن تكونوا محصنين أي: أن يكون نكاحكم مشروعاً. ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أن من الواجب عليكم أن تدفعوا لمن

تزوجتموهن أجورهن وهو هنا المهر لأنه مقابل الانتفاع بالبضع. ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: أن هذا مفروض لهن.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ المراد لا إثم عليكم في زيادة المهر أو نقصانه أو هبته إذا كان هذا نتيجة تراضٍ بينكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بما تفعلون حكيم في قضائه.

أحكام ومسائل الآية:

تحريم تزوج المرأة المتزوجة تحريماً قاطعاً؛ فلا تحل إلا بعد طلاق بائن أو موت زوجها. وجوب المهر للزوجة لأن الله حرم استباحة بضعها إلا ببدل، وهذا البدل قد يكون قليلاً أو كثيراً مع أن أقله أبركه. ويجوز للمرأة أن تهبه لزوجها بعد دفعه لها وقد تتنازل عنه عند العقد. ومن الأحكام في الآية: أن تكون المرأة محصنة فلا يحل نكاح الزانية.

ومن الأحكام فيها: عدم جواز إطلاق قوله تعالى ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على حل نكاح المتعة لأن رسول الله ﷺ نهى عن هذا النكاح وحرمه، وشاهده قوله جل ذكره ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾. والنكاح الصحيح هو ما كان بولي وشاهدين خلافاً لنكاح المتعة. واستدل الجمهور على هذا التحريم بأن المتعة كانت

جائزة في أول الإسلام ثم نسخت لحديث سبرة بن معبد الجهني عن أبيه أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال: (**يا أيها الناس إني أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وأن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً**)[١]. وذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنها لم تنسخ[٢] وقد رجع عن ذلك عند موته وقال: اللهم إني أتوب إليك من قولي في المتعة[٣].

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب النكاح، باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ ثم أبيح ثم نسخ واستقر تحريمه إلى يوم القيامة، برقم (١٤٠٥)، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٥ ص٢٩ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب نهي رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة أخيرا، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٩ ص٧١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص١٣٢-١٣٣، وفتح الباري ج٩ ص٦٧ .

بيان الآية:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ المراد أن من لم يقدر منكم على زواج الحرائر لعدم سعته في المال فله أن يتزوج الأمة المملوكة على أن تكون مؤمنة. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ وفي هذا توكيد أنّ الأساس هو الدين كما قال تعالى ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾(١).

﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: بواسطة أوليائهن المالكين لهن لأن المملوك لا أمر له. ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن فكما أن المهر للحرة فرض فهو للأمة كذلك. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: إن استحقاقهن للمهر بموجب شرع الله. ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ أي: عفيفات غير زانيات. ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: أخلاء. ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: أن عقوبة الأمة في حال جنايتها نصف جناية الحرة؛ فإذا كانت الحرة تجلد مثلاً مائة جلدة فإن الأمة تجلد خمسين جلدة أما الرجم فعليهن مثل ما على الحرائر لأنه لا يتبعض. ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ المراد أنه يجوز لكم

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٢١ .

زواج الإماء إذا خشيتم الوقوع في الزنى بسبب عدم قدرتكم على نكاح الحرائر. ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: أن تصبروا على عدم الزواج خير لكم من نكاح الإماء لأن الزواج منها يجعل أولادها أرقاء. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر لعباده زلاتهم وخطيائتهم رحيم بهم في حياتهم ومماتهم.

أحكام ومسائل الآية:

قلت: هذه المسألة مما قد تثير السؤال عن الرق ولماذا وما هي أسبابه؟ والجواب عليه من وجوه، **أولها:** أن الأصل في عباد الله الحرية، وليس الرق فقد خلق الله عبيده متساوين في حريتهم، وكرامتهم، وأصولهم. ومعيار التفاضل بينهم ينحصر في التقوى فحسب، والأصل في ذلك الكتاب في قول الله عز وجل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]. أما في السنة فقول رسول الله ﷺ: **(لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى)**[2].

الوجه الثاني: أن الرق قائم في سلوك الإنسان منذ أزله وهو على قسمين: الأول- استرقاق القوي للضعيف خاصة في المجتمعات التي تقوم في كيانها ونظمها على المعيار المادي المجرد من التوجيه والتنظيم الإلَهي. وهذا لا يزال في هذا العصر رغم القوانين الدولية التي صدرت

(١) سورة الحجرات من الآية ١٣ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ج٥ ص٤١١، والهيثمي في مجمع الزوائد ج٨ ص٨٤ .

بإلغاء الرق؛ رغم هذا فإن الرق يتخذ صفات مختلفة ليست بالضرورة مثل صفات الرق السابقة. القسم الثاني- الاسترقاق في الحرب وهذا فرع من القسم الأول؛ ذلك أن نتائج الحرب تكون لطرف دون آخر فالطرف المنتصر يسترق ما يقدر عليه من الطرف المنهزم.

الوجه الثالث: أن الرق في الإسلام له صفتان: الصفة الأولى- جوازه في حالة الجهاد وهذه الحالة تختلف عن حالة الحرب القائمة على الطغيان. ومعيار القوة؛ فالجهاد دعوة لعباد الله إلى الدين لصالحهم. والاسترقاق في الجهاد لا يميز بين جنس وجنس، أو لون ولون؛ فالعربي إذا تعرض للسبي جاز استرقاقه وقد استرق رسول الله ﷺ من هوازن وبني المصطلق واشترت عائشة رقبة من أسرى بني تميم وهؤلاء قبائل عربية قال الإمام ابن حجر: والأفضل عتق من يسترق منهم وفي هذا قال عمر رضي الله عنه: من العار أن يملك الرجل ابن عمه أو بنت عمه[١].

وقد حظرت شريعة الله استرقاق الحر وفي هذا قال رسول الله ﷺ: (**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حراً فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره**)[٢]. كما حرمت شريعة الله ابتداء استرقاق المسلم والجواز

---

(١) البخاري، الفتح ٥/ ١٧٠، ٥/ ١٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب إثم من باع حراً برقم (٢٢٢٧)، صحيح البخاري مع الفتح ج٤ ص٤٨٧.

منحصر في غيره جزاء له عن استنكافه عن عبودية الله تعالى فجازاه بأن جعله عبد عبيده[١]. وقد عرفه الفقهاء بأنه عجز حكمي يقوم بالإنسان سببه الكفر[٢].

قلت: وإذا أسلم هذا ينبغي إبطال رقه لكونه كان مترتباً على عدم إسلامه. فبإسلامه تزول علة رقه، وشاهد هذا أن القرآن لم يتضمن حكماً عن الاسترقاق في حالة الحرب وهي المصدر الأساسي للرق وفي هذا قال الله عز وجل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[٣].

الصفة الثانية- تنظيم الإسلام لحالة الرق التي كانت قائمة في الجاهلية ومنها: حالة الإماء اللاتي كن يعتبرن أقل درجة من الحرائر، لقد شهدت الجاهلية أنواعاً شتى من الانحطاط الخلقي، فكان سادة القبائل ورؤساءها يسترقون الفتيات بسبب الحرب أو الغزو، ولم يكن لهؤلاء الفتيات المسترقات حول ولا طول فيما يصنع بهن من الجبر والإكراه ونتيجة لهذا الواقع المشين وجدت فتيات فقدن معنى الأنوثة والكرامة فليس لهن أسر يعتمدن عليها

---

(١) هامش فتح القدير، ٤/٣١٦ .

(٢) العذب الفائض ١/٢٣ .

(٣) سورة محمد من الآية ٤ .

في دفع غوائل الإكراه عنهن وليس لهن ملجأ يلجأن إليه غير من صيرهن رقيقات.

ولما جاء الإسلام ووجد هذا الواقع بكل آلامه وتبعاته نظمه بما يكفل لهؤلاء الفتيات كرامتهن الإنسانية بالقدر الذي يتفق مع وضعهن دون إغفال لواقع الحياة آنذاك، ونظرة الناس إليهن؛ فأباح الزواج منهن لمن لم يقدر على الزواج من الحرائر إلا أنه ساوى بينهن، وبين الحرائر في شروط الزواج وهي: أن يكن مؤمنات كما قال عزوجل ﴿مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾. وأن يعطين أجورهن كما قال عز وجل ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: حق لهن وليس لسادتهن. وأن يكون الاستمتاع بهن في صورة نكاح وليس في صورة نكاح متعة أو سفاح أو مخادنة كما قال الله عز وجل ﴿مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾.

من هنا يتبين أن الله جل ذكره جعل شروط نكاحهن مساوية لشروط نكاح الحرائر، ولم ينفردن عنهن إلا بالقدر الذي لا يغفل وضعهن ووضع الحياة التي جاء الإسلام ينظمها ويرتفع بها من درجة الانحطاط الخلقي إلى درجة العلو والسمو الذي يليق بإنسانية الإنسان، وما أراد الله له من الكرامة.

الوجه الرابع: نفي التفاضل بين الحرائر والإماء من حيث الشرف

والأصل في ذلك قول الله جل ذكره ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: أنكم بنو آدم فهو مرجعكم في أصلكم وقيل: الأصل إيمانكم وأساسه قول الله جل ذكره ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾[1]. قال الإمام ابن العربي: وفي هذا دليل على التسوية بين الحر، والعبد في الشرف ورد على العرب التي كانت تسمي ولد الأمة هجيناً تعييراً له بنقصان مرتبة أمه وهذا أمر أدخلته اليمنية على المضرية من حيث لم تشعر بجهل العرب وغفلتها، فإن إسماعيل ابن أمة فلو كانت على بصيرة ما قبلت هذا التعيير وإليها يرجع[2].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: يوضح لكم فيما سبق من الآيات ما أحله لكم من النساء وما حرمه عليكم منهن. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: يرشدكم إلى معرفة ما كان عليه من

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٢١ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي، ج١ ص٣٩٦ .

قبلكم من الأمم ممن اتبعوا الحق الذي جاء به أنبياؤهم وممن اتبعوا أهواءهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ إذا تبتم إليه من الآثام والخطايا. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بأفعالكم حكيم بما يقدره ويقضي به.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أنه جل ذكره يحب أن تتوبوا إليه مما ترتكبونه من الأخطاء فيتجاوز عنها. ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي: إن الكفار ومن في حكمهم يريدون أن تعرضوا عن شرع الله، وهذا أعظم ميل وأشنع ذنب. وقيل: إن المراد بأهل الشهوات اليهود وقيل: المجوس الذين يحلون نكاح الأخت من الأب وبنت الأخ وبنت الأخت فلما حرمهن الله قالوا إنكم تحلون نكاح بنت العمة والخالة مع أن العمة والخالة محرمات عليكم فانكحوا بنت الأخت وبنت الأخ وهذا زنا حرمه الله تحريماً قاطعاً فيريد هؤلاء أن يكون المسلمون مثلهم.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أي: أنه رحيم بكم فهو لا يريد أن يكلفكم ما لا تطيقون من الشرائع والأوامر ولهذا أباح لكم نكاح الإماء. ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ قيل: إن المراد بضعفه ضعفه أمام النساء وشاهد هذا قول رسول الله ﷺ: (**ما تركت على أمتي فتنة أضر من النساء**)[١].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، برقم (٥٠٩٦)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٩ ص٤١.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير فضل الله على أمة محمد ﷺ حيث بيَّن لها ما كان عليه أهل الجاهلية من الانحراف في سلوكهم في مسائل النساء. تقرير لطفه عزوجل بعباده في دعوته لهم للتوبة من المحرمات بينما أهل الضلال يريدون منهم الانغماس فيها. ومن الأحكام: تقرير ضعف الإنسان أمام الشهوات إلا أن أهل التقوى يتغلبون عليها بفضل إيمانهم، وتعلقهم بالله والخوف من عقابه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ نادى الله المؤمنين ومناداته أمر؛ ألا يأكل بعضهم مال بعض عن طريق الغصب، أو السرقة، أو الغش، أو الربا، أو القمار، أو التحايل، وكل ما كان بغير حق. ولما نزلت هذه الآية تحرج المسلمون وقالوا إن الله نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أهم شيء فلا يحل إذاً لأحد منا أن يأكل عند أحد فرفع الله الحرج بقول عز وجل ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ ﴾

إلى قوله ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿صَدِيقِكُمْ﴾[١].

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ المراد هو تحريم أكل الأموال بغير حق. أما ما يكون بوجه حق فمأمور به ومنه أسباب التجارة لكونها تكون عن تراضٍ بين أصحابها أخذاً وعطاء أساسه الرضى بالمعاوضة الجائزة شرعاً. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ المراد في سياق الآية ألا تقتلوا أنفسكم بارتكاب ما حرم الله عليكم من أكل مال بعضكم بغير حق. ويشمل الحكم في الآية كل ما يؤدي إلى ضرر النفس، وقد فهم ذلك عمرو بن العاص فلما احتلم وهو في غزوة ذات السلاسل وخشي من الغسل بالماء البارد تيمم قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال: (**يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب**) قال: قلت يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فاشفقت إن اغتسلت أن أهلك فذكرت قول الله عز وجل ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فتيممت ثم صليت فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً[٢].

---

(١) سورة النور من الآية ٦١ .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم برقم (٣٣٤)، سنن أبي داود ج١ ص١٤٠، وأحمد في المسند ج٤ ص٢٠٣، والبخاري معلقاً ومختصراً في كتاب التيمم، باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت، فتح الباري ج١ ص٥٤١.

﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى النهي الوارد في الآية السابقة وهو تحريم أكل المال بالباطل وتحريم قتل النفس. ﴿عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ ﴾ أي: أن من يأكل أموال غيره بغير حق ويقتل الأنفس معتدياً ظالماً فسوف يصلى بالنار. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أي: سهلاً وهيناً.

أحكام ومسائل الآيتين:

تحريم أكل مال المسلم وغيره بغير حق ومن ذلك: الغصب، والربا، والقمار، وسائر أنواع التحايل. ومن ذلك أيضاً بيع العربان وهو أخذ المشتري السلعة من البائع ويعطيه درهماً على أنه إن اشتراها أكمل الثمن وإن لم يشترها فالدرهم للبائع لما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع العربان[1]. ومن الأحكام: إباحة التعاطي بالتجارة، وحل الربح الذي يكتسبه البائع من بيع سلعته وهذا الربح ينبغي أن يكون معقولاً. فإن كان كبيراً يؤدي إلى غبن المشتري فله رده لأنه يدخل في حكم أكل المال بالباطل. ومن الأحكام في الآية: وجوب التراضي عند عقد التجارة وقبل الافتراق من المجلس لما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب البيوع، باب في العربان برقم (٣٥٠٢)، سنن أبي داود ج٣ ص٢٦٦، وابن ماجة في كتاب التجارات، باب بيع العربان برقم (٢١٩٢)، سنن ابن ماجة ج٢ ص٧٣٨، ومالك في الموطأ في كتاب البيوع باب ما جاء في بيع العربان، موطأ مالك بشرح الزرقاني ج٣ ص٣٢٣.

قال: **(البيِّعان بالخيار مالم يتفرقا)**[١].

ومن الأحكام أيضاً: تحريم قتل النفس سواء قتل الإنسان نفسه، أو قتل غيره. فإن كان القتل عن عمد فإن مصير القاتل النار، والأصل في قتل الإنسان غيره قول الله جل ذكره ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[٢]. والأصل في تحريم قتل الإنسان نفسه قول رسول الله ﷺ: **(من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً)** الحديث[٣].

وإن كان القتل عن خطأ فلا يدخل في حكم عقوبة العامد.

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾.

بيان الآية:

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي: إن تبتعدوا عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع برقم (٢٠٧٩ - ٢١٠٧)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٤ ص٣٦٢-٣٨٢ .

(٢) سورة النساء الآية ٩٣ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وما يخاف منه والخبث, برقم (٥٧٧٨)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٠ ص٢٥٨ .

كبائر الذنوب، ومنها: الشرك بالله والقتل والزنا والسحر والقذف والفرار من الزحف وأكل أموال اليتامى وغير ذلك من الأفعال التي حرمها الله فسوف ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: سنتجاوز ونعفو عن صغائر الذنوب.

وندخلكم الجنة وهو المراد بقوله عز وجل ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾. والمكفرات للذنوب الصغيرة كثيرة منها: ما رواه سلمان الفارسي قال: قال لي رسول الله ﷺ: (**أتدرون ما الجمعة؟**) قلت: الله ورسوله أعلم ثم قال: (**أتدرون ما الجمعة؟**) قلت في الثالثة أو الرابعة هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم قال: (**لكن أخبرك عن الجمعة ما من أحد يتطهر فيحسن طهوره ثم يأتي يوم الجمعة فينصت حتى يقضي الإمام صلاته إلا كان كفارة له ما بينه وبين الجمعة المقبلة ما اجتنب المقتلة**)(١).

أحكام ومسائل الآية:

وجوب اجتناب كبائر الذنوب وتقرير وعد الله لمن يفعل ذلك بتكفير خطيئاته. ووجوب اجتناب كبائر الذنوب لا يعني التهاون في صغائرها، فإن العبد إذا تهاون فيها صار قاب قوسين من كبائرها.

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ج١ ص٣٦٨ .

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت في أم سلمة حيث قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ولنا نصف الميراث فأنزل الله هذه الآية[1]. والمراد أن عليكم أيها المؤمنون ألا تتمنوا ما لبعضكم من فضل على بعض، فهذا من حكم الله ولكل حظه ونصيبه مما اكتسب من العمل من الرجال والنساء وتمنيكم لن يغني شيئاً فاكتفوا بذلك؛ وعليكم أن تسألوا الله من فضله أن يوفقكم للعمل الصالح الذي سوف تجزون عليه بما هو أفضل من الدنيا. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: عليم بما قدره وقضى به.

أحكام ومسائل الآية:

النهي عن تمني ما عند الغير لما قد يؤول إليه من رغبة النفس وتمنيها أن يكون لها الفضل الذي عند الغير، وهو بهذا المعنى الحسد المحرم. أما إذا كان التمني بأن يكون له (مثل) هذا الفضل الذي عند

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ص٢٧٧، وتفسير البغوي ص٢٩٤، والدر المنثور ج٢ ص٢٦٦.

الغير فغير منهي عنه لأنه غبطة، وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلط على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)**[١].

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

بيان الآية:

سبب نزول هذه الآية أن المهاجرين لما قدموا المدينة كان المهاجر يرث الأنصاري دون ذوي رحمه، وذلك للأخوة التي آخى بها رسول الله ﷺ بينهم. فلما نزلت هذه الآية نسخت ما كان معمولاً به[٢].

قوله ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ أي: ورثة يرثونه بعد وفاته سواء من الرجال أو النساء من أقاربه وما عداهم من الموالي بحكم الأخوة -كحال المهاجرين مع الأنصار- أو بحكم الحلف فيعطى لهم ما يستحقونه باسم الوصية أو نحوها لأنه لا نصيب لهم في الإرث

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب الاعتباط في العلم والحكمة برقم (٧٣)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١ ص١٩٩ .

(٢) زاد المسير في علم التفسير ص٢٧٨، والبخاري في كتاب التفسير، باب ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ برقم (٤٥٨٠)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص٩٦ .

لكونهم ليسوا من أقرباء المورث. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: يشهد على ما يفعله عباده فعليهم اتباع ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه.

أحكام ومسائل الآية:

الحكم أن القرابة من الرجال والنساء أساس التوارث في الإسلام. أما من أراد أن يساعد حليفه، أو من آخاه، أو صديقه فله أن يوصي له بما دون الثلث. ومن أحكامها: تقرير أنّ الله رقيب وشهيد على عباده فيما يفعلون.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ نزلت هذه الآية في سعد بن الربيع

حين نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن خارجة بن أبي زهير فلطمها فشكا أبوها إلى رسول الله ﷺ وقال: أفرشته كريمتي فلطمها فقال رسول الله: (**القصاص**) فانصرفت مع أبيها لتقتص من زوجها فقال رسول الله ﷺ: (**ارجعوا هذا جبريل أتاني**) فأنزل الله هذه الآية فقال: (**أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خير**)[1].

ومعنى ﴿قَوَّامُونَ﴾ أي: بما ينفقونه على أزواجهم. ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: أن الله فضل الرجال على النساء، وهذا التفضيل في الخصائص التي تكون عادة في الرجال، وليس في النساء كالقوة في الجسم وحسن التدبير وتحمل المصاعب. ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ وهذا من أسباب التفضيل إذ إن على الرجال النفقة على أزواجهم وكفالة معاشهن وما يحتجن إليه من وسائل الحياة. ومتى عجز الرجال عن هذا سقطت قوامتهم عليهن، وكان لهن فسخ العقد لأن الغنم بالغرم.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: مؤمنات صالحات في أنفسهن يحفظن حق الزوجية في حضور الزوج وغيبته، وذلك بحفظ الله لهم وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك وإذا**

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٨٦، وزاد المسير في علم التفسير ص٢٧٩، ومعالم التنزيل للبغوي ص٢٩٥ .

أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك) ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية[١].

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ المراد أنكم إذا خفتم نشوزهن أي: عصيانهن لكم فعظوهن أي: ذكِّروهن بما أوجب الله عليهن من طاعة أزواجهن ومعاشرتهم بالمعروف. ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: أنكم إذا وعظتموهن ولم يتعظن فاهجروهن بما يقتضي عدم مضاجعتهن في الفراش. ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ وهو الحل الأخير لما فيه من الأدب لهن. والضرب المراد هو للأدب وليس للانتقام الذي يؤدي إلى أذى للزوجة. ولما سئل ابن عباس عن الضرب غير المبرح قال: بالسواك ونحوه، وكما أوجب الله للأزواج حقوقاً على زوجاتهم أوجب على الرجال حقوقاً متقابلة، وقد جاء ذلك على لسان رسول الله ﷺ حيث قال في حجة الوداع: **(ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم ليس تملكون منها شيئاً غير ذلك..)**[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب حقوق المال برقم (١٦٦٤)، بلفظ: «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرؤ؟ المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته»، سنن أبي داود ج٢ ص٤٨، وابن ماجة في كتاب النكاح، باب أفضل النساء برقم (١٨٥١)، بلفظ قريب لأبي داود، سنن ابن ماجة ج١ ص٥٩٦ .

(٢) أخرجه ابن ماجة في كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج برقم (١٨٥١)، سنن ابن ماجة ج١ ص٥٩٤، والترمذي في كتاب الرضاع، باب ما جاء في حقّ المرأة على زوجها، برقم (١١٦٣)، سنن الترمذي ج٣ ص٤٦٧، والبخاري في كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء برقم (٥١٨٦)، صحيح البخاري مع الفتح ج٩ ص١٦١ .

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: إذا تركوا عصيانكم فلا تظلموهن. وقيل: لا تكلفوهن حبكم فإنه ليس إليهن. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ المراد إذا كنتم تقدرون على ظلم زوجاتكم، وعدم معاشرتهم بالمعروف فاذكروا أن الله فوقكم وقدرته أكبر من قدرتكم عليهن فاخشوا سخطه.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ المخاطب هنا هم الحكام، والمعنى أن الشقاق والتنافر إذا وقع بين الزوجين وجب عليكم بعث رجل صالح من أهل الزوج، ورجل صالح من أهل الزوجة للنظر في أيهما المخطئ، وأيهما المصيب فيقررا ما يريانه أصلح لحال الزوجين من صلح، أو تفريق. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أي: عليماً بأحوال عباده خبير بما يعملون، وما يجول في نفوسهم فيؤلف بينهم، ويجمع قلوبهم.

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير قوامة الرجال على النساء، وأنها بالفضل، وليس بالجبر والقهر. تقرير حكم نشوز المرأة من زوجها وذلك بوعظها أولاً فإن لم تنته فيهجرها في الفراش والوطء فإن لم تنته فيضربها الزوج من باب الأدب ضرباً غير مبرح، وذلك كما قال ابن عباس بالسواك، فإن استغنى عنه فخير؛ ذلك أن رسول الله ﷺ استؤذن في الضرب قال:

(اضربوا ولن يضرب خياركم)[١].

ومن الأحكام: تقرير أن واجب الحاكم بعث حكمين من أهل الزوج وأهل الزوجة للصلح بينهما إذا لم تنته الزوجة عن نشوزها. ويجب أن يكون هذان الحكمان أمينين فيقرران ما يريانه صالحاً للزوجين من جمع أو تفريق. فإن وجدا أن حالهما تصلح للاستمرار وحسن العشرة باركا ذلك، وإن وجداهما غير ذلك فرّقا. وقد روي أن امرأة وزوجها جاءا إلى علي رضي الله عنه مع كل واحد منهما فئام من الناس فأخرج هؤلاء حكماً، وهؤلاء حكماً فقال علي للحكمين: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تفرقا فرقتما، وإن رأيتما أن تجمعا جمعتما فقال الزوج: أما الفرقة فلا فقال علي: كذب والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله لك أو عليك، فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعليّ[٢]. وإذا لم يكن للزوجين أهل بعث الحاكم من يختاره من الصالحين.

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا

---

(١) أخرجه الهندي في كنز العمال برقم (٤٤٩٤٧)، بلفظ «أضربوهن ولا يضربهن إلا شراركم»، وقال ذكره ابن سعد عن القاسم بن محمد مرسلاً، كنز العمال ج١٦ ص٣٧١، والبيهقي في السنن الكبرى في كتاب القسم والنشور، باب ما جاء في ضربها ج١١ ص١٥٦ .

(٢) الدر المنثور ج٢ ص٢٧٩، والأثر أخرجه البيهقي في السنن الكبرى في كتاب القسم والنشوز، باب الحكمين في الشقاق بين الزوجين برقم (١٥١٤٩)، ج١١ ص١٥٩ .

وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذا أمر يقتضي الوجوب على العباد أن يعبدوا الله وحده ويخلصوا في هذه العبادة لأنه المستحق لها وحده، ولا تكون هذه العبادة خالصة إلا بنفي الشرك عنها قال تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1]. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)**[2]. وليس الشرك في

---

(١) سورة الكهف الآية ١١٠.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، برقم (٢٩٨٥)، صحيح مسلم بشرح النووي، ج١١ ص٧٢٦١.

عبادة الوثن أو الصنم فحسب، بل كل ما داخل عمل العبد من رياء ونحوه أصبح هذا العمل في حكم الشرك، وفي هذا روى شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: (**أخوف ما أتخوف على أمتي الإشراك بالله أما أني لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية**)[1].

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: أحسنوا إليهم وبروا بهم لأن البر بهم من رضا الله، وعقوقهم من سخطه لقول رسول الله ﷺ: (**رضا الرب في رضا الوالدين وسخطه في سخط الوالدين**)[2]. ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: البر بذي القرابات من الأرحام وغيرهم. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وجوب البر بهم لفقدهم من يعولهم. ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أصحاب الحاجات ممن لا يقدرون على سد حاجاتهم الضرورية من الطعام والشراب والكساء. ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: قريب الجوار لكم. ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أي: الجار البعيد. ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي: الرفيق في السفر ونحوه من أنواع الصحبة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج٤ ص١٢٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج٣ ص٢٠١.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء من الفضل في رضا الوالدين، برقم (١٨٩٩)، سنن الترمذي ج٤ ص٢٧٤، بلفظ «رضى الرب في رضى الوالد وسخط الرب في سخط الوالد»، والهيثمي في مجمع الزوائد ج٨ ص١٣٦، والهندي في كنز العمال برقم (٤٥٥٥١)، ج١٦ ص٤٨٠، والمنذري في الترغيب والترهيب ج٣ ص٣٢٢.

وقد أكد الله حق الجوار وإكرامه؛ فقد روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**)[١]. وروى أبو شريح أن رسول الله ﷺ قال: (**والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن**) قيل: يا رسول الله من؟ قال: (**الذي لا يأمن جاره بوائقه**)[٢]. وقد بيَّن عليه الصلاة والسلام أنواع الجوار فقال: (**الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق وجار له حقان وجار له حق واحد فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق: فالجار المسلم القريب له حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام والجار الذي له حقان: فهو الجار المسلم فله حق الإسلام وحق الجوار والجار الذي له حق واحد: هو الكافر له حق الجوار**)[٣].

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو العابر للطريق الذي انقطعت نفقته عنه. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ والمراد به الإحسان إلى المماليك وقد ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت ويقول: (**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**) فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار برقم (٦٠١٤)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٠ ص٤٥٥ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، برقم (٦٠١٦)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٠ ص٤٥٧ .

(٣) إتحاف السادة المتقين ج٦ ص٣٠٤، وكشف الخفاء ج١ ص٣٩٣ .

(٤) أخرجه ابن ماجة في كتاب الوصايا، باب هل أوصى رسول الله ﷺ، برقم (٢٦٩٧)، سنن ابن ماجة ج٢ ص٩٠٠، وأحمد في مسنده ج١ ص٧٨ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي: أن الله يبغض من يتكبر على عباده فلا يحسن لوالديه، ولا لأقربائه ولا للمحاويج ولا لمواليه.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بعد أن ذكر الله عز وجل ما يجب على العبد من الإحسان لوالديه وأقاربه، ومن في حكمهم ممن نصت عليه الآية السابقة ذم البخلاء وهم في هذا المقام الذين يبخلون فلا يبرون والديهم، ولا أقاربهم ولا المحاويج ولا الأرقاء. والبخل في جميع صوره مذموم وفيه قال رسول الله ﷺ: (**اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**)[1]. وقيل: إن المراد في الآية اليهود يأتون إلى الأنصار ويقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم وأنتم لا تدرون ما سيؤول إليه أمر محمد فنعتهم الله بالبخل في أنفسهم وأمرهم غيرهم بالبخل.

﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: أن البخيل يخفي ما أنعم الله عليه فلا يظهر هذه النعمة بشكر الله عليها، بل يخفي كل فضل تفضل الله به عليه في مطعمه ومشربه وملبسه ومظهره، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٨)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٠ ص٦٥٩٢.

على عبده)[1]. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وهذا في سياق الآية، والمعنى فيه أن البخيل الجاحد لنعم الله عليه يعد كافراً بهذه النعم فيستحق بسبب جحوده العذاب المهين.

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ﴾ لما ذكر الله البخلاء، وما يستحقونه من العذاب ذم المرائين الذين لا يقصدون ببذلهم المال وجه الله بل يبتغون السمعة والخيلاء ومدح الناس لهم. قيل: إن هذه الآية نزلت في المنافقين وقيل: إنها نزلت في مشركي مكة حين كانوا في بدر ينفقون الأموال لجمع الناس حولهم ليكونوا معهم ضد المسلمين[2].

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هذه صفة لهم لأنهم لما بذلوا الأموال رياء دل على عدم إيمانهم بالله. ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ ذلك أنهم لما بذلوا المال رياء ولم يؤمنوا بالله ولا بيوم القيامة كانوا قرناء للشيطان لأن هذه الصفات من صفاته وبئس القرين والصاحب لهم.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: وأي شيء

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الأدب، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، برقم (٢٨١٩)، سنن الترمذي ج٥ ص١١٤، والتبريزي في مشكاة المصابيح في كتاب اللباس، برقم (٤٣٥٠)، المشكاة ج٢ ص١٢٤٦، وقال الألباني «إسناده حسن».

(٢) معالم التنزيل للبغوي ص٢٩٩، وزاد المسير لابن الجوزي ص٢٨٢ .

يضرهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر، وبذلوا المال في سبيل الله، وفي الطرق التي يحبها، وتركوا الرياء وأخلصوا العمل لله وحده؛ لو فعلوا ذلك لكان فيه نفعهم وخيرهم في الدنيا والآخرة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: يعلم سرائرهم ونياتهم فيجازيهم عليها.

أحكام ومسائل الآيات:

وجوب عبادة الله وحده وإفراده بالعبادة. وجوب الإحسان إلى الوالدين، والأقارب، والجيران، والمحاويج، والمنقطعين، والإحسان إلى المماليك. ومن الأحكام: قبح الاختيال والكبر ومن يفعل ذلك مقته الله كما قال عز وجل ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١). ومن الأحكام: تحريم البخل والوعيد لأصحابه بالعذاب كما قال عز وجل ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (٢). ومنها: تحريم كتمان العلم وفي هذا قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾(٣). ومنها:

---

(١) سورة لقمان من الآية ١٨ .

(٢) سورة آل عمران من الآية ١٨٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٥٩ .

تحريم الرياء كما قال عز وجل في صفات المنافقين ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(١). ومنها: ذم قرناء السوء لما يتولد عن مصاحبتهم من السوء والآثام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾.

بيان الآيات:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الذرة النملة الحمراء الصغيرة، وحاشاه أن يظلم أحداً من عباده؛ فهو يضع الموازين للحساب والجزاء فيوفي كلاً بعمله كما قال عز وجل ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(٢). وفي حديث الشفاعة يقول الله: (**ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه من النار**)(٣).

---

(١) سورة النساء من الآية ١٤٢ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٤٧ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، برقم (٧٤٣٩)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٣ ص٤٣١ .

﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ أي: إن كان للعبد حسنة ضاعفها الله فكثر ثوابها. ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي: يعطي صاحب الحسنة كرماً منه أجراً عظيماً وهو الجنة وفي ذلك روى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**يؤتى بالعبد يوم القيامة فيوقف وينادي منادٍ على رؤس الخلائق هذا فلان بن فلان من كان له حق فليأت إلى حقه ثم يقول آت هؤلاء حقوقهم فيقول يا رب من أين لي وقد ذهبت الدنيا علي فيقول الله تعالى للملائكة انظروا إلى أعماله الصالحة فأعطوهم منها فإن بقي مثقال ذرة من حسنة قالت الملائكة يارب - وهو أعلم بذلك منهم - قد أعطى كل ذي حق حقه وبقي مثقال ذرة من حسنة فيقول الله تعالى للملائكة ضعفوها لعبدي وأدخلوه بفضل رحمتي الجنة**) ومصداقه هذه الآية[1].

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ أي: كيف تكون حال الكفرة يوم القيامة، وجئنا بأنبيائهم يشهدون عليهم بما عصوا. ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ أي: أتينا بك يا محمد لتشهد على الذين كذبوا وأنكروا ما أنزل الله. وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: (**اقرأ علي**)

(١) الدر المنثور ج٢ ص٢٩٠، والجامع لأحكام القرآن ج٥ ص١٩٦، وجامع البيان في تأويل آي القرآن، وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٤٧١ .

قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (**إني أحب أن أسمعه من غيري**) فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت هذه الآية قال: (**أمسك**) فإذا عيناه تذرفان[١].

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾أي: في تلك اللحظات العسيرة من يوم القيامة يود الذين كفروا أن تبتلعهم الأرض، أو تسوى بهم فيكونوا ذرات من ذراتها، ولا يواجهوا ذلك اليوم وشاهده أيضاً قوله جل ذكره ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾[٢]. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ أي: أن جوارحهم تتكلم عنهم إذا جحدوا كفرهم كما لو قالوا ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾[٣]. وشاهده قول الله عز ذكره ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٤]. ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[٥].

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير عدل الله، وأنه لا يظلم أحداً من خلقه. الحكم بأن الله يضاعف

---

(١) أخرجه البخاري عن عمرو بن مرة في كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ ﴾... برقم (٤٥٨٢)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص٩٨ .

(٢) سورة النبأ من الآية ٤٠ .

(٣) سورة الأنعام من الآية ٢٣ .

(٤) سورة فصلت الآية ٢٠ .

(٥) سورة فصلت من الآية ٢١ .

الحسنات لعباده، ويكثرها لهم، ويعطيهم أجراً عظيماً تكرماً منه عليهم. ومن مسائل الآيات: ذكر هول يوم القيامة وشهادة الأنبياء على أممهم، وشهادة رسول الله محمد ﷺ على الذين كذبوا ما أنزل الله. ومنها: تقرير حال الكافرين يوم القيامة وما يتمنونه من أن يسووا بالأرض ولا يقاسوا هول ذلك اليوم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

بيان الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ قيل: في سبب نزول هذه الآية أن عبد الرحمن بن عوف في أول الإسلام صنع طعاماً وشراباً فدعا نفراً من الصحابة فأكلوا وشربوا فلما حان وقت الصلاة قدموا أحدهم وقيل: إنه علي بن أبي طالب فقرأ «قل يا أيها الكافرون، أعبد ما تعبدون». وكان عمر رضي الله عنه يقول: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزل قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[١].

﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: لا تصلوا. ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ أي: متعاطين لشرب الخمر لكونه يذهب العقل فلا يميز صاحبه بين ما يقول ويفعل. ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ أي: حتى تشعروا ما تقولونه عن إدراك ويقين. ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ أي: يجب عليكم ألا تصلوا إذا كنتم جنباً أي: بعد معاشرتكم لنسائكم، ولكن لكم أن تمروا بالمسجد غير ماكثين فيه. وقيل: إن سبب هذه الآية أن قوماً من الأنصار كانت أبواب دورهم شارعة في المسجد فإذا أصاب أحدهم الجنابة اضطر إلى المرور بالمسجد إلى أن أمر رسول الله بتوجيه البيوت عن المسجد لما ورد في صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال: (**لا تبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر**)[٢]. ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ أي: لا تقربوا الصلاة إلا بعد الغسل من الجنابة.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٨٩، والأثر أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، برقم (٣٠٢٦)، سنن الترمذي ج٥ ص٢٢٢، وأبو داود في كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر برقم (٣٦٧٠ - ٣٦٧١)، سنن أبي داود ج ص٣٢٢-٣٢٣، والآية في سورة المائدة من الآيات ٩٠ - ٩١.

(٢) الدر المنثور ج٢ ص٢٩٥، وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٤٧٥، والحديث أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه برقم (٢٣٨٢)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٠ ص٦٢٥٩.

لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً﴾ لما كان من المحتمل أن يفقد المسلم الماء أو بعضه لطهارته أباح الله له الاستعاضة عنه بالتيمم وهو التراب الطاهر فجعله طهوراً لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. وذلك لمن كان به مرض، أو كان محدثاً، أو مسافراً أو جنباً. وسبب شرع التيمم ما ذكرته عائشة قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى ماصنعت عائشة أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ؟ فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول ويجعل يطعن بيده في خاصرتي ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي فقام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فتيمموا فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر» الحديث[١].

والتيمم من خصائص هذه الأمة وشاهده من السنة ما رواه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم، برقم (٣٣٤)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١ ص٥١٤.

حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: (**فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهوراً**)(١). وما رواه عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل في القوم فقال: (**يا فلان ما منعك أن تصلي مع القوم ألست برجل مسلم ؟**) قال: بلى يارسول الله ولكن أصابتني جنابة ولا ماء قال: (**عليك بالصعيد فإنه يكفيك**)(٢).

﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ﴾ المسح بالتراب بديل عن الماء لمسح الوجه واليدين فقط وذلك بضربة واحدة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي: إن من رحمته ورأفته بكم جعل التراب طهوراً لكم.

أحكام ومسائل الآية:

لما نهى الله عن الصلاة حال السكر كان ذلك قبل نزول تحريم الخمر، والعلة هي عدم شعور السكران بما يقول ويفعل. ويدخل في علة النهي إتيان المرء الصلاة وهو غير مدرك لها سواء كان نائماً، أو كان مخدراً أو نحو ذلك مما يكون مانعاً له عن إدراك ما يقول ويفعل. وشاهده قول رسول الله ﷺ: (**إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد، برقم (٥٢٢)، صحيح مسلم بشرح النووي ج٣ ص١٧٦٤ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التيمم، برقم (٣٤٨)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١ ص٥٤٥.

حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه)[١].

ومن الأحكام في الآية: النهي عن الصلاة حال الجنابة وهي ما ترتب من غشيان النساء وفيه قول رسول الله ﷺ: **(لا أحل المسجد لحائض ولا جنب)**[٢]. ويستثنى من ذلك عبور المسجد للضرورة.

ومن الأحكام في الآية: وجوب الغسل للجنب في حال وجود الماء وصفته غسل الكفين مع التسمية والنية في رفع الحدث الأكبر، ثم الاستنجاء بغسل الفرجين وما حولهما، ثم الوضوء بغسل الكفين ثلاث مرات، ثم المضمضة واستنشاق الماء ثلاثاً ونثره، ثم غسل الوجه واليدين إلى المرفقين، ومسح الرأس والأذنين مرة واحدة، ثم غسل الرجلين إلى الكعبين، ثم تخليل أصول شعر الرأس لما روي رسول الله ﷺ: **(إن كل تحت شعرة جنابة فاغسلوا الشعر واتقوا البشرة)**[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم برقم (٢١٢)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١ ص٣٧٥ .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب في الجنب يدخل المسجد برقم (٢٣٢)، ج١ ص٩٨، وابن ماجة في كتاب الطهارة، باب في ما جاء في اجتناب الحائض المسجد، برقم (٦٤٥)، سنن ابن ماجة ج١ ص٢١٢ .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب في الغسل من الجنابة برقم (٢٤٩)، سنن أبي داود ج١ ص١٠٥، وقال أبو داود: «الحارث بن وجيه حديثه منكر وهو ضعيف»، وابن ماجة في كتاب الطهارة، باب تحت كل شعرة جنابة برقم (٥٩٧)، سنن ابن ماجة ج١ ص٥٩٩، والترمذي في كتاب الطهارة، باب ما جاء أن تحت كل شعرة جنابة، برقم (١٠٦)، وقال أبو عيسى: «حديث الحارث بن وجيه حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه وهو شيخ ليس بذاك وروى عنه غير واحد من الأئمة وتفرد بهذا الحديث عن مالك بن دينار».

ثم حثو الماء على الرأس بغسله بكل حثوة، ثم إفاضة الماء على الشق الأيمن بغسله، ثم على الشق الأيسر من أعلاه إلى أسفله؛ مع التعهد بالماء للإبطين، وكل مكان لم يصل إليه الماء كموقع السرة والركبتين. فإن عم جسمه بالماء أجزأه إلا أن الأفضل له اتباع فعل رسول الله ﷺ كما أشير إليه أعلاه.

ومن الأحكام في الآية: وجوب التيمم بالتراب الطاهر للمحدث والمريض والمسافر والجنب في حال فقدهم الماء كلاً أو بعضاً؛ وذلك بضربة واحدة للوجه واليدين، ويتيمم لكل صلاة. وعند الإمام أبي حنيفة والثوري وآخرين يصلي ما شاء بتيمم واحد مالم يحدث[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قيل: إن هذه الآية

---

(١) البناية شرح الهداية ج١ ص٥٥٥ - ٥٥٦ .

نزلت في اليهودي رفاعة بن زيد التابوت وكان هذا معادياً للإسلام[١] وقيل: إنها في أحبار اليهود[٢]. ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ وذلك بطعنهم في الإسلام ومعاداتهم له. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: أنهم لا يكتفون بضلالهم في أنفسهم، بل يريدون منكم أيها المسلمون أن تضلوا كما فعلوا.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ أي: أنه يعلم بأعدائكم ويريد منكم حذرهم فلا تستنصحوا بهم بل الزموا ما أمركم الله به، فهو وليكم وناصركم وكفى به ولياً وكفى به نصيراً لعباده.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ وهم الذين أوتوا نصيباً من الكتاب وهم اليهود. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يتأولونه حسب أهوائهم وليس حسب حقيقته. ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ هذا بيان لقولهم لقد سمعنا ما قلته وعصينا ما تأمرنا به. ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ ومرادهم اسمع لا سمعت وهو كلام يحتمل الاستهزاء والدعاء. ﴿وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ ﴿وَرَٰعِنَا﴾ كلمة عبرانية للسب و﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي: يلوونها بما يحتمل القول الطيب وهو على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٢٤٢، ومعالم التنزيل للبغوي ص٣٠٧، وزاد المسير في علم التفسير ص٢٨٨ .

(٢) زاد المسير في علم التفسير ص٢٨٨، ومعالم التنزيل ص٣٠٧ .

عكس ذلك. ﴿وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ أي: سباً وتحقيراً واستهزاء وكانوا يقولون لخاصتهم لو كان نبياً حقاً لعرف أننا نسبه بهذه الكلمات فبين الله لنبيه حقيقتهم.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ﴾ أي: لو أنهم استجابوا لما بلغهم من الآيات وسمعوا وأطاعوا ما جاء به الرسول إليهم لكان في ذلك الخير والسداد لهم. ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ أي: طردهم بسبب كفرهم وجحودهم. ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: لا يؤمنون إلا إيماناً ضعيفاً لا ينفعهم.

أحكام ومسائل الآيات:

ذم أهل الكتاب، والمراد بهم اليهود الذين كانوا يريدون إضلال المسلمين عن دينهم وذلك بالطعن فيه. ومن الأحكام: تقرير علم الله بأعداء المسلمين فيحذر رسوله وأمته منهم. ومنها: أن أسلاف اليهود يتأولون القرآن حسب أهوائهم وغاياتهم خلافاً لحقيقته في نصوصه. ومن الأحكام: أن الإيمان الضعيف لا ينفع صاحبه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧﴾.

بيان الآية:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا ﴾ قيل: في سبب نزول هذه الآية إن رسول الله ﷺ كلم بعضاً من أحبار اليهود وقال لهم: (**يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن ما جئت به هو الحق**) فقالوا: يا محمد ما نعرف ما جئت به[1].

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ أي: مصدقاً للتوراة التي نزلت على موسى وقبل تحريفكم لها. ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ قد يكون المراد آمنوا بما جاءكم من الحق قبل أن يضلكم الله إضلالاً أبدياً لا تكون لكم هداية بعده. وقيل: المراد الطمس الحقيقي، وهو تغيير الصورة الخلقية التي هم عليها لتكون صورتهم منتكسة.

﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ ﴾ أي: أصحاب هذه الوجوه كما لعن أصحاب السبت من قبلهم فمسخهم الله قردة وخنازير جزاء تحايلهم على أحكام الله. ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أي: أن ما قدره سيقع لا محالة.

أحكام ومسائل الآية:

أمر الله لأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى أن يؤمنوا بالقرآن الذي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٢٤٤، والدر المنثور ج٢ ص٣٠٠، ومعالم التنزيل ص٣٠٨، وزاد المسير في علم التفسير ص٢٨٩، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٤ ص١٢٤، والبيهقي في دلائل النبوة ج٢ ص٥٣٤.

نزل مصدقاً لما أنزل عليهم من الكتاب قبل تحريفه. ومن الأحكام: أن المكذب لكتاب الله معرض للمسخ الجسدي أو المعنوي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

بيان الآية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ في هذا وعيد وتحذير من الله أنه لن يغفر لمن يشرك معه غيره إذا مات على شركه. أما إذا تاب منه فأمره إلى الله بقبول توبته. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وفي هذا وعد من الله بأنه سيغفر لمن يشاء من عباده إذا كان غير مشرك وشاهده قول رسول الله ﷺ: (**إن الله قال: ماعبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان فيك يا عبدي إنك إن لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً أتيتك بقرابها مغفرة**)[1]. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي: من أشرك بالله فقد ارتكب من الإثم أعظمه، ومن الخطيئة أشدها وفي حديث ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال: (**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**)[2].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ج٥ ص١٥٤، والدارمي في كتاب الرقاق، باب إذا تقرب العبد إلى الله، برقم (٢٧٨٨)، سنن الدارمي ج٢ ص٤١٤، والترمذي في كتاب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار برقم (٣٥٤٠)، سنن الترمذي ج٥ ص٥١٢ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ برقم (٤٤٧٧)، صحيح البخاري مع الفتح ج٢ ص١٣ .

أحكام ومسائل الآية:

تقرير عظم أمر الشرك، والحكم بأن الله لا يغفر لمن أشرك به ومات على ذلك. أما من تاب من الشرك توبة نصوحاً فإن الله يتوب عليه كما قال عز وجل ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[١]. وقوله عز ذكره ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢]. ومن الأحكام: أن من ارتكب ذنوباً غير الشرك وطلب من الله المغفرة حري أن يغفر الله تعالى له.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

بيان الآيتين:

المراد بهم اليهود والنصارى فقد قالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[٣]. ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[٤]. وقولهم ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[٥].

---

(١) سورة النساء من الآية ٢٧ .

(٢) سورة النساء الآية ١١٠ .

(٣) سورة المائدة من الآية ١٨ .

(٤) سورة البقرة من الآية ٨٠ .

(٥) سورة البقرة من الآية ١١١ .

﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ والمراد أن تزكية الله هي الأصل والأساس لقوله جل ذكره ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[١]. أما تزكية الإنسان نفسه فلا معنى لها فلا يزكي إلا الذين آمنوا به وبكتابه وبما أنزل على رسوله. ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: أن الذين يزكون أنفسهم لا يظلمهم الله ما لهم من عمل صالح ولو كان قليلاً.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ أي: انظر يا محمد كيف يكذبون على الله بتزكيتهم أنفسهم بقولهم ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾، وقولهم ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمًا مُّبِينًا﴾ أي: ما أعظم ذنبهم هذا بتقولهم على الله.

أحكام ومسائل الآيتين:

لا يجوز للإنسان أن يزكي نفسه كما قال عز وجل ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾. كما لا يجوز للإنسان أن يزكي آخر على سبيل الجزم؛ فإن كان يظن به خيراً فيقول هذا ما أعلمه عنه والله حسيبه. ومن الأحكام: أن الله يزكي عباده المتقين، وذلك بما يوفقهم للعمل الصالح ويدلهم على سبيل الخير. ومن الأحكام: ذم الكذب والوعيد للذين يفترون الكذب على الله وكفى بالكذب إثماً عظيماً.

---

(١) سورة النجم من الآية ٣٢ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ ﴾ الذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم اليهود. والجبت يراد به الساحر والكاهن والصنم. والطاغوت الشيطان وكل ما عبد من دون الله. ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ إشارة إلى ما قاله اليهود للمشركين في مكة؛ ذلك أنه بعد معركة أحد ذهب كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب اليهوديّان إلى مكة مع جماعة من اليهود ليتحالفوا مع قريش على قتال رسول الله ﷺ فنزل كعب على أبي سفيان ونزلت اليهود في دور قريش فتعاهدوا على

قتال رسول الله ﷺ فقال أبو سفيان لليهود: أنتم أهل كتاب ونحن أميون لا نعلم ولكنا ولاة البيت ونسقي الحاج ونكرم الضيف ونفك الأسير ومحمد صنبور[١] قطع أرحامنا ولم يتبعه غير بني غفار سراق الحجاج، فمن هو الأهدى منا أنحن أم محمد ؟ فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد. وقيل: إن أبا سفيان قال لليهود: أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أي: أن الله لعن هؤلاء الذين يؤمنون بالطاغوت، ويقولون للكافرين أنهم أهدى سبيلاً من المؤمنين ومن يلعنه الله فليس له ولي ولا نصير فهو مطرود من رحمة الله.

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ استفهام إنكاري أي: ليس لهم نصيب من الملك لا ملك الدنيا ولا غيره. ﴿فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: لو كان لهم نصيب منه فلن يؤتوا أحداً مقدار نقير منه وهو النقطة البسيطة في ظهر نواة التمر وذلك لشدة بخلهم، وفي هذا وصف لليهود بالبخل والحسد كما سيأتي في الآية التالية.

---

(١) الصنبور: سعفة تنبت في جذع النخلة لا في الأرض، المعجم الوسيط ص٥٢٤ .

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٢٩٢ - ٢٩٣، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٤ ص١٣٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٤٨٦ .

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي: محمداً ﷺ. ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ ﴾ أي: النبوة التي تفضل الله بها على محمد وعلى أمته بالإيمان. ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي: آتينا أسلاف بني إسرائيل من ذرية إبراهيم الكتاب والحكمة. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ أي: جعلنا فيهم ملوكاً. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ أي: بهذا الذي آتيناهم. ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ ﴾ أي: تولى وأعرض عنه؛ فلما كان هذا هو فعل أسلاف بني إسرائيل في كفرهم بمن أرسل إليهم منهم فكيف بك يامحمد وأنت لست منهم، فلا عجب إذاً أن يحسدوك ويعادوك فهذا تسلية له عليه الصلاة والسلام. ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ أي: وكفى بنار جهنم جزاء لهم على ما فعلوا.

أحكام ومسائل الآيات:

ذم أهل الكتاب الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت، وهذا يقتضي وجوب الكفر بالسحرة والكهان والشياطين. ومن الأحكام: ذم الحسد لما فيه من الاعتراض على حكمة الله، ومن ذلك حسد أهل الكتاب لرسول الله ﷺ فيما أعطاه الله من النبوة والرسالة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا ﴾ هذا بيان من الله تعالى بأن كل من كفر بآياته واستكبر عنها سوف يعاقبه بنار جهنم. ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم ﴾ أي: كل ما احترقت وانتهت. ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا ﴾ أي: ألبسوا جلوداً أخرى كلما احترقت جلودهم. ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ أي: ليستمر عليهم العذاب فلا ينقطع. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا ﴾ أي: له القوة في عذاب المجرمين. ﴿حَكِيمٗا ﴾ أي: عادلاً فلا يعذب إلا من عصى واستكبر عن الحق.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ ﴾ في هذا وعد من الله لعباده المؤمنين الذين عملوا الصالحات أنه سيدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار في كل أرجائها وفيها النعيم المقيم الذي لا يخطر على بال بشر. ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ ﴾ أي: زوجات مطهرات من الحيض والنفاس وسائر الأقذار التي يتعرض لها نساء الدنيا. ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾ الظل ظل الجنة وظليلاً تأكيد له.

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير الوعيد بالعذاب للكافرين بآيات الله المكذبين بها وتقرير تبديل جلودهم لتكرار العذاب لهم. تقرير الوعد للمؤمنين بالنعيم المقيم لهم في الآخرة.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾.

بيان الآية:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ قيل: إنها خطاب لولاة المسلمين، وقيل: إنها نزلت في مسألة مفتاح الكعبة حين أخذه رسول الله ﷺ من عثمان بن أبي طلحة الحجبي العبدري من بني عبد الدار ومن ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة وكانا كافرين وقت فتح مكة فطلبه العباس بن عبد المطلب لتضم إليه سدانة البيت إضافة إلى حقه في السقاية فنزلت هذه الآية على رسول الله وهو في الكعبة فخرج يتلوها فدعا عثمان وشيبة فقال: (**خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم**)[1]. وهذه الآية وإن كانت خاصة

---

(١) الدر المنثور ج٢ ص٣١٢ .

فهي عامة في وجوب أداء الأمانات إلى أهلها وعدم خيانتها وشاهد هذا من الكتاب قول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ ﴾[١]. وشاهده من السنة قول رسول الله ﷺ: (**أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**)[٢]. وقوله عليه الصلاة والسلام: (**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان**)[٣].

﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ وفي هذا أمر للحكام في مطلق عمومهم من القضاة والأمراء والولاة أن يحكموا بالعدل بين من ولاهم الله ولايتهم لأن العدل أصل من أصول شريعة الله كما قال عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[٤]. وقوله ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[٥]. والعدل مسؤولية وأمانة كبرى يجب على كل من يحملها أداؤها سواء كانت مسؤولية خاصة أو عامة وشاهده قول

---

(١) سورة الأنفال من الآية ٢٧ .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الإجارة، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده برقم (٣٥٣٥)، سنن أبي داود ج٣ ص٢٧٦، والترمذي في كتاب البيوع، باب (٣٨)، برقم (١٢٦٤)، الترمذي ج٣ ص٥٦٤، وأحمد في المسند ج٣ ص٤١٤ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، برقم (٦٠٩٥)، صحيح البخاري مع الفتح ج١٠ ص٥٢٣ .

(٤) سورة النحل من الآية ٩٠ .

(٥) سورة المائدة من الآية ٨ .

رسول الله ﷺ: (**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**)[١]. وقوله عليه الصلاة والسلام: (**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**)[٢]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي: إن العدل هو نعم ما يعظكم ويأمركم به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: سميعاً بما تقولون وبصيراً بما تفعلون.

أحكام ومسائل الآية:

هذه الآية وإن نزلت خاصة، فهي عامة في كل أمانة يؤتمن عليها المرء كالوديعة، والرهن، والإجارة، واللقطة، والعارية، وفي سائر البيوع والتعامل بين الناس. ومن الأحكام في الآية: وجوب العدل على من ولاه الله أمراً لغيره؛ كعدل الآباء بين أولادهم، وزوجاتهم، وعدل الأمراء والسلاطين على تابعيهم، وعدل القضاة بين خصومهم، وعدل المتعاملين فيما بينهم، وهكذا في كل أمر تقتضي طبيعته العدل بين أطرافه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، برقم (٨٩٣)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٢ ص٤٤١ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، برقم (١٨٢٧)، صحيح مسلم بشرح النووي ج٨ ص٥١٠١ .

تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

بيان الآية:

الخطاب للمؤمنين؛ ذلك أن الله لما أمر الولاة بأداء الأمانات إلى أهلها، وأن يكون الحكم بالعدل خاطب المؤمنين بقوله جل ذكره ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ أما طاعة الله فهي الأساس في الخلق وهي امتثال ما أمر به والبعد عما نهى عنه. وأما طاعة رسوله فهي تصديقه فيما جاء به واتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه. وأما طاعة أولي الأمر ففيما يأمرون به وينهون عنه لما فيه خير الأمة ومصالحها من إقامة العدل، وإحقاق الحقوق، ورفع الظلم، وكل ما فيه صلاح الدين والدنيا. ولا تتقيد هذه الطاعة إلا إذا كان الآمر يأمر بمعصية لقول رسول الله ﷺ: (**إنما الطاعة في المعروف**)[1]. وقوله: (**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**)[2]. وقول عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية برقم (٧١٤٥)، صحيح البخاري مع فتح الباري، ج١٣ ص ١٣٠ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية برقم (٧١٤٤)، صحيح البخاري مع فتح الباري، ج١٣ ص١٣٠ .

ويسرنا وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان[١]. وقد درج على هذا السلف الصالح من الولاة والأمراء فأبوبكر رضي الله عنه يقول: أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم[٢].

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: إذا تنازعتم في أي: أمر بينكم فالحكم فيه يكون بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ. ولما قال مسلمة بن عبد الملك لأبي حازم: ألستم أمرتم بطاعتنا في قول الله ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ قال: أليست نزعت عنكم إذا خالفتم الحق[٣]. لقول الله تعالى ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾. ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ المراد به التحاكم إلى الكتاب والسنة. ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ أي: مرجعاً لهذا التحاكم.

أحكام ومسائل الآية:

قيل: إن أولي الأمر هم السلاطين والأمراء، وقيل: هم العلماء وقال بهذا الإمام مالك وغيره[٤] والأصوب أنهم الأمراء والعلماء؛

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ «سترون بعدي أموراً تنكرونها»، برقم (٧٠٥٥ - ٧٠٥٦)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٣ ص٧ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٦٤ .

(٣) فتح الباري ج١٣ ص١٢٢، والكشاف للزمخشري ج٢ ص٩٥ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ج١ ص٤٥٢ .

فالأمراء هم الذين يتولون السلطان والقوة التي يستطيعون بها فرض الأحكام. وأما العلماء فإن التنازع يقتضي الرجوع إليهم للحكم فيه بشرع الله.

ومن الأحكام في الآية: وجوب رد التنازع في أمور الدين أو الدنيا إلى كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ، وشاهده من السنة وصية رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل لما أرسله إلى اليمن: (**بم تحكم؟**) قال معاذ: بكتاب الله قال: (**فإن لم تجد؟**) قال: فبسنة رسول الله ﷺ قال: (**فإن لم تجد؟**) قال: أجتهد برأيي ولا آلو قال: (**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله**)[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، برقم (٣٥٩٢)، سنن أبي داود ج٣ ص٢٩٥، والترمذي في كتاب الأحكام، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي برقم (١٢٢٧)، سنن الترمذي ج٣ ص٦١٦، وأحمد في مسنده ج٥ ص٢٣٠ .

وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ قيل: إنها نزلت في رجل من المنافقين يسمى بشراً تخاصم مع رجل من اليهود فقال اليهودي: نتخاصم إلى رسول الله ﷺ وقال المنافق: نتخاصم إلى كعب بن الأشرف فتحاكما إلى رسول الله ﷺ فقضى لليهودي، فلم يرض المنافق وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب فقال اليهودي لعمر: لقد قضى لنا رسول الله فلم يرض هذا بقضائه فقال عمر للمنافق: أكذلك ؟ قال: نعم قال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر إلى داره وأخذ السيف فاشتمل عليه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد أي مات، ثم قال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله. فنزلت هذه الآية وقال جبريل: لقد فرق عمر بين الحق والباطل فقال له رسول الله ﷺ: (**أنت الفاروق**)[1]. والحكم عام في هذه الآية؛ فكل من لا يتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، ويتحاكم إلى غيرهما فهو داخل في حكم التحاكم إلى الطاغوت.

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٠٠، وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٤٩٠، والدر المنثور ج٢ ص٣٢٠ .

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ المراد به كعب بن الأشرف لكونه يحكم بالهوى، وبالرشا وشدة عداوته لرسول الله ﷺ والمؤمنين. ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: أنهم أمروا أن يكفروا بكل حكم غير حكم الله. ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ أي: أن فعلهم هذا كان من فعل الشيطان لأنه يريد إضلالهم وخسرانهم.

وقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ المراد به اليهود والمنافقون الذين لم يرضوا بقضاء رسول الله. كما يراد به كل من يعدل عن الحكم بالكتاب والسنة إلى الحكم بالهوى. ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ أي: أنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى كتاب الله، وما أنزل على رسوله أعرضوا عن ذلك تكبراً وعناداً وإصراراً على التحاكم إلى الهوى.

﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ المراد أن عمر لما قتل المنافق الذي أبى حكم الرسول جاء أصحابه إلى رسول الله ﷺ يطلبون ديته، ويحلفون أنهم ما أرادوا بتحاكمهم إلى عمر إلا الإحسان للخصمين، وليس إساءة إليك، أو عدم قبول حكمك. وما أردناه من عمر هو التوفيق بين الخصمين ولم نكن نعلم أنه يحكم بمثل ما حكم به وهو قتل صاحبنا.

ولما قالوا قولهم هذا بيَّن الله لنبيه أنهم منافقون بقوله ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾. ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾ أي: أعرض عن قولهم، ولكن عظهم موعظة بليغة فيها إرشادهم إلى طريق الحق، وفيها: التحذير من عاقبة التحاكم إلى غير الكتاب والسنة.

أحكام ومسائل الآيات:

تحريم التحاكم إلى الشياطين أياً كانت أسماؤهم أو صفاتهم. وهذا يقتضي أن كل حكم لا يرجع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ يعد باطلاً من أصله. ومن الأحكام وجوب الكفر بالطواغيت أياً كانت مسمياتهم أو صفاتهم. ومنها: ذم المنافقين لكونهم يصدون عما جاء به رسول الله ﷺ وينكرونه أحياناً ويشكون فيه أحياناً أخرى. ومنها: وجوب الإعراض عن أهل الأهواء ومن في حكمهم مع وعظهم بقوة بما ينفعهم ويردهم إلى الحق الذي أعرضوا عنه.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾

بيان الآيتين:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ المعنى أن ما أرسلنا من رسول إلى قومه إلا ليطاع منهم لأن الله أمرهم بطاعته وأمر الله لازم لهم، فطاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله كما قال عزوجل ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[١]. ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: بتحاكمهم إلى الطاغوت. ﴿جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي: تابوا مما فعلوا وطلبوا المغفرة من الله على ما حدث منهم. ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أي: اعتذروا عن رفضهم لحكمه لكان استغفر لهم. أي: أنهم لو فعلوا ذلك كله ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ أي: لعلموا أن الله يتوب عليهم ويرحمهم ويتجاوز عما فعلوا.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت حين خاصم الزبير رجلاً في شريج من الحرة كانا يسقيان بها النخل فقال رسول الله ﷺ: **(اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك)** فقال: يارسول الله أن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: **(اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك)**[٢].

---

(١) سورة النساء من الآية ٨٠.

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٠٢، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ برقم (٤٥٨٥)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص١٠٣.

وقيل: إن الأنصاري كان حاطب بن أبي بلتعة، وما فعله رسول الله ﷺ في بداية الحكم كان بمثابة صلح لأن نخل الزبير كان الأعلى فوجب أن يكون الري له أولاً. ولما قال الأنصاري ما قال أعطى للزبير حقه الذي يجب له. وقيل: إنهما لما خرجا من عند رسول الله مرا على المقداد فقال: لمن كان القضاء؟ فقال الأنصاري: قضى لابن عمته ولوى شدقه فسمع يهودي كان مع المقداد قول الأنصاري فقال: قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه في قضائه، لقد أذنبنا مرة في حياة موسى فدعانا إلى التوبة منه وقال: اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألف في طاعة ربنا حتى رضي عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس: أما والله إن الله ليعلم مني الصدق لو أمرني محمد أن أقتل نفسي لقتلتها وقيل: إن عماراً وابن مسعود وعمر بن الخطاب قالوا ذلك[١].

قوله ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾ أي: وربك. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ وهذا قسم من الله عز وجل بذاته العلية أنه ما من أحد يكون مؤمناً إلا إذا حكَّم رسول الله لأن حكمه من حكم الله، وقضاءه من قضائه كما قال عز وجل ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾[٢].

(١) تفسير البغوي ص٣١٥ .

(٢) سورة النجم الآية ٣ .

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(١). ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: لا يكون أحد مؤمناً إلا إذا رضي بحكمك يا محمد باطناً وظاهراً موقناً بعدالته فلا يداخل نفسه شيء مما حكمت به. ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: يؤمنوا بذلك إيماناً مطلقاً.

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير أن الله ما أرسل من رسول إلا ليطاع لأن الله هو الذي أرسله، فاقتضى هذا أن طاعته من طاعة الله ومعصيته معصية لله. ومن الأحكام: أن كل من لا يرضى في باطنه وظاهره بحكم رسول الله فهو كافر. ومنها: جواز تحاكم غير المسلم مع المسلم، ووجوب العدل بينهما. ومن الأحكام: أن لصاحب الشراج الأعلى حبس الماء حتى يصل إلى الجدر ثم يرسله إلى من هو أسفل منه.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨)﴾.

بيان الآيات:

السياق في سلوك المنافقين، فبعد أن ذكر الله أنهم لا يريدون

(١) سورة النجم الآية ٤ .

أن يتحاكموا إلى رسول الله، وبعد أن ذكر اليهودي ما فعله اليهود من طاعة أمر نبيهم موسى بقتل أنفسهم، وتوكيد ثابت بن شماس ونفر من الصحابة طاعتهم لرسول الله ﷺ لو أمرهم بقتل أنفسهم، بعد هذا بيَّن الله أنه لو كتب على المنافقين الذين يدعون الإسلام قتل أنفسهم لما فعله إلا قليل منهم، ولو أنه كتب عليهم أن يخرجوا من ديارهم للهجرة في سبيل الله لما فعله إلا قليل منهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: أنهم لو استجابوا للمواعظ التي بلغها الرسول إليهم من طاعة الله وإخلاص العمل في هذه الطاعة لكان في هذا خيرٌ لهم في الدنيا والآخرة. ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي: كان في ذلك قوة لهم في الدنيا وهداية لهم فيها بدخولهم في الإسلام وذخر لهم في الآخرة، وهو المراد من قوله ﴿وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

ولعل فيما ذكره الله إشارة إلى تخفيفه عز وجل عن هذه الأمة الأعباء والأثقال التي فرضت على بني إسرائيل بقتل أنفسهم جزاء ذنوبهم؛ حيث لم يفرض على هذه الأمة إلا التوبة من الذنوب والاستغفار منها.

أحكام ومسائل الآيات:

كشف الله لسرائر المنافقين؛ فلو كتب عليهم الخروج من ديارهم لم يفعله إلا قليل منهم. ولو كتب عليهم أن يقتلوا أنفسهم كما فعل بنو إسرائيل لما فعله إلا قلة منهم. الحكم: أن المنافقين لو استجابوا لما وعظهم به رسول الله ﷺ لكان في ذلك قوة ومكانة لهم في الدنيا وأجر عظيم في الآخرة. ومن الأحكام: تقرير منة الله على هذه الأمة فقد رفع عنها الأثقال التي كانت على بني إسرائيل بقتل أنفسهم بينما لا يجب على المسلم إلا التوبة النصوح.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

بيان الآيتين:

قيل: إن الآية نزلت في ثوبان مولى رسول الله ﷺ، فقد كان شديد الحب له ﷺ لا يصبر عن رؤيته فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه فقال له: (**يا ثوبان ما غيّر لونك؟**) فقال: يارسول الله ما بي من ضر ولا وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك فذكرت الآخرة فخفت ألا أراك هناك لأنك ترفع من النبيين، وإن أدخلت الجنة كنت في منزل دون منزلك وإن

لم أدخل فذاك حين لا أراك أبداً فنزلت هذه الآية[١]. وقيل: إنها نزلت لما قال أصحاب رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا فأنزل الله هذه الآية[٢]. وقيل: إنها نزلت لما قال عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري: يارسول الله إذا مت ومتنا كنت في عليين لا نراك ولا نجتمع بك، وذكر ما في قلبه من الحزن على ذلك فنزلت الآية، وقيل: إنه لما مات رسول الله ﷺ قال: اللهم أعمني حتى لا أرى شيئاً بعده فعمي من حينه، والمعنى في سبب نزول هذه الآية واحد وإن تعددت الروايات في سبب النزول[٣].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: أن من استجاب وامتثل لما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله فإن الله يدخله الجنة مرافقاً للأنبياء والشهداء والصالحين. ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ أي: ونعمت وحسنت هذه الرفقة، وقد روت عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**ما من نبي يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة**) وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٠٣، وزاد المسير ص٢٩٨.

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٠٤، وزاد المسير ص٢٩٨.

(٣) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٠٣ - ٣٠٤، والدر المنثور ج٢ ص٣٢٤ - ٣٢٥، وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٤٩٥ - ٤٩٦، وزاد المسير ص٢٩٨، ومعالم التنزيل ص٣١٦.

بحة شديدة فسمعته يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فعلمت أنه خُيِّر[1].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن هذه المكانة التي أعطيت لهم كانت بفضل من الله ومنة منه عليهم، وليس بأعمالهم، وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(لن يدخل أحداً عمله الجنة)** قالوا ولا أنت يارسول الله؟ قال: **(ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة)**[2].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي: أنه العليم بمن أطاعه، والعليم بمن عصاه فيجازي كلاً بعمله.

أحكام ومسائل الآيتين:

الحكم بأن من يطيع الله ورسوله فإن منزلته مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا يقتضي أن طاعة الله وطاعة رسوله سبب لبلوغ المنزلة العليا، وهي مرافقة الأنبياء والشهداء والصالحين. ولكن هذه المنزلة فضل من الله وليس سببها الإيمان فحسب، بل سببها الحقيقي فضل الله ومنته لأنه مامن أحد يدخل الجنة بعمله سواء الأنبياء أو الشهداء أو غيرهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ برقم (٤٥٨٦)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص١٠٣ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، برقم (٥٦٧٣)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٠ ص١٣٢ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ المخاطب هم المؤمنون، وفيه أمر لهم بأخذ الحيطة والحذر في جهادهم للدعوة لدين الله؛ ذلك أن من مقتضيات الجهاد معرفة أساليب العدو والحذر منه وما يتطلبه ذلك من الاستعداد المادي والمعنوي لمنازلته. ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾ أي: قوموا للحرب بشدة وأنتم أكثر عزماً وأشد قوة وليكن نفوركم على شكل سرايا أو جماعات متفرقين لكل سرية قائد، أو يكون في شكل جيش يتبع قائداً واحداً يتولى تسييره وتدبيره.

﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ المراد بهم المنافقون الذين يتثاقلون، ويتخلفون عن النفير للجهاد إذا دعوا إليه كما فعل ذلك عبد الله بن أبي بن سلول حين رجع بثلث الجيش في معركة أحد. ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ ﴾ أي: إن حدث لكم قتل أو هزيمة. ﴿قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ

﴿لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي قال المنافق: لقد أنعم الله علي بأن قعدت فلم أخرج معهم حتى لا أقتل أو أكون من بين المهزومين.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: نصر وغنيمة. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المنافق القاعد عن النفير. ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي: معرفة. ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ أي: في الغزو. ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: ينالني شيء من الغنائم ولا يكون قعودي عن النفير سبباً في وصمي بالتخلف عن الجهاد.

أحكام ومسائل الآيات:

وجوب الحذر في القتال، وهذا يقتضي الاستعداد له بالوسائل المادية والمعنوية وفي مقدمتها سبر العدو ومعرفة نواياه ووسائله، وكيفية استعداده، وفيها: تحذير من الجهل في الحرب لما يؤدي إليه ذلك من الهزيمة. وفيها: إرشاد للمؤمنين أن يكون نفورهم للقتال إما على شكل سرايا متفرقين يحاصرون العدو من جهاته، أو يكون نفورهم في شكل جيش جماعي تحت قيادة تسيره وتدبره. وفيها: إخبار بأن الأمة قد تواجه بين صفوفها في الحرب أو السلم من هو منهزم في نفسه ضعيف الإيمان لا يرى من الحياة إلا المغانم.

﴿۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ

أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

بيان الآيات:

الخطاب للمؤمنين وقوله ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾ أي: أن على المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الذين يفضلون الحياة الدنيا على الآخرة، وقد يكون المعنى فليقاتل في سبيل الله الذين يبيعون الحياة الدنيا ليشتروا الآخرة وفي هذا تنويه بفضلهم. ﴿ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ ﴾ أي: أن من يقتل في الجهاد أو يغلب فيه ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي: ثواباً جزيلاً، وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة)**[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فرض خمس، باب قول النبي ﷺ «أحلت لكم الغنائم» برقم (٣١٢٣)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٦ ص٢٥٣ .

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بعد أن رغب الله في الجهاد، وما يجب له من الاستعداد حث المؤمنين على الجهاد في سبيله. وقوله ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ المراد بهم الذين تعرضوا للتنكيل والإهانة في مكة بسبب إيمانهم وحالهم يقول ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ فالعمل على إخراجهم من الظلم إما بالقوة، أو بالمفاداة يعد من الجهاد في سبيل الله. والقرية مكة والمراد بالظالم أهلها في ذلك الزمان هم المشركون. ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ دعاء بأن يهيئ الله لهم من ينقذهم. ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ أي: هيئ لنا ناصراً ينصرنا عليهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وصف الله الذين في سبيله بأنهم المؤمنون، ووصف الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت بأنهم الكفرة؛ فالذين يقاتلون في سبيل الله هم المقاتلون لنصرة دينه وإعلاء كلمته، والكفار الذين يقاتلون المسلمين إنما يقاتلون في سبيل الطاغوت وهم هنا أولياؤه، وقد أمر الله بقتالهم بقوله ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فمهما كان تسلطه على أوليائه بخديعتهم وتزيين الباطل لهم فإن عمله ضعيف وهو معنى قول الله جل ذكره ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير الأجر لمن خرج مجاهداً سواء قتل شهيداً أو رجع منتصراً.

ومن أحكام الآيات: الأمر للمؤمنين بالجهاد في سبيل الله وهذا يقتضي العمل على إعلاء كلمته، والعمل على تخليص المسلمين من الظلم سواء كانوا أفراداً كحال المؤمنين عند المشركين في مكة أو حال البلاد المسلمة التي تقع تحت الاحتلال. وكما يكون تخليص المستضعفين من المسلمين بالقتال يكون أيضاً بدفع المال لفك أسرهم، ورفع معاناتهم. وشاهده قول رسول الله ﷺ: (**فكوا العاني وأطعموا الجائع وعودوا المريض**)[١]. وقوله: (**إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم**)[٢].

قلت: وهذا يقتضي أن المسلمين إذا لم يفكوا أسراهم أو يخلصوا بلادهم من أعدائهم يأثمون فيصيبهم الذل في الدنيا. وشاهده قول رسول الله ﷺ: (**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**)[٣]. أما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسر برقم (٣٠٤٦)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٦ ص١٩٣ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأشعريين رضي الله عنهم، برقم (٢٤٩٩)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٠ ص٦٤٧٠ .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب البيوع، باب النهي عن العينة برقم (٣٤٦٢)، سنن أبي داود ج٣ ص٢٥٣، والبيهقي في كتاب البيوع، ج٥ ص٣١٦، وأحمد في المسند ج٢ ص٤٢ .

في الآخرة فيحرمهم الله الأجر جزاء نكولهم عن الجهاد؛ فكما ينالهم الذل في الدنيا ينالهم في الآخرة. ومن أحكام الآيات: وجوب مقاتلة أولياء الشيطان، وعدم الخوف منهم لأن الشيطان وليهم وعمل الشيطان ضعيف في كل الأحوال.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾.

بيان الآيات:

سبب نزول هذه الآية أن المسلمين في بداية الإسلام كانوا قلة في مكة، وكانوا مستضعفين، وكان رسول الله ﷺ يدعو إلى دين الله بالحكمة، ويأمر أصحابه بالصبر وتحمل الأذى من المشركين، وأن يكون سلوكهم منحصراً في إقامة شعائر الله كالصلاة والزكاة، وأن

يصبروا إلى أن يأذن الله لهم وهو معنى قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. ومع ذلك كان نفر من المسلمين يتمنون أمر الله لهم بالقتال لكي يتمكنوا من المشركين، ويجهروا بدين الله. ولما أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة وازداد عدد المسلمين فصارت لهم قوة أذن الله لهم بالقتال في قوله جل ذكره ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(١). فلم يكن هذا الإذن مناسباً لبعض المسلمين فيما أخبر الله عنهم بقوله ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي: يخافون من المشركين في مكة. ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لو أخرت هذا الإذن إلى أجل آخر. ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي: أن بقاءكم في الدنيا قليل لأن آجالكم محدودة. ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي: أنها الحياة الباقية وهي خير للمتقين.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: سوف توفون أعمالكم فلا تظلمون أي: لا ينقص من أجركم مهما كان قليلاً وقد عبر الله عنه بالفتيل وهو الخيط الدقيق في نواة التمر.

وقد ذكر القرطبي ما روي أن الذين وهنوا عن القتال وقالوا

---

(١) سورة الحج من الآية ٣٩ .

لرسول الله قولتهم هم: عبد الرحمن بن عوف وأصحابٌ له وقال: معاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابي كريم يعلم أن الآجال محدودة، والأرزاق مقسومة بل كانوا لأوامر الله ممتثلين سامعين طائعين يرون الوصول إلى الدار الآجلة خيراً من المقام في الدار العاجلة على ما هو معروف من سيرتهم رضي الله عنهم، وقيل: إن من الذين قالوا بهذا سعد بن أبي وقاص والمقداد بن الأسود[١].

قلت: وما ذكره الإمام القرطبي صحيح، فلا يتصور أبداً أن يقول مثل هذا القول صحابي مثل عبد الرحمن بن عوف، وهو ممن عرفه التاريخ بسخائه وإنفاقه في سبيل الله، أو يقوله صحابي جليل مثل سعد بن أبي وقاص. ولعل الذين قالوا مثل هذا القول أناس حديثو عهد بالإسلام لم يتمكن الإيمان في قلوبهم خاصة وهم يواجهون زخماً من مقولات المنافقين في المدينة وتثبيطهم للمسلمين بالتشكيك في رسالة الإسلام، وبما جاء به رسوله الأمين. وإما أن يكون القائلون هذا القول نفرٌ من المنافقين الذين كانوا يمالئون المسلمين في الظاهر، وهم على خلافه في بواطنهم ولعل هذا هو الأرجح والله تعالى أعلم.

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ ﴾ المخاطب هنا المنافقون أو المسلمون المنهزمون الضعيفو الإيمان. ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي: أينما وحيثما كنتم سوف

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٢٨١ .

تلاقون الموت لا محالة لقوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[(١)].
وقوله عزوجل ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾[(٢)].
﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ تأكيد لحتمية الموت الذي كتبه الله على بني آدم. ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي: إذا حدث لهؤلاء المنافقين ونحوهم خير كوفرة المال، أو وفرة المطر ونحو ذلك من خيرات الدنيا قالوا: هذا من عند الله. ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ أي: إن حدث لهم ضعف كقلة الماء أو ندرة المطر أو نحو ذلك مما يبتلى به المرء من نقص في ماله أو ولده قالوا هذا بسبب اتباعنا لدينك يا محمد فرد الله عليهم قولهم بقوله ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي: إن ما يحدث للمرء من رخاء أو شدة أو جدب هو من عند الله وبقضائه وحكمته. ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ أي: لماذا هؤلاء المنافقون لا يعرفون أن هذا كله من عند الله.

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به جنس الإنسان. أي: أن ما سيصيب الناس من رخاء وصحة وأمن وسلام فمن الله ومنته وفضله عليهم. ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ أي: أن ما يصيب الناس من جدب وشدة وعسر ونقص في

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٣٥ .
(٢) سورة الجمعة من الآية ٨ .

الأنفس والأموال والثمرات هو من عند أنفسهم بسبب ذنوبهم كما في قوله عز وجل ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1]. وقوله جل ذكره ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾[2].

﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ﴾ أي: أرسلناك يا محمد رسولاً لكافة الناس ذكورهم وإناثهم، عربهم وعجمهم وإنسهم وجنهم. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي: كفى به شاهداً ومصدقاً لنبوتك ورسالتك إلى الناس أجمعين.

أحكام ومسائل الآيات:

ذم الذين يخشون الناس كخشيتهم لله مما يجعلهم يتمنون تأخير القتال في سبيله. تقرير أن متاع الدنيا زائل لا محالة وأن متاع الآخرة خير وأبقى. ومن أحكام الآيات: الحكم بأن الموت واقع لا محالة مهما حاول الإنسان أن يتقيه. ومنها: أن ما يصيب الإنسان من حسنة فهو من الله، وما يصيبه من سيئة فبسبب نفسه؛ ذلك أن الله عز وجل بيَّن للإنسان طريق الخير وطريق الشر كما قال عزوجل ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾[3]. وقوله ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[4].

---

(١) سورة الروم الآية ٤١ .

(٢) سورة الشورى الآية ٣٠ .

(٣) سورة الإنسان من الآية ٣ .

(٤) سورة البلد الآية ١٠ .

فإذا تولى عن طريق الخير واختار طريق الشر فإن ما يصيبه بسبب هذا الاختيار فإنما هو من فعله.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ في هذا إخبار من الله تعالى أن من أطاع رسوله فقد أطاعه، ومن عصاه فقد عصى الله؛ ذلك أن ما يأمر به الرسول هو أمر الله فهو مأمور منه أن يبلغ أمره إلى العباد، فإذا أطاعوا المأمور فقد أطاعوا الآمر. وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **(من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني)**[1].

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: أن من أعرض عن طاعتك فما أرسلناك عليهم حافظاً ومحاسباً لهم وإنما عليك البلاغ؛ فمن أطاعك سوف يجزى بالأجر والمثوبة، ومن عصاك سيجزى بالعقاب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به، برقم (٢٩٥٦)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٦ ص١٣٥ .

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ القائلون بذلك هم المنافقون ويقولون: نطيع طاعة، والمعنى أنهم يقولون هذا ظاهراً وفي بواطنهم غير ذلك لقوله تعالى ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ ﴾ أي: أنهم إذا خرجوا من عندك. ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي: زور رجال منهم ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ﴾ أي: غير ما قلت، والمعنى أنهم لم يقبلوا ما قلت بل عصوه بعد أن بيتوا ودبروا التزوير والتحريف بالليل. ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ أي: أن تبييتهم وتدبيرهم هذا سوف يكتب في سجل أعمالهم ليجزوا عليه بما يستحقونه من العذاب. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي: لا تشغل نفسك بهمهم وسوءهم فأمرهم متروك لنا. وتوكل على الله فإنه سيكفيك أمرهم وستكون الدائرة عليهم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي: محاسباً وناصراً لك.

أحكام ومسائل الآيتين:

وجوب طاعة رسول الله ﷺ في قوله، وفعله، وتقريره. الحكم بأن طاعة رسول الله طاعة لله ومعصيته معصية لله؛ ذلك أن ما يقوله ويأمر به إنما هو عن وحي الله له كما قال تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1]. ومن أحكام الآيتين: كشف سرائر المنافقين، وأن ما يقولونه بألسنتهم من طاعة رسول الله يخالف ما في قلوبهم وفي ذلك وعيد شديد لهم.

---

(١) سورة النجم الآية ٤ .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ توبيخ لهؤلاء المنافقين بأنهم لو تدبروا القرآن بالتأمل والتبصر في أحكامه، وأوامره ونواهيه لعرفوا أنه كتاب محكم في معانيه، وفي قصصه، وفيما أخبر به؛ ولعرفوا كذلك أنه إعجاز، وأنه كلام الله الذي لا يتبدل ولا يتغير؛ ولعرفوا كذلك أن ما جاء به الرسول هو من عند الله وأن في طاعته خيراً لهم في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ وفي هذا رد على سفهاء المشركين وجهلتهم، والمعنى أن القرآن لو كان كما قالوا أنه مختلق لوجدوا فيه تناقضاً واضطراباً، وحاشا أن يكون القرآن كذلك؛ لأنه كلام الله المعجز الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله كما قال عز وجل ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨ .

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ ﴾ المراد به ضعفة المسلمين وبسطاؤهم ممن كانوا يسمعون شيئاً عن غزوات رسول الله ﷺ أو أخباره فيفشونه دون التأكد عن حقيقته مما يفتح مجالاً للقيل والقال وقد تؤدي بساطتهم إلى سماع أخبار وروايات غير صحيحة من المنافقين فيصدقونها ثم يذيعونها دون روية وتبصر في مدى صحتها. ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ أي: لو أنهم عرضوا ما كانوا يسمعونه على الرسول، أو على أولي الأمر من العارفين المدركين لعلموا ما يجب أن يفشى أو يذاع من هذا العلم، وما يجب من كتمانه. وشاهده أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه من خبر أن رسول الله ﷺ طلق نساءه جاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله عليه الصلاة والسلام فاستفهمه قائلاً: أطلّقت نساءك؟ فقال: (لا) فقال عمر: قلت الله أكبر، فقمت من باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه فنزلت هذه الآية فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر(١). ومعنى يستنبطونه أي يستخرجون العلم من مكنوناته.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾

---

(١) أخرجه مسلم مطولاً في كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، برقم (١٤٧٩)، صحيح مسلم بشرح النووي ج٦ ص٤٠١٨ .

أي: أنه لولا منة الله وفضله عليكم وذلك بإرسال الرسول وإنزال القرآن لاتبعتم الشيطان أي: لبقيتم على الكفر والشرك.

أحكام ومسائل الآيتين:

من الأحكام وجوب تدبر القرآن في معانيه وأحكامه، وذم الذين لا يتدبرونه. ومنها: وجوب التحري في دقة القول وصحته، وعدم إفشاء أسرار الحرب حال الجهاد، ووجوب رد الأمور المتشابهة إلى أصحابها من العلماء الراسخين وأهل الرأي المدركين، والحذر مما يبثه المنافقون من الأخبار الكاذبة والإشاعات المغرضة التي تهدف إلى زعزعة الثقة والطمأنينة في نفوس العامة من الناس لتحقيق مآربهم في الكيد للمسلمين. وشاهد هذا من السنة قول رسول الله ﷺ: (**كفى بالمرء أن يحدث بكل ما سمع**)[1]. ومنها: نهيه عليه الصلاة والسلام عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال[2].

قلت: ومن معجزات كتاب الله أنه حذر الأمة منذ أربعة عشر قرناً مما قد تتعرض له من الإرجاف، وزعزعة كيانها عن طريق إذاعة الأخبار الكاذبة سواء من قبل البسطاء القليلي الإدراك الضعاف الرأي والبصيرة، أو من قبل الأعداء من المنافقين، ومن في حكمهم

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، صحيح مسلم بشرح النووي ج مقدمة ص٢٥٢ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال، برقم (٢٤٠٨)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٥ ص٨٣، بلفظ «كره لكم قيل وقال ..».

ممن يكيدون للأمة ببث الأخبار الكاذبة والأقوال الفاسدة وإيقاع الأراجيف لتثبيط عزائمها، وتفكيك كيانها، وإفساد عقيدتها، وقيمها مما هو محسوس في هذا الزمان.

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾.

بيان الآية:

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أمر لرسول الله ﷺ أن يقاتل في سبيل الله ولو كان وحده، وفيه رد على المثبطين والراغبين في القعود عن القتال. وشاهده قوله عليه الصلاة والسلام: (**فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي**)[1]. ولعل هذه الآية نزلت في بدر الصغرى حين واعد أبو سفيان رسول الله ﷺ بعد معركة أحد أن يلقاه في بدر الصغرى. ورغم ما كان عليه المسلمون من النهك والجراح وفقد العديد من الرجال في معركة أحد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في الشجاعة والفداء، والعزم على

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشرط، برقم (٢٧٣١ - ٢٧٣٢)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٥ ص٣٨٨، والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٤٢٨ .

مواصلة الحرب مع قريش حتى يظهر الله دينه. فلما جاء الميعاد خرج عليه الصلاة والسلام -كما ذكر آنفاً- ولم يكن معه غير سبعين من الرجال وقد قذف الله الرعب في قلب أبي سفيان ومن معه فلم يخرج للقتال، وعاد رسول الله ﷺ وصحبه وهم أصلب عوداً، وأشد عزيمة، وأقوى إرادة، وقد غنموا من تجارة الموسم ما غنموا وخسر المشركون[1].

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي: عليك بنفسك في الخروج للقتال في سبيل الله. ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ادعهم وحثهم على الخروج معك إلى القتال؛ وذلك أنه حين بدأ الخروج للقاء المشركين في بدر الصغرى تثاقل بعض المسلمين عن الخروج خاصة بعد معركة أحد فقال الله لا تكلف إلا أنت، أما الآخرين فعليك حثهم على الخروج معك. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: بأس قريش وقد كفه عزوجل حين رجعوا إلى مكة تاركين القتل. ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ أي: أشد قوة وأعظم سلطاناً. ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي: أشد عذاباً للكافرين.

أحكام ومسائل الآية:

القتال مفروض على رسول الله ﷺ، وعلى المؤمنين من أمته. وكان

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ص٣٢١، وزاد المسير لابن الجوزي ص٣٠٦ .

نفر من المسلمين يحرضون عليه قبل فرضه فلما فرض وهنوا ربما لحداثتهم بالإسلام -كما ذكر من قبل- أو لأن الذين وهنوا كانوا منافقين فقالوا: بأفواههم ما ليس في قلوبهم فلذلك أمر الله نبيه أن يقاتل ولو كان وحده؛ ذلك أنه واعد قريشاً في بدر الصغرى وقد تكفل الله بنصره بجند من عنده إذا ثبت المشركون للقتال. وشاهده قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: (**إن الله أمرني أن أحرِّق قريشاً قلت: أي رب إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة قال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك وانفق فسننفق عليك وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك**)[1].

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

بيان الآية:

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ الشفاعة الحسنة كل ما يعمل المرء لأخيه المسلم من عمل يكون له فيه خير، أو يكف عنه شراً. ومن شروطها ألا يأخذ عليها أجراً فإن أخذ عليها أجراً أصبحت رشوة وقد

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج١١ ص٧٠٧٦, كتاب صفة الجنة باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٨٦٥)، ومعنى نغزك أي نعينك.

ورد في الحديث أن رسول الله لعن الراشي والمرتشي في الحكم[١]. ومن شروطها: ألا تكون في حد من حدود الله، فقد غضب رسول الله ﷺ على أسامة بن زيد حين شفع في المخزومية التي سرقت فقال عليه الصلاة والسلام: (**أتشفع في حد من حدود الله**) ثم قام فخطب فقال (**يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**)[٢]. ومن شروط الشفاعة: ألا تكون في عمل سيئ.

﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ أي: من الأجر. ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: أن من شفع في أمر سوء يكون له كفل أي: وزر في شفاعته. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي: مقتدراً أو حفيظاً.

أحكام ومسائل الآية:

الحكم بأن للشفاعة في الخير فضلاً كبيراً لقول رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الأحكام، باب ما في الراشي والمرتشي في الحكم برقم (١٣٣٦ - ١٣٣٧)، الترمذي ج٣ ص٦٢٢ - ٦٢٣، وأبو داود في كتاب الأقضية، باب في كراهية الرشوة، برقم (٣٥٨٠)، سنن أبي داود ج٣ ص٢٩١، وابن ماجة في كتاب الأحكام باب التغليظ في الحيف والرشوة برقم (٢٣١٣)، سنن ابن ماجة ج٢ ص٧٧٥، وأحمد في المسند ج٢ ص١٦٤ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان برقم (٦٧٨٨)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٢ ص٨٩ .

(اشفعوا تشفعوا ويقضي الله عز وجل على لسان نبيه ما شاء)[١].
وللشفاعة شروط منها: أن تكون في عمل خير، وألا تكون بأجر، وألا تكون في حد من حدود الله تعالى.

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

بيان الآية:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ ﴾ إفشاء التحية وعنوانها السلام مما يجب في علاقة المسلم بأخيه؛ وذلك أن هذه العلاقة قائمة على المحبة والسلم وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم)**[٢].

وإفشاء السلام مما يوجب الرد عليه بمثله أو بأحسن منه لقول الله جل ذكره ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ ﴾. وفي الحديث أن رجلاً قال لرسول الله السلام عليك فقال: **(وعليك السلام ورحمة الله)** وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله فقال: **(وعليك السلام ورحمة الله**

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب الزكاة، باب الشفاعة في الصدقة برقم (٢٥٥٥ - ٢٥٥٦)، سنن النسائي ج٥ ص٨١.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون برقم (٥٤)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص٦٤٩.

وبركاته) وقال آخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال: (**وعليك السلام**) فقال الرجل نقصتني فأين ما قال الله ثم تلا الآية فقال رسول الله ﷺ: (**إنك لم تترك لي فضلاً فرددت عليك مثله**)[1]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ أي سوف يحاسبكم على كل عمل ومنه إفشاء السلام ورده .

أحكام ومسائل الآية:

المراد بالتحية في الآية السلام بمعناه المعروف وهو «السلام عليكم». ومعناه كما قال ابن عيينة «أنت مني آمن»، وعامة المسلمين على أن السلام سنة، ورده فرض. وقيل: السلام ورده فرض على الكفاية، إن كانت جماعة، وإن كان واحداً كفى واحد[2]. وهذا هو الصحيح لأن السلام يعني الأمن والإسلام كله أمن للمؤمنين. ويسلم الراكب على الماشي، والقائم على القاعد، والقليل على الكثير. ويسلم الصغير على الكبير، ويسلم على النساء مالم يكن في ذلك فتنة، ويسلم على الصبيان، وعلى أهل القبور والسنة في السلام الجهر به وفي رده.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج٣ ص١٩٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٣٢١.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي، ج١ ص٤٦٧، وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٥٠٤، والجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٢٩٨، وروح المعاني للألوسي ج٤ ص١٤٦ .

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)﴾.

بيان الآية:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ توكيد لتوحيد الألوهية فهو الإله الواحد المعبود لا إله يعبد بحق غيره، فكل من عبد غيره معه من صنم أو وثن أو غيرهم فهو مشرك مخلد في النار مالم يتب إلى الله وهو في فسحة من العمر. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ قسم من الله جل ذكره خاطب فيه الذين شكوا في البعث. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: الآخرة وسميت القيامة لأن الناس يقومون من قبورهم متجهين لرب العالمين كما قال عز وجل ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾(١)، وقوله ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢). ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي: لا أحد أصدق من الله في قوله وفعله ووعده ووعيده تقدست أسماؤه.

أحكام ومسائل الآية:

وجوب الإقرار بألوهية الله وحده، وتوحيده في عبادته وطاعته.
ومن الأحكام: قسم الله عز وجل أنه يجمع خلقه يوم القيامة لحسابهم

---

(١) سورة المعارج من الآية ٤٣ .
(٢) سورة المطففين الآية ٦ .

وجزائهم على أعمالهم التي عملوها في الدنيا فيفرح المؤمنون في ذلك اليوم ويندم فيه الكافرون.

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٩١) ﴾.

بيان الآيات:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ قيل: في سبب نزول هذه الآية أقوال عدة منها: أنها نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول حين رجع

ومن معه من معركة أحد فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم على فئتين من الرأي؛ فئة ترى قتلهم وأخرى ترى غير ذلك(١). ومن هذه الأقوال: أن قوماً من المنافقين في المدينة استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج من المدينة إلى البادية بحجة اجتواء المدينة فلما خرجوا لحقوا بالمشركين(٢)، ومنها: أن المراد بالآية قوم آمنوا بمكة ولم يهاجروا إلى المدينة وقالوا: إن ظهر محمد فقد عرفنا وإن ظهر قومنا فذاك أحب إلينا فصار المسلمون فيهم فئتين فئة تتبرّأ منهم وفئة تتولاهم(٣).

والمراد أنهم منافقون اختلف المسلمون في كيفية معاملتهم هل يكون بالشدة أم بالتساهل معهم فأنزل الله هذه الآية متسائلاً ومتعجباً في الخلاف نحوهم مع أنهم منافقون فردهم الله إلى الكفر بسبب نفاقهم وهو معنى قوله ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ أي: أيها المؤمنون أتريدون أن تهدوهم وتعدوهم من المؤمنين وقد أضلهم الله بسبب نفاقهم وعدم تصديقهم رسول الله. ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ أي: أن من يضله الله فلن يكون له سبيل إلى الهدى والرشاد.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم﴾ برقم (٤٥٨٩)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص١٠٤، وأسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٠٦ .

(٢) زاد المسير في علم التفسير ص٣٠٨ .

(٣) تفسير الضحاك ج١ ص٢٩٩، وزاد المسير في علم التفسير ص٣٠٨ .

﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ أي: يودون أن تكونوا مثلهم في النفاق والكفر لأن السيئ يتمنى أن يكون الناس مثله في السوء. ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي: لا توالوهم ولا تصادقوهم حتى تروا أنهم هاجروا لله ورسوله بعقيدة صحيحة. ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ ﴾ أي: إن تولوا وأعرضوا فعليكم أن تتولوا أمرهم إما بالأسر أو بالقتل في الحل أو الحرم. ﴿ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴾ توكيد لعدم ممالأتهم ومصادقتهم.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ هذا استثناء من الحكم خاص بالذين يلجأون إلى من بينهم وبين المسلمين عهد أو مهادنة كما في صلح الحديبية؛ فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم فله، ومن أحب أن يدخل في صلح رسول الله ﷺ وأصحابه وعهدهم فله[١]. ﴿ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ ﴾ وهذا استثناء آخر للذين يعتريهم الضيق في صدورهم يبغضون مقاتلة المسلمين ويصعب عليهم أن يقاتلوا قومهم فهم بمثابة المحايدين ليسوا مع المسلمين ولا ضدهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٤٤١ .

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ﴾ أي: لو أراد الله لسلط عليكم المشركين فيقاتلوكم إما عقوبة لكم على ذنوب اقترفتموها، أو اختبار لكم لمعرفة مدى ثباتكم وإيمانكم. وشاهده قوله عزوجل ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1]. ولكنه رحيم ولطيف بكم فلم يجعل لهم عليكم سلطاناً. ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: إن لم يشتركوا معكم في قتال وبادروكم بالسلم. ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: فعليكم أن تكفوا عنهم وتساعدوهم.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ هذه الآية مثل سابقتها في الحكم وقيل: إنها نزلت في أناس من أهل مكة يأتون إلى رسول الله ﷺ فيدعون الإسلام ظاهراً ثم يرجعون إلى قريش فيعبدون معهم الأوثان وهدفهم مسالمة المسلمين والأمن منهم، ومسالمة الكفار والأمن منهم[2] وقيل: إنها نزلت في أسد وغطفان قدموا المدينة فأسلموا ثم رجعوا فكفروا. ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: كلّما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين ﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ أي: نكثوا عهدهم مع المسلمين وصاروا ضدهم. ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ

(١) سورة آل عمران من الآية ١٤١ .
(٢) الدر المنثور ج٢ ص٣٤٢ .

﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾ أي: افعلوا ذلك بهم حيثما وجدتموهم. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ أي: قامت الحجة عليهم بنكث عهودهم فحق لكم قتالهم.

أحكام ومسائل الآيات:

إذا ظهر نفاق قوم للعيان فلا يجوز الاختلاف حولهم بل يجب وصفهم به ومعاملتهم على أساسه؛ لأن المنافقين من أخطر الأعداء لما يظهرونه من محبتهم للمسلمين بينما هم يعملون على محاربتهم ولهذا جعل الله عقابهم أشد من عقاب بعض الكافرين في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾(١). ومن الأحكام في الآيات: أن الله لا يضل إلا من أضل نفسه بسبب عصيانه لله ورسوله، وشاهده قوله جل ذكره ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ أي: نكّسهم وردهم إلى الكفر بسبب فعلهم.

ومن الأحكام: أن المنافقين ومن في حكمهم يودون أن يكون الناس مثلهم في نفاقهم وفسادهم. ومنها: تحريم موالاة المنافقين حتى يكونوا على الدين الذي عليه المؤمنون من صحة العقيدة وصحة الإيمان والقبول بأحكام الله، فإن لم يكونوا كذلك وجبت مجاهدتهم. ويستثنى من ذلك من لجأ إلى من بينه وبين المسلمين

(١) سورة النساء الآية ١٤٥ .

عهد وأمان(١). كما يستثنى من ذلك من يكون في حكم المعاهدين الذين قالوا: لا نكون معكم ولا عليكم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ هذه الآية نزلت في عياش بن ربيعة؛ فقد أسلم وهاجر إلى المدينة فأقسمت أمه ألا تأكل ولا تشرب ولا تنام تحت سقف حتى يرجع فخرج أخوه أبو جهل -وهو أخوه لأمه- ومعه الحارث بن زيد بن أنيسة فأتياه وهو في حصن فضربه أبو جهل وقال: أليس محمد يحثك على صلة الرحم ؟ ارجع وبرّ أمك وأنت على دينك، فنزل من الحصن وذهب معهما فلما تركا المدينة كتفاه وجلده كل واحد مائة جلدة

(١) قيل إن هذا مما نسخ، ينظر تفسير القرآن العظيم ج١ ص٥٠٥ .

فقال عياش للحارث: هذا أخي فمن أنت يا حارث حتى تضربني؟ علي إن وجدتك خالياً أن أقتلك. فقدما به على أمه فأصرت عليه أن يرتد ففعل، ثم أسلم وهاجر إلى المدينة. وقد أسلم الحارث كذلك وهاجر فلقيه عياش في قباء ولم يكن قد عرف بإسلامه فقتله، ثم أُخبر بإسلامه فأتى رسول الله ﷺ فقال: قتلته ولم أكن أعرف إسلامه(١). فنزلت هذه الآية تحكم بأنه لا يحل لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا ما كان عن طريق الخطأ. هذا في الكتاب، أما في السنة فقول رسول الله ﷺ: (**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إلَه إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الزاني والمفارق لدينه التارك للجماعة**)(٢).

قوله ﴿إِلَّا خَطَئًا﴾ أي: من غير قصد كما لو رمى غرضاً فأصاب إنساناً فقتله. ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: من قتل آخر خطأ فعليه تحرير رقبة أي: إعتاقها كفارة عن خطئه. ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ أي: العوض الذي يعطى لأهل القتيل. ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ ومعناه إن تصدقوا فتنازلوا عنها عفوا منهم. ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٠٩، وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٥٠٦ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ برقم (٦٨٧٨)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٢ ص٢٠٩ .

﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ والمراد أنه إذا كان مسلماً وأهله كفار وقد تعرض للقتل الخطأ وهو بينهم، وجب على من قتله الكفارة وهي: تحرير رقبة، ولكن لا دية لأهله لكونهم ما زالوا على الكفر. وقيل: السبب في ذلك أن الرجل كان يسلم ويكون بين قومه المشركين فيغزوهم المسلمون فَيُقْتلُ خطأ ظنّاً أنه كافر مثلهم. ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ أي: إن قتل خطأ وكان من قوم تعاهدوا مع المسلمين فله دية تسلم لأهله بحكم المعاهدة، وعلى القاتل الكفارة وهي تحرير رقبة مؤمنة.

قوله ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ أي: أن من لم يستطع ملك رقبة مؤمنة يعتقها كفارة عن خطئه فعليه أن يصوم شهرين متتابعين دون انقطاع. ﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: أن هذا الحكم الذي فيه التخفيف في الكفارة شرعه الله لكم للتوبة مما حدث منكم. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ سبق تفسيره.

أحكام ومسائل الآية:

الحكم بوجوب الدية، والكفارة في قتل المؤمن خطأ. والدية إما عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين. وتجب الدية وجوباً لازماً مالم يعفُ أولياء المقتول. وفيها: الحكم بأن من قُتِلَ خطأ وهو مؤمن

ولكنه من قوم أعداء للمسلمين وجب على القاتل الكفارة لأنه قتل نفساً مؤمنة. وأما الدية فاختلف الفقهاء في ذلك فقيل: لا تجب لأهله لكيلا يستعينوا بها على حرب المسلمين، وقيل: لم تجب الدية لهم لأنه ليس بينهم وبين الله ميثاق ولا عهد.

ويرى الإمام أبو حنيفة: أن العاصم للعبد في دمه شهادة أن (لا إلَه إلا الله) والعاصم له في ماله الدار. فإذا أسلم وبقي مقيماً في دار الحرب فقد اعتصم عصمة قويمة يجب بها على قاتله الكفارة وليس له عصمة مقومة فدمه وماله هدر[١].

وعند الإمام الشافعي: أن الإسلام يعصم مال المسلم وأهله ودمه حيث كانوا. وفي هذا قال رحمه الله: «إذا دخل مسلم في دار حرب ثم قتله مسلم فعليه تحرير رقبة مؤمنة ولا عقل له إذا قتله وهو لا يعرفه (بعينه مسلماً). وكذلك أن يغير فيقتل من لقي أو يلقى منفرداً بهيئة المشركين في دارهم فيقتله. وكذلك إن قتله في سرية منهم أو طريق من طرقهم التي يلقون بها فكل هذا عمد خطأ يلزمه اسم الخطأ لأنه خطأ بأنه لم يعمد قتله وهو مسلم وإن كان عمداً بالقتل.. وهكذا لو قتله أسيراً أو محبوساً نائماً أو بهيئة لا تشبه هيئة أهل الشرك وتشبه هيئة أهل الإسلام لأن المشرك قد يتهيأ بهيئة المسلم والمسلم بهيئة المشرك ببلاد الشرك وكان القول قوله فيه.

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ج٧ ص٢٥٣ .

فإن كان للمسلم المقتول ولاة فادعوا أنه قتله (وهو يعلمه مسلماً) أحلف فإن حلف برئ وإن نكل حلفوا خمسين يميناً لقد قتله وهو يعلمه مسلماً، وكان لهم القود إن كان قتله عامداً لقتله. وإن كان أراد غيره وأصابه فعلى عاقلته الدية وعليه الكفارة ثم قال: وهكذا كل من قتله وهو يعلمه مسلماً منهم أو أسيراً فيهم أو مستأمناً عندهم لتجارة أو رسالة أو غير ذلك فعليه في العمد القود وفي الخطأ الكفارة وعلى عاقلته الدية. وإذا أسلم الحربي وله ولد صغار وأمهم كافرة أو أسلمت أمهم وهو كافر فللولد حكم الإيمان بأي الأبوين أسلم فيقاد قاتله ويكون له دية مسلم ولا يعذر أحد إن قال: لم أعلمه يكون له حكم الإسلام إلا بإسلام أبويه معاً»[1].

وقد قررت الآية الدية ولم تقرر مقدارها فتركها الله للاجتهاد حسب الزمان. وقد قدَّرها رسول الله ﷺ مائة من الإبل وودى بهذا المقدار في قتل عبد الله بن سهل في خيبر[2]. وتكون على العاقلة في ثلاث سنين وهي على البالغين من الرجال وهي كما في الكبير تكون في الجنين إذا ألقته أمه حياً ثم مات.

وفي دية المرأة خلاف فجمهور الفقهاء على أنها النصف من دية

(١) قليوبي وعميرة ج٤ ص١٦٢، ومغني المحتاج ج٤ ص١٠٨ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب كتاب الحاكم إلى عماله والقاضي إلى أمنائه، برقم (٧١٩٢)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٣ ص١٩٦ .

الرجل استدلالاً بأحاديث رويت عن رسول الله ﷺ منها: حديث معاذ بن جبل: قول رسول الله عليه الصلاة والسلام (**دية المرأة على النصف من دية الرجل**)(١). وما روي أيضاً عن علي موقوفاً بهذا المعنى، واستدلالاً أيضاً باجماع الصحابة، ولأن لها نصف ميراث الرجل وأن شهادة امرأتين بشهادة رجل. وقد خالف في ذلك قلة من الفقهاء كالأصم وابن عطية(٢)، وعدد من العلماء المعاصرين وقد استدلوا بما روي أن رسول الله ﷺ قال: (**وأن في النفس الدية مائة من الإبل**)(٣). وهذا يشمل الذكر والأنثى كما استدلوا بأن الأحاديث التي وردت عن رسول الله ﷺ في تنصيف دية المرأة أخبار آحاد لا تنسخ الحكم القطعي في القرآن كما استدلوا على ذلك بأن المرأة لا تختلف عن الرجل من حيث الآدمية. ولما كانت الدية مقابل إهدار حياتها فيجب لها مثل ما يجب له من الدية.

قلت: وما لم يكن هناك نص من القرآن يقضي بتنصيف دية المرأة أو مساواتها مع الرجل في الدية كما أنه لا يظهر أن هناك

---

(١) إرواء الغليل ج٧ ص٣٠٦، برقم (٢٢٥٠) وقال الألباني ضعيف.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج٥ ص٢٣٩ .

(٣) جاء هذا النص في خطاب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن عن الفرائض والسنن والديات وفيه «من محمد النبي ﷺ إلى شرحبيل بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والحارث بن عبد كلال مثل ذي رعين ومعافر وحمدان أما بعد: إن من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قودان إن رضي أولياء المقتول وإن في النفس الدية مائة من الإبل ... إلخ. ينظر: النسائي في كتاب القسامة برقم (٤٨٦٨)، سنن النسائي ج٨ ص٤٢٩ .

حديثاً قاطعاً يستدل به على هذا التنصيف من عدمه لأن ما ورد من أحاديث إنما هي أحاديث آحاد ومراسيل فتبقى المسألة في دائرة الاجتهاد. وإذا قلنا إن المرأة تماثل الرجل في آدميتها - وهو قول صحيح - جاز القول بالتساوي بينهما في الدية.

وأما كون الدية من الإبل في عهد رسول الله ﷺ فلا يعني أن هذا لازم في كل زمان فقد تقوَّم بالذهب أو بأي عملة معتمدة، وقد لا يكون مقدارها بمقدار مائة من الإبل فإن قيمة الإبل قد تتفاوت من زمان إلى زمان، فناسب أن تكون الدية محل النظر من الحاكم الشرعي حسب واقع الزمان لأن رسول الله ﷺ لم يحدد هذا المقدار تحديداً قاطعاً والله أعلم بالصواب.

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾.

بيان الآية:

في هذه الآية وعيد شديد وتغليظ في قتل المؤمن بغير حق وشاهده أيضاً قول الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾(١). وقوله ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ

(١) سورة الفرقان من الآية ٦٨ .

ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾[١]. ومن السنة قول رسول الله ﷺ: **(أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء)**[٢]. وقوله عليه الصلاة والسلام: **(لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً)**[٣]. وقوله: **(الكبائر الإشراك بالله واليمين الغموس وعقوق الوالدين أو قال وقتل النفس)**[٤]. والأحاديث في تغليظ عقوبة قتل العمد كثيرة.

وهل يقبل لقاتل العمد توبة ؟ هذا ما اختلفت فيه الآراء وقد روى ابن جبير قال: اختلف أهل الكوفة في هذه المسألة فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية وما نسخها شيء[٥]. والجمهور على أنه إن تاب إلى الله وأصلح توبته بدل الله سيئاته حسنات بدليل قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾[٦]. وقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا

---

(١) سورة الإسراء من الآية ٣٣ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الديات برقم (٦٨٦٤)، صحيح البخاري مع الفتح ج١٢ ص١٩٤، وأخرجه الترمذي في كتاب الديات، باب الحكم في الدماء برقم (١٣٩٦ - ١٣٩٧)، سنن الترمذي ج٤ ص١٠، وأحمد في المسند ج١ ص٤٤١ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الديات برقم (٦٨٦٢)، صحيح البخاري مع الفتح ج١٢ ص١٩٤ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ .. برقم (٦٨٧٠)، صحيح البخاري مع الفتح ج١٢ ص١٩٩ .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قول الله تعالى ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ برقم (٤٥٩٠)، صحيح البخاري مع الفتح ج٨ ص١٠٦ .

(٦) سورة الفرقان من الآية ٧٠ .

دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[١]. وأما قوله جل ذكره ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ فهذا هو الجزاء الذي يستحقه إذا أراد الله مجازاته ولم يقبل منه توبة وقال بهذا جماعة من السلف.

أحكام ومسائل الآية:

يجب في قتل العمد القصاص، أو الدية حسب ما يراه ولي الدم فإن عفا عن القصاص فله ذلك وأجره على الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾.

بيان الآية:

﴿إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ أي: إذا خرجتم للجهاد والمسير في الأرض فتثبتوا في تصرفاتكم. ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت في قوم من المسلمين

(١) سورة النساء من الآية ٤٨ .

مروا في سفرهم برجل معه جمل وغنيمات يبيعها فسلم على القوم وقال: لا إلَه إلا الله محمد رسول الله فحمل عليه أحدهم فقتله وأخذ غنيماته فأنزل الله هذه الآية ودفع رسول الله ﷺ ديته إلى أهله ورد عليهم غنيماته. وقيل: إن القاتل هو محلِّم بن جثالة أما المقتول فهو عامر بن الاضبط الأشجعي فدعا رسول الله على محلِّم فما عاش بعد ذلك إلا سبعة أيام ولما دفن رفضته الأرض ثلاث مرات فلما رأوا أن الأرض ترفضه ألقوه في إحدى الشعاب وقال رسول الله ﷺ: **(إن الأرض لتقبل من هو شر منه ولكن وعظ القوم ألا يعودوا)**[1].

وقيل: إن الآية نزلت في أسامة بن زيد لما قتل مرداس بن نهيك من أهل فدك وقد أسلم هذا ولم يسلم قومه فغزتهم سرية لرسول الله ﷺ فهربوا إلا مرداس لثقته بإسلامه. ولما كبرت السرية كبر معهم وقال: لا إلَه إلا الله محمد رسول الله ومع ذلك قتله أسامة بن زيد وقد وجد رسول الله ﷺ وجداً شديداً وقال: **(قتلتموه ارادة ما معه)** ولما قال أسامة: استغفر لي قال: **(فكيف بلا إلَه إلا الله)** قال أسامة: فما زال يكررها حتى وددت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم استغفر لي وقال: **(أعتق رقبة)**[2].

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣١٤ مختصراً، ومعالم التنزيل ص٣٢٨ مختصراً، وزاد المسير ص٣١٤ مختصراً.

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣١٥-٣١٦، بدون ذكر «استغفر لي»، وزاد المسير ص٣١٥، ومعالم التنزيل ص٣٢٨، والبخاري في كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة برقم (٤٢٦٩)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٧ ص٥٩٠ .

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إن سبب عدم تثبتكم وما أدى إليه ذلك من قتل امرئ لا يستحق القتل بسبب إيمانه إنما هو طلبكم للحياة الدنيا. ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: أن ما عند الله هو أبقى وأكثر من غنيمة تطلبونها وتكون سبباً في قتل نفس مؤمنة. ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: أنكم كنتم تخفون إسلامكم عن قومكم خوفاً منهم على أنفسكم فهذا وأمثاله كان مثلكم يخفي إسلامه خوفاً من قومه. ولما دخلتم في الإسلام عصمكم في أنفسكم وأموالكم فكما كنتم كذلك كان عليكم أن تعاملوا غيركم بمثل ما تم التعامل به معكم من عصمة الإسلام لدمائكم. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام فعاملوا غيركم بالحرص على أنفسهم وأموالهم كحرصكم على أنفسكم وأموالكم. ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ توكيد لوجوب التثبت في التصرف. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: يعلم بما تعملونه خبير بأفعالكم وتصرفاتكم.

أحكام ومسائل الآية:

الحكم بأن المرء إذا أقر بالشهادتين صار مسلماً وعصم الإسلام دمه وماله وأهله؛ فمن قتله بعد إقراره بالشهادتين قُتِلَ به. وفيها: كذلك الحكم بوجوب التثبت في التصرف دفعاً للخطأ.

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

بيان الآيتين:

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ روى زيد ابن ثابت قال: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيته السكينة فوقعت فخذه عليه الصلاة والسلام على فخذي فما وجدت ثقل شيء أثقل منها ثم سري عنه فقال: **(اكتب)** فكتبت في كتف **(لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله)** فقام ابن أم مكتوم وكان أعمى فقال: يا رسول الله فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين فلما قضى كلامه غشيت رسول الله ﷺ السكينة فوقعت فخذه الثانية كما وجدت في المرة الأولى ثم سري عن رسول الله ﷺ فقال: **(اقرأ يا زيد)** فقرأت **(لا يستوي القاعدون من المؤمنين)** فقال رسول الله ﷺ: **(غير أولي الضرر)** قال زيد: فأنزل الله الآية وحدها فألحقتها[1].

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣١٦ - ٣١٧، والبخاري في كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .. برقم (٤٥٩٢)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص١٠٨، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب في الرخصة في القعود من العذر، برقم (٥٠٧)، سنن أبي داود ج٢ ص٣٤٧ .

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أي: فضل هؤلاء على القاعدين لعذر درجة وهؤلاء لهم أجر عظيم لأنهم ماقعدوا عن الجهاد إلا لعذر كالمرض. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: **(لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه)** قالوا: وهم بالمدينة يارسول الله قال: **(نعم حبسهم العذر)**[١]. وشاهده قوله عز وجل ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أي: لغير عذر. ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهي: الدرجات الكبيرة لما رواه أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: **(إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض)**[٢].

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير عدم تساوي المجاهدين في الفضل مع الذين لا يجاهدون؛ فقد فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين. ومن الأحكام: أن المرضى ومن في حكمهم من أهل الأعذار يؤجرون مثل المجاهدين إذا كانت نيتهم الجهاد، ولكنهم لم يقدروا عليه بسبب أعذارهم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب في الرخصة في القعود من العذر برقم (٢٥٠٨) سنن أبي داود ج٢ ص٣٤٨، ومسلم في كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر برقم (١٩١١)، صحيح مسلم بشرح النووي ج٨ ص٥٢٧٦ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، فتح الباري ج٦ ص١٤، برقم (٢٧٩٠).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي: تقبض أرواحهم. ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ المراد بذلك جماعة من أهل مكة أسلموا وأظهروا إسلامهم فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لم يهاجروا معه بل أقاموا مع قومهم المشركين فهم ظالمون لأنفسهم بتركهم الهجرة إلى المدينة. ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ أي: تقول لهم الملائكة في سؤال توبيخ لماذا لم تهاجروا فيجيبونهم ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أننا ضعاف في المكان الذي كنا فيه، ولا نقدر على الخروج منه فترد عليهم الملائكة ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ وهنا صعب عليهم أن يجيبوا لأن عذرهم غير صحيح لأنهم كانوا يقدرون على الهجرة ولكنهم فضلوا القيام مع قومهم. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي: مصيرهم إلى النار وهذه أسوأ مصير لهم .

وقد استثنى الله من هذا الوعيد في الآية الثانية الضعفاء من الرجال والنساء والولدان الذين ليس لهم قدرة ولا حيلة في الخروج بسبب زمانتهم، أو فقرهم، أو عدم قدرتهم على معرفة الطريق إلى المدينة أو بسبب صغر سنهم فقال ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ أي: لهذه الأسباب. ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: معرفة الطريق إلى المدينة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي: لعل الله أن يعفو عنهم بسبب عدم هجرتهم، وكان رسول الله ﷺ يدعو للمستضعفين فإذا صلى العشاء وقال: سمع الله لمن حمده قال: (**اللهم نج عياش بن أبي ربيعة اللهم نج سلمة بن هشام اللهم نج الوليد بن الوليد اللهم نج المستضعفين من المؤمنين اللهم شدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها سنين كسني يوسف**)(١). وهو في كل الأحوال عفو غفور.

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بوجوب الهجرة من المكان الذي لا يستطيع فيه الإنسان أداء عبادة ربه. ويستثنى من ذلك من له عذر كالضعفة من الرجال، والنساء، والصبيان الذين لا يستطيعون الهجرة بحكم عجزهم المادي أو المعنوي، ومن ذلك عدم وجود مكان آخر يؤويهم كما هو الحال فيمن ضيق عليه في بلده ولم يجد بلداً يقبله للهجرة إليه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ برقم (٤٥٩٨)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص١١٣ .

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ أي: يجد في الأرض غير الأرض التي فيها متزحزحاً له للهجرة لعبادة ربه بحرية وأمان ﴿وَسَعَةً﴾ أي: ويجد فيها رزقاً يغنيه عن الرزق في المكان الذي هاجر منه. ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أن من يخرج من بيته متجهاً إلى الله بقلبه عاقداً النية على ترك مكان الشرك أو الكفر ثم يتوفاه الله وهو في الطريق فقد حصل له أجر المهاجر الذي أتم هجرته. وقيل: إن هذه الآية نزلت في جندب بن ضمرة، وكان من المستضعفين في مكة لمرضه. فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لبنيه: اخرجوني فهيئ له فراش ثم وضع عليه وخرج فمات في التنعيم[1]. وقيل: إنها نزلت في خالد بن حزام بن خويلد ابن أخي خديجة حين هاجر إلى أرض الحبشة فلدغته حية في الطريق فمات قبل

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣١٩، ومعالم التنزيل ص٣٣١، وتفسير مقاتل ج١ ص٢٥٢.

أن يبلغ أرض الحبشة[١]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: غفر له ما تقدم منه من الشرك. ﴿رَّحِيمًا﴾ أي: رحمه جزاء نيته في الهجرة.

أحكام ومسائل الآية:

الأصل في الأعمال النية لقول رسول الله ﷺ: (**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**)[٢].

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إذا سافرتم، والضرب في الأرض السفر للجهاد والتجارة ونحوهما. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المراد به قصر الصلاة الرباعية بتخفيفها إلى ركعتين في الظهر والعصر والعشاء لقول ابن عباس: فرض الله الصلاة على لسان نبيه في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة. وقد اختلف في المسافة التي تقصر فيها الصلاة والجمهور على أنها ثمانية

---

(١) الدر المنثور ج٢ ص٣٧٠ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي برقم (١)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١ ص١٥.

وأربعون ميلاً[١]، كما اختلف فيما إذا كان الأفضل القصر أم الإتمام والجمهور على أن القصر سنة لأن رسول الله ﷺ كان يقصر في كل أسفاره[٢]. ومن قال: إن الأفضل هو الإتمام استدل بما روي عن النبي ﷺ أنه أتم الصلاة في السفر[٣]، كما استدل بما روته عائشة قالت: اعتمرت مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة حتى إذا قدمت مكة قلت يارسول الله بأبي أنت وأمي قصرت وأتممت وصمت وأفطرت فقال: (**أحسنت يا عائشة**) وما عاب علي[٤].

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾

في هذا روى يعلى بن أمية قال: سألت عمر عن هذه الآية وقد أَمِن الناس قال: عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ فقال: (**صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**)[٥]. وهذا الحديث يوكد سنيتها.

---

(١) شرح الزرقاني لعبد الباقي الزرقاني ج٢ ص٦٦، ومغني المحتاج للشربيني الخطيب ج١ ص٢٦٦، والكافي لابن قدامة ج١ ص٤٤٥ .

(٢) صحيح البخاري كتاب التقصير، باب الصلاة بمنى برقم (١٠٨٤)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٢ ص٦٥٦، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة المسافرين وقصرها برقم (٦٩٣)، صحيح مسلم بشرح النووي ج٣ ص٢١١٤ .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، في كتاب الصلاة ج٣ ص١٤١ .

(٤) أخرجه النسائي في كتاب تقصير الصلاة في السفر، باب المقام الذي يقصر بمثله الصلاة، برقم (١٤٥٥)، سنن النسائي ج٣ ص١٣٨ ، والبيهقي في السنن الكبرى في كتاب الصلاة ج٣ ص١٤٢ .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم (٦٨٦)، صحيح مسلم بشرح النووي ج٣ ص٢١١ .

أحكام ومسائل الآية:

الحكم بمشروعية صلاة القصر في السفر، وقد اختلف العلماء في كون القصر واجباً أم سنة. وجمهور العلماء على أنه سنة.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

بيان الآية:

سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله ﷺ في عسفان[1] فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا:

(١) عُسفان بضم العين المهملة وسكون السين المهملة بلدة تاريخية عامرة تقع شمال مكة على ثمانين كيلاً على المحجة إلى المدينة المنورة يلتقي فيها واديان وادي فيدة ووادي الصفو فيها آبار عذبة قديمة مجصصة .. منها بئر التفلة تشبه في عذوبتها بئر الجعرانة قيل إن رسول الله ﷺ تفل فيها عندما مر بها في غزوة الفتح. انظر الحديث عنها في الجزء الثاني من معجم معالم الحجاز معالم مكة التاريخية والأثرية لعاتق بن غيث البلادي ص١٨٨ .

- أي: المشركون - لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ثم قالوا تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم فنزل جبريل بهذه الآية. ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال: فحضرت الصلاة فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح فصفنا خلفه صفين قال: ثم ركع فركعنا جميعاً ثم رفع فرفعنا جميعاً ثم سجد رسول الله ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم ركع فركعوا جميعاً ثم رفع فرفعوا جميعاً ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا ثم سلم عليهم ثم انصرف. قال الراوي: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم(١).

قوله ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: يجب أن تكون أسلحة المصلين معهم لأن تركها مما يغري العدو بالهجوم عليهم وهو أصل قوله تعالى ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٢٠-٣٢١ مختصراً، وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٥١٩، والدر المنثور ج٢ ص٣٧٥، والترمذي في كتاب التفسير برقم (٣٠٣٥)، سنن الترمذي ج٥ ص٢٢٧، وزاد المسير في علم التفسير ص٣١٩، ومعالم التنزيل ص٣٣٢.

مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ﴾ هذا ترخيص بعدم حمل السلاح في الصلاة أثناء المطر لما يؤدي إليه ذلك من فسادها. وقيل: في سبب نزولها إنه لما انهزم المشركون يوم بطن نخلة كان يوماً ممطراً فخرج رسول الله ﷺ لقضاء حاجته واضعاً سلاحه فرآه المشركون بعيداً عن أصحابه فقصده شخص اسمه غَورث بن الحارث فانحدر عليه من الجبل شاهراً سيفه فقال: من يمنعك مني اليوم ؟ فقال: (الله) ثم قال: (**اللهم اكفني الغورث بما شئت**) فأهوى بالسيف إلى رسول الله ليضربه فانكب على وجهه لزلقة زلقها. وقيل: إن جبريل ضربه في صدره وسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: (**من يمنعك مني يا غورث؟**) فقال: لا أحد فقال: (**تشهد لي بالحق وأعطيك سيفك**) قال: لا ولكن أشهد ألا أقاتلك بعد هذا، ولا أعين عليك عدواً، فدفع إليه السيف ونزلت الآية(١).

وقوله ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ﴾ تخفيف عنهم في عدم حمل السلاح لما في حمله وثقله من زيادة المرض. ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ أي: إذا تركتم سلاحكم للضرورة فعليكم الحذر والاستعداد لحمل سلاحكم إذا احتجتم إليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ بسبب كفرهم ومعاداتهم للمؤمنين.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٣٧٢، وأخرجه أحمد في المسند ج٣ ص٣٦٥، والتبريزي في المشكاة ج٣ ص١٤٦٠، برقم (٥٣٠٥)، وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٥٢٠ .

أحكام ومسائل الآية:

الحكم بمشروعية صلاة الخوف، وهذه الصلاة متنوعة حسب واقع الاستعداد للمعركة، وموقع العدو فيها فقد يكون موقعه تجاه القبلة، وقد يكون خلافها، وقد تكون الصلاة حسب وقتها، وقد تكون رباعية كالظهر أو العصر أو ثلاثية كالمغرب. وقد يكون للمصلين وضع معين فتارة يصلون فرادى لتعذر صلاتهم جماعة بسبب بدء الحرب، وقد يصلونها وهم راكبون أو ماشون، وقد تكون الصلاة في غير وقتها بسبب نشوب المعركة كما صلى رسول الله ﷺ صلاة العصر متأخرة في غزوة الخندق فقال: (**شغلونا عن الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورهم وبطونهم ناراً**)(١).

ومن الأحكام في هذه الآية: التوكيد على وجوب صلاة الجماعة وعدم سقوطها في أي: وقت ولو كان في هذا الوقت خطر كحال الحرب مما يدل على عظم أمرها.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر برقم (٢٠٦)، صحيح مسلم بشرح النووي ج٣ ص١٩٩٣ .

تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ المراد أنكم إذا صليتم صلاة الخوف فعليكم الإكثار من ذكر الله ودعائه بالنصر والغلبة، وذلك على الحال التي أنتم عليها قائمين أو قاعدين، أو كنتم على جنوبكم من شدة الجراح أو التعب أو المرض. ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: إذا كنتم في حال أمن وعدم خوف فأتموا الصلاة كما يجب أن تكون من حيث إتمام ركوعها وسجودها وقيامها. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ أي: مفروضة ومعينة في وقتها.

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أي: لا تضعفوا في مجاهدة الكفار ومنازلتهم حتى يظهر دين الله وتكون الغلبة لكم أيها المؤمنون. ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ أي: إن كان يصيبكم جراح وآلام بسبب الحرب ومضاعفاتها ومخاطرها فإن الكفار يألمون مثلكم لما يصيبهم منكم من القتل والجراح. ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ وهذا هو الفارق بينكم وبينهم فأنتم في جهادكم ترجون

من الله الأجر والمثوبة على نصركم لدين الله وجهادكم في سبيله، أما هم فلا يرجون شيئاً بل هم الخاسرون لأنه ليس لهم غاية ولا هدف إلا خدمة أصنامهم وأوثانهم، وعملهم هذا مردود عليهم وسيجزون عليه بالعذاب. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: يعلم ما أنتم عليه من نصرة دينه وسوف يجازيكم، كما يعلم ما هم عليه من الخسران، وهو حكيم فيما يدبر به عباده.

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير استحباب ذكر الله بعد الصلاة سواء كانت صلاة خوف أم غيرها وفي كل حال يكون عليها العبد في قيامه وقعوده وفي مضجعه. ومن الأحكام: وجوب إقامة الصلاة المفروضة في أوقاتها ووفق شروطها، وأركانها، وواجباتها. ومنها: تحريم الضعف في مواجهة العدو أو الاستكانة أو الخضوع له.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ

ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ روي في سبب نزول هذه الآية أن طعمة بن أبيرق من بني ظفر سرق درعاً من جار له يسمى قتادة بن النعمان في جراب دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه فقام بإخفاء الجراب عند رجل من اليهود يدعى زيد بن السمين. ولما بحثوا عن الدرع عند طعمة لم يجدوه وحلف أنه ما أخذ الدقيق فاتبعوا أثره حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوه فقال: إن طعمة قد أودعها عنده وشهد له بذلك أناس من اليهود فانطلق بنو ظفر إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم طعمة وقالوا: إن لم تفعل هلك طعمة وساء أمره وألصقوا التهمة باليهودي فَهَمَّ رسول الله ﷺ بمعاقبته فنزلت الآية وهرب طعمة إلى مكة ونقب حائطاً لكي يسرق فسقط عليه الحائط فمات(١).

﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: احكم بما أوحى الله به إليك. وشاهد هذا

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٢١، ومعالم التنزيل ص٣٣٦، وزاد المسير ص٣٢١.

قول رسول الله ﷺ: (**ألا إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار**)(١). ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أي: لا تجادل عن أهل المتهم بني أبيرق لأنهم يجادلون بالباطل فسماهم خائنين لإلصاقهم التهمة باليهودي.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قيل: إنه أمر لرسول الله ﷺ أن يستغفر عما همَّ به من معاقبة اليهودي، وقيل: إن هذا ليس بذنب ارتكبه رسول الله ﷺ لأنه أراد أن يحكم بما ظهر له، وقيل: إن الخطاب للنبي والمراد به بنو أبيرق.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾ أي: يحاولون خيانة أنفسهم لكونهم اتهموا اليهودي ظلماً وزوراً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ وهذا في خصوص طعمة بن أبيرق وعام فيمن يعمل مثل ما عمل.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يحاولون ستر ما أصابهم من المعرة بسبب جرم طعمة. ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يستحون

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم برقم (٧١٦٩)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٣ ص١٦٨ .

منه. ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: كان يعلم تدبيرهم بإلقاء السرقة على اليهودي مع علمهم ببراءته مما لا يرضاه الله للمؤمنين. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي: كان يعرف تدبيرهم وتزويرهم وكذبهم وما قام به طعمة من سرقة الدرع وإخفائها.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ المخاطب الذين وقفوا مع طعمة وقومه بني أبيرق وجادلوا عنهم ونفوا التهمة عن طعمة وألقوها على اليهودي. ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: من يخاصم عنهم في الآخرة إذا عاقبهم الله بسوء فعلهم. ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ومن هو الذي سيكون وكيلاً عنهم يوم تعرض أعمالهم على الله مدونة في صحائفهم.

أحكام ومسائل الآيات:

تحريم الحكم بغير ما أنزل الله كما قال عز وجل ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]. ومن الأحكام: تحريم الدفاع عن الكاذب في حجته. ومنها: وجوب الاستغفار من الذنوب كبائرها وصغائرها وقد وعد الله بالتوبة على المستغفرين كما قال عز وجل في الآية التالية ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ

(١) سورة المائدة من الآية ٤٤ .

يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[١]. ومن الأحكام: تحريم الجدال عن الخونة أو نصرتهم.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

بيان الآيات:

ما زال السياق في قصة طعمة بن أبيرق وقومه فبعد أن وبَّخهم الله على سوء فعلهم وخيانتهم وظلمهم لليهودي أشار إلى رحمته بعباده ودفعهم إلى التوبة من ذنوبهم بالاستغفار منها فقال ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾ أي: يسرق. ﴿ أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ وذلك بأن يرتكب المعاصي والآثام. ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ أي: يكثر الاستغفار من ذنوبه بمعنى أن يتوب ويتبرأ منها. ﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي: يغفر الذنوب

---

(١) سورة النساء الآية ١١٠ .

ويرحم مرتكبيها إذا تابوا منها. وشاهده قول الله جل ذكره ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[١]. وشاهده من السنة قول رسول الله ﷺ: (**ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له**)[٢]. وقرأ هاتين الآيتين ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾[٣]، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾[٤].

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا ﴾ أي: ذنباً. ﴿ فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ أي: إن عاقبته ستكون عليه فيجازى عليه بالعذاب. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بما يفعله العباد. ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما يحاسبهم عليه.

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ﴾ توكيد لما ورد في الآية السابقة. ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا ﴾ أي: يتهم به امرأ لم يفعله - كما فعل طعمة بن أبيرق مع زيد اليهودي - ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أي: تحمل وزراً باتهامه غيره بذنب لم يفعله.

---

(١) سورة النساء من الآية ٦٤ .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب في الاستغفار برقم (١٥٢١)، سنن أبي داود ج١ ص٥٦٣، والترمذي في كتاب التفسير برقم (٣٠٠٦)، سنن الترمذي ج٥ ص٢١٢، وابن ماجة في كتاب الإقامة، باب ما جاء في أن الصلاة كفارة، برقم (١٣٩٥)، سنن ابن ماجة ج١ ص٤٤٦، وأحمد ج١ ص٢ .

(٣) سورة النساء من الآية ١١٠ .

(٤) سورة آل عمران من الآية ١٣٥ .

ما زال السياق في قضية طعمة بن أبيرق فقوله ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ أي: لولا ما تفضل به عليك من الوحي عن حقيقة الأمر وخيانة بني ظفر قوم طعمة. ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ أي: إن طائفة من بني ظفر أرادت أن تصدك عن معرفة ما حدث فتحكم على بريء. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: أن ما حدث منهم من الكذب والتزوير يضرهم أنفسهم. ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ لأنك لم تعلم عما حدث فحاولت أن تعمل بظاهر ما تبين لك منهم فمنّ الله عليك بالوحي عن حالهم. ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ أي: أنزل عليك القرآن والسنة وفهم أسرار الشريعة. ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ توكيد لفضله جل ذكره على نبيه ورسوله كما ورد في صدر الآية.

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بأن الله يغفر ذنوب المستغفرين ويتوب عليهم، وأن الذي يكسب خطيئة إنما يكسبها على نفسه. ومن الأحكام: تقرير خطيئة من يرتكب الذنب ثم يتهم به بريئاً. ومن مسائل الآيات: أن الكذب والجدال قد يؤثر على سامعه فيجب التثبت مما يسمعه العبد من غيره.

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

بيان الآية:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ النجوى أن يتسار اثنان بينهما وقد أريد به تناجي قوم بني أبيرق على نفي السرقة عن قريبهم طعمة. وقد يكون المراد به نهي عموم بأنه لا خير في تناجي الناس إلا إذا كان هذا التناجي من أجل عمل خير حدده الله في قوله ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(كل معروف صدقة ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق)**[1]. ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمرٌ بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله)**[2].

﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: الاصلاح بينهم فيما مناطه أموالهم، ودماؤهم، وأعراضهم. وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟)** قالوا: بلى

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، ج٣ ص٣٤٤ .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد برقم (٢٤١٢)، سنن الترمذي ج٤ ص٥٢٥، وابن ماجة في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، برقم (٣٩٧٤)، سنن ابن ماجة ج٢ ص١٣١٥.

يارسول الله قال: (**إصلاح ذات البين وفساد ذات البين الحالقة**)[١].
وقوله عليه الصلاة والسلام: (**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً**)[٢]. وقالت أم كلثوم بنت عقبة: ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء إلا في ثلاث كان رسول الله ﷺ يقول (**لا أعده كاذباً الرجل يصلح بين الناس يقول القول ولا يريد به إلا الإصلاح. والرجل يقول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها**)[٣].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: أن من يفعل بذل الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس رغبة فيما عند الله وليس حباً في الرياء أو السمعة جازاه الله بالأجر العظيم كما قال عزوجل ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أحكام ومسائل الآية:

تقرير أنّ كلام الناس لغو ما لم يتضمن أمراً بالمعروف، أو إصلاحاً بين الناس. والأمر بالمعروف جماع الفضائل والآداب التي يجب أن

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين برقم (٤٩١٩)، سنن أبي داود ج٤ ص٣٠٤، وأحمد في المسند ج٦ ص٤٤٤ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، برقم (٢٦٩٢)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٥ ص٣٥٣ .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، برقم (٤٩٢١)، سنن أبي داود ج٤ ص٣٠٥، ومسلم عن ابن شهاب في كتاب البر، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه، برقم (٦٠٥)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٠ ص٦٦٣٢ .

يتحلى بها المسلم، وينبني على ذلك النهي عن التناجي بين اثنين دون الثالث لما يؤدي إليه ذلك من وحشته وحزنه. وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه)**[١].

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾.

بيان الآية:

قال القرطبي: نزلت في ابن أبيرق السارق لما حكم النبي ﷺ عليه بالقطع وهرب إلى مكة وارتد[٢]. وقيل: إنها نزلت في نفر من قريش قدموا المدينة وأسلموا ثم انقلبوا إلى مكة مرتدين[٣]. قوله ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ** ﴾ أي: يعاد الرسول ويسلك طريق الزيغ والضلال. ﴿ **مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ** ﴾ الذي جاء به الرسول واضحاً لا ريب فيه. ﴿ **وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ الذين اهتدوا بما جاءهم من الهدى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة، برقم (٦٢٩٠)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١١ ص٨٥، وأخرجه مسلم في كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث، بغير رضاه، صحيح مسلم بشرح النووي ج٩ ص٥٨٧٥-٥٨٧٦، برقم (٢١٨٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٣٨٥ .

(٣) تفسير الضحاك ج١ ص٣٠٥ .

والبينات. ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: يترك لعبادة من وكل نفسه إليه من الأوثان والأصنام التي لا تنفعه. ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ أي: يكون مصيره النار التي سيصلاها، وهي بئس ما يصير إليه. وقيل: إن المقصود بهذا طعمة بن أبيرق لما خرج إلى مكة مرتداً.

أحكام ومسائل الآية:

تقرير أن من يعرض عن آيات الله وأحكامه وما جاء به رسوله محمد ﷺ من الهدى والحق يعد متَّبعاً لسبيل الظالمين ومبتعداً عن سبيل المؤمنين وسيكون مآله العذاب كما قال عز وجل ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[1]. ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾[2]. ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ

---

(١) سورة طه الآية ١٢٤ .

(٢) سورة طه الآية ١٢٥ .

(٣) سورة طه الآية ١٢٦ .

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ أي: أن من أشرك بالله فلن يغفر الله له، وهذا يدل على نفي المغفرة له نفياً أبدياً. وقيل: إن هذا مراد به طعمة لكونه ارتد وخرج إلى المشركين فصار منهم ولكن الحكم عام فيمن يشرك بالله. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ قيل: إنها نزلت في شيخ من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «إني منهمك في الخطايا والآثام إلا أني لم أشرك بالله شيئاً منذ آمنت به، ولم أتخذ من دونه أحداً، ولم أقع في المعاصي جرأة على الله ولا مكابرة له، ولم أتوهم طرفة عين أني أعجز الله هرباً، وإني يا رسول الله لنادم على ما فعلت ومستغفر من الله فما ترى حالي عند ربي»[١].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ توكيد فساد الشرك

(١) تفسير الضحاك ج١ ص٣٠٥، والجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٣٨٦ .

وعاقبته، وأن صاحبه يضل دائماً بعيداً عن الحق ويكون مصيره الخلود في النار.

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ هذه الآية نزلت في أهل مكة. وقوله ﴿إِنَٰثًا﴾ أي: الأصنام اللات والعزى ومناة؛ فقد كان لكل حي من أحياء العرب صنم معروف يعبدونه ويسمى أنثى بني فلان ويقولون عن أصنامهم إنها تشبه بنات الله أي: الملائكة، وفي هذا قال الله عز وجل ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾[1].

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ أي: إن الذي أمرهم بما يعملونه من الشرك والفساد إنما هو الشيطان المتمرد الذي زين لهم سوء أعمالهم.

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي: طرده وأبعده من رحمته وجازاه بما يستحقه من اللعنة. ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ القول للشيطان بأنه سيعمل على إضلال وغواية الكفار والعصاة الذين يصدقونه ويصدقون ما يسوِّله لهم من الضلال والغواية .

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ أي: لأبعدنهم عن الهدى والحق. ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ أي: لأسوِّلن لهم الأماني الباطلة التي يغترون بها. ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ

---

(١) سورة الزخرف الآية ١٩ .

﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: أحملهم على شق آذان البحيرة والسائبة فكانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمس مرات إناثاً وجاء الخامس ذكراً ثم يحرمون الانتفاع بها. ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ ومن ذلك ما كان في الجاهلية من تعذيب الحيوان كفقء الأعين وقطع الآذان وذلك كله من نزغ الشيطان كما في الحديث القدسي: **(وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم فَحَرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم وأمرتْهُم أن يشركوا بي ما لم أنزل به من سلطان وأمرتهم أن يغيروا خلقي)**[١].

وشاهد هذا من السنة تحريم رسول الله ﷺ كل ما فيه تغيير خلق الله ومن ذلك قوله: **(لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالى)**[٢].

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي: أن من يجعل الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسارة لا يمكن جبرها فهو في الدنيا ضال وفي الآخرة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (٢٨٦٥)، بدون ذكر «وأمرتهم أن يغيروا خلقي»، صحيح مسلم بشرح النووي ج١١ ص٧٠٧٦، والإمام أحمد في المسند ج٤ ص١٦٢، مثل مسلم، والطبراني في المعجم الكبير ج١٧ ص٢٦٣ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب المتفلجات للحسن، برقم (٥٩٣١)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٠ ص٣٨٤ .

بعيد عن رحمة الله حتى الشيطان يتبرأ منه كما قال عز وجل حاكياً قوله ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[1].

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ فيه بيان لعلاقة الشيطان مع أتباعه بأنه يعدهم ويمنِّيهم الأماني الزائفة بأن لهم النصر في الدنيا والفوز في الآخرة ويصدقونه بسبب ما ران على قلوبهم من الضلال. ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ المراد به هؤلاء الذين يصدقون إبليس ويتبعونه فيجزون على ذلك بنار جهنم وليس لهم خلاص منها.

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بأن الله لا يغفر لصاحب الشرك، وإنما يغفر بمشيئته لمن لم يشرك به شيئاً. ومن الأحكام: أن الذين يدعون من دون الله الأوثان والأصنام إنما يعبدون الشياطين. ومنها: تحريم تغيير خلق الله بأي صورة كالوشم والوشر والنمص. وأشد من ذلك ما يحدث في الوقت الحاضر من تغيير النوع كتحول الذكر إلى أنثى، أو العكس ونحو ذلك مما يحدث أو قد يحدث من تغيير خلق الله سواء في البشر أو الحيوان.

---

(١) سورة إبراهيم من الآية ٢٢ .

ومن الأحكام: أن الشيطان لـمّا أضل كفرة العرب فزين لهم تغيير خلق الله في الحيوانات أمر رسول الله ﷺ بمعاينة الأذن في الأضحية ألا تكون مشقوقة أو مقطوعة فتجتنب لوجود أثر الشيطان فيها. وقد استثنى رسول الله ﷺ من التحريم وسم الغنم أو وسم الإبل والدواب في أعناقها. وهذه أحكام عامة ينبني عليها تحريم كل ما فيه تغيير خلق الله لما في ذلك من اتباع الشيطان في غوايته وإضلاله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾﴾.

بيان الآية:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ هذا وعد من الله عز وجل أن يدخل الجنة أولئك الذين آمنوا به فأحلوا ما أحله، وحرموا ما حرمه، وصدقوا رسوله في أقوالهم وأفعالهم. قوله ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ أي: لا أحد أصدق منه جل ثناؤه وهذا توكيد لوعده الحق فتقدست أسماؤه وصفاته.

أحكام ومسائل الآية:

الحكم بأن الإيمان والعمل الصالح سبب الفوز برضا الله ورحمته في الدنيا والآخرة. ومن الأحكام: أن وعد الله حق وصدق. ومنها: وجوب صدق العبد في قوله وفعله، وقد أثنى الله عز وجل على عباده الذين يصدقون في عهودهم فقال عز ذكره: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1].

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦)﴾.

بيان الآيات:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ تفاخر نفر من أهل الكتاب من اليهود، والنصارى، ونفر من المسلمين، فقال أهل الكتاب:

---

(١) سورة الأحزاب من الآية ٢٣ .

نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أقرب إلى الله منكم. وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم فنبينا خاتم الأنبياء، وكتابنا نسخ الكتب التي قبله، فأنزل الله هذه الآية والمراد أنه ليس الأمر كما تظنون؛ فالدين ليس مجرد أمانٍ ولكنه إيمان القلوب، وعمل الجوارح، والعبرة في الالتزام بما أمر الله به، والانتهاء عما نهى عنه وتصديق ما جاء به رسوله من البينات.

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ السوء الشرك وكل عمل فيه معصية لله ولرسوله، وقد تأثر المسلمون لما نزلت هذه الآية في المجازاة على العمل ولو كان صغيراً فقال أبو بكر: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية ؟ كل شيء عملناه جزينا به فقال: (**غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأواء؟**) قال: بلى قال: (**فذلك ما تجزون به**)[1]. وفي رواية أخرى قال عليه الصلاة والسلام مهوناً على المؤمنين: (**قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها**)[2].

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: لا يجد له من ولي يواليه، أو نصير ينصره إلا إذا أناب إلى الله وتاب إليه فحطّ عنه خطيئاته.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج١ ص١١، والبيهقي في كتاب الجنائز ج٣ ص٣٧٣، والمنذري في الترغيب والترهيب ج٤ ص٢٩٤ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، برقم (٢٥٧٤)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٠ ص٦٥٨٧ .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ لما بيّن عز وجل أن من يعمل سوءاً يحاسب عليه بيَّن في بيان لاحق أن كل من يعمل عملاً صالحاً من عباده ذكورهم وإناثهم وهو مؤمن به فسيدخله الجنة ولن يظلمه من عمله الصالح مقدار نقير وهو النكتة في ظهر نواة التمر.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ في هذا رد على اليهود والنصارى الذين ماروا المسلمين وظنوا أنهم أولى بالله وأحق به فبيَّن أن دين الإسلام هو أفضل الأديان. قوله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ المراد أنه اتبع ما شرعه الله بما بيَّنه في كتابه وعلى لسان رسوله محمد ﷺ وكان عمله خالصاً لوجه الله، وأهل الكتاب ليسوا على هذه الصفة لأنهم لا يؤمنون برسالة رسول الله محمد ﷺ وهي الإسلام فلا يقبل منهم عمل لأن الله عز وجل قال ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[١]. ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ الملة الدين والمراد بذلك رسول الله والمسلمون لأن ملته هي ملة إبراهيم، وقول أهل الكتاب إنهم يتبعون ملة إبراهيم غير صحيح لأنهم لمَّا لم يتبعوا دين محمد فهم لا يتبعون دين إبراهيم، والأصل في ذلك قول الله عز وجل ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾[٢].

(١) سورة آل عمران من الآية ٨٥ .

(٢) سورة آل عمران من الآية ٦٨ .

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ الخليل المحب والخلة أغيى أنواع الحب، وفيه توكيد لفضل دين إبراهيم الذي هو دين الإسلام كما قال عز وجل ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾(١).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ المعنى أن الله مالك السموات والأرض، وما فيهن من سائر المخلوقات فمحبته لإبراهيم ليس لحاجته إليه، وإنما أحبه بسبب طاعته ومجاهدته لقومه المشركين. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ أي: عالماً بأفعال العباد حسنها وسيئها.

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بأن ثواب الله لا ينال بالأماني وإنما ينال بالإيمان الصادق والعمل الصالح. الحكم بأن الجزاء يترتب على طبيعة العمل كما قال عز وجل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(٢). ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٣). ومن الأحكام: تقرير فضل الإسلام، وأنه الدين الذي لا دين غيره. ومنها: تقرير شرف نبي الله إبراهيم ومحبة الله له بسبب طاعته وجهاده وبراءته من الشرك. وفيها: تقرير ملك الله لكل ما في الوجود وإحاطته بكل ما فيه.

(١) سورة آل عمران من الآية ٦٧ .

(٢) سورة الزلزلة الآية ٧ .

(٣) سورة الزلزلة الآية ٨ .

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾.

بيان الآية:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي: يطلبون الفتيا. ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ قالت عائشة لعروة بن الزبير لما سألها عن هذه الآية قالت: يابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، ويعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة: قالت عائشة: وأن الناس استفتوا رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية وهي قوله ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ ﴾ وقوله ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ قالت عائشة: أي رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال قالت: فنهوا أن ينكحوا عمن رغبوا في

مالها وجمالها في يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال(١).

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ المراد بهم الصغار، فقد كان العرب في الجاهلية لا يورثون الأولاد الصغار ولا البنات فأنكر الله ذلك عليهم بقوله ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وأكد حقهن في الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين. ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا جاءه ولي اليتيمة نظر فإن كانت جميلة وغنية قال: زوِّجها غيرك، والتمس لها من هو خير منك، وإن كانت دميمة ولا مال لها قال له: تزوجها فأنت أحق بها(٢).

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ أي: أن ما تفعلونه من الإحسان والرفق باليتامى وبالصغار من الذكور والإناث بإعطائهم حقوقهم فإن الله يعلمه ويجازيكم عليه بالمثوبة.

أحكام ومسائل الآية:

تقرير حق النساء، والأطفال في الميراث خلافاً لما كان سائراً في

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٢٦، والحديث أخرجه البخاري في كتاب الشركة، باب شركة اليتيم وأهل الميراث، برقم (٢٤٩٤)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٥ ص١٥٨ .

(٢) الكشاف للزمخشري ج٢ ص١٥٥ .

الجاهلية من حرمانهم منه. ومن الأحكام: توكيد حفظ أموال اليتامى والقيام عليهم بالعدل وتحريم استغلال أموالهم لصالح الأوصياء أو القيمين عليهم.

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ١٣٠﴾.

بيان الآيات:

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ النشوز البعد والإعراض وعدم المؤانسة. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ﴾ أي: فلا حرج عليهما أن يصلحا على ما يكون فيه نفع لهما، ومن ذلك إسقاط حقها في النفقة أو بعضها، أو إسقاط حقها في المهر إذا كان بقي لها منه شيء أو إسقاط حقها في المبيت، وله أن يقبل ذلك منها كما فعلت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ لما روته عائشة

أن سودة لما كبرت وهبت يومها لعائشة فكان رسول الله ﷺ يقسم لها بيوم سودة[١]. وما روته أيضاً في هذه الآية قالت: الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حل فنزلت الآية[٢].

﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ أي: أن الصلح بين الزوجين أفضل وأنفع من الفرقة بينهما لما يكون فيه من التراضي والتآلف والتخلي عن البغضاء والعداء. ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ أي: أن هذا من طبائع النفس التي تريد ألا تفقد شيئاً مما تراه حقاً لها؛ والرجل كذلك يشح عند المصالحة. ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي: إن تحسنوا إلى نسائكم بإعطائهن ما لهن من حقوق وتتقوا الله فيهن بما يجب عليكم من حسن المعاشرة، وكرم الصحبة. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ فإن الله سيعلم ذلك منكم ويجازيكم عليه.

﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ أي: إن من المحال أن تعدلوا أيها الناس بين نسائكم لأن ذلك من طبع النفس التي تميل إلى زوجة دون أخرى من حيث المحبة في القلب. وشاهده أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها وكيف يقسم ذلك، برقم (٥٢١٢)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٩ ص٢٢٣ .

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٢٧، والأثر أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ برقم (٤٦٠١)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٨ ص١١٤ .

رسول الله ﷺ كان يقسم بين نسائه ويقول: (**اللهم إن هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**)(١). ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ أي: إذا ملتم إلى إحدى زوجاتكم فلا يكون ذلك ميلاً كبيراً. ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: بسبب هذا الميل تكون معلقة لا هي ذات زوج يسكن إليها وتسكن إليه، ولا هي مطلقة تنتظر زوجاً آخر. وفي هذا قال رسول الله ﷺ: (**من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل**)(٢). ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: إذا اصلحتم مع زوجاتكم واتقيتم الله فيهن من العدل وعدم الميل الكبير إلى بعضهن فإن الله يغفر لكم ما كان من هذا الميل.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ المراد أنهما إذا لم يصطلحا ويتعاملا بحسن العشرة والصحبة، ولم يبق لهما إلا فراق بعضهما فإن الله يغنيه عنها بما هو خير منها، ويغنيها عنه بما

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر برقم (١١٤٠)، سنن الترمذي ج٣ ص٤٤٦، والنسائي في كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض برقم (٣٩٥٢)، سنن النسائي ج٧ ص٧٥، وأبو داود في كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء برقم (٢١٣٤)، سنن أبي داود ج٢ ص٢٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح، باب في القسمة بين النساء برقم (٢١٣٣)، سنن أبي داود ج٢ ص٢٠٩، والنسائي في كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، برقم (٣٩٥٢)، سنن النسائي ج٧ ص٧٥، وابن ماجة في كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، برقم (١٩٦٩)، سنن ابن ماجة ج١ ص٦٣٣ .

هو خير لها منه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ أي: واسع الإحسان والفضل والإنعام على عباده.

أحكام ومسائل الآيات:

وجوب الصلح بين الزوجين إذا اختلفا على أن يكون في الصلح خير لهما. ومن الأحكام: تقرير أهمية الصلح ليس فيما مناطه الإصلاح بين الزوجين فحسب، بل في كل أمر يكون فيه خلاف بين طرفين. ومنها: تقرير أن من طباع النفس الميل إلى إحدى الزوجات وهذا يقتضي أن يكون هناك عدل في السكن والنفقة ونحو ذلك، أما ميل القلب الذي لا يملكه الإنسان فمعفو عنه. ومن الأحكام: أن الزوجين إذا لم يصطلحا ولم يبق إلا فراقهما فإن الله يغني كلاً منهما.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لما بيّن تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه المتصرف فيهما قال ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي: وصيناكم أيها المسلمون بما وصينا به اليهود والنصارى من قبلكم بوجوب تقوى الله وطاعته بعبادته وحده لا ند له ولا شريك. ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أنكم إن كفرتم فإن الله غني عنكم وعن عبادتكم، فهو غني في ذاته العلية محمود على ما يحكم به عباده وما يجازيهم به.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ توكيد لما ورد في الآية التي قبلها من ملكه عز وجل للسموات والأرض. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي: شاهداً وحسيباً ورقيباً على خلقه يعلم سرهم ونجواهم وأفعالهم.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ لما ذكر الله جل وعلا ملكه للسموات والأرض في الآيتين السابقتين قال -وقوله الحق- إنه قادر على أن ﴿يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ أي: يميتكم. ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ أي: يخلق أناساً غيركم لا يعصونه. وشاهده أيضاً قوله جل ذكره ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾[1].

---

(١) سورة محمد من الآية ٣٨ .

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ توكيد لقدرته على إماتة من عصاه والإتيان بغيره ممن لا يعصيه.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي: من كان همه وطلبه للدنيا وحدها أعطاه الله ما كتبه له منها وليس له في الآخرة من نصيب. ومن كان همه وطلبه للدنيا والآخرة أعطاه الله نصيبه من الدنيا وأعطاه نصيبه من الآخرة وهو الثواب على عمله لها. وشاهده قول الله عز وجل ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[١]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: يسمع عباده في أقوالهم وأفعالهم ويبصر أعمالهم فيجزي كلا منهم بما عمل.

أحكام ومسائل الآيات:

التوصية بتقوى الله، وذلك بالإخلاص في عبادته والبراءة من الشرك به. تقرير أن الله غني عن خلقه فلا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم، وأن الله رقيب وشهيد على خلقه في أقوالهم وأعمالهم. تقرير قدرة الله عز وجل على إماتة الخلق كلهم إذا عصوه، وخلق خلق آخر لا يعصونه . ومن الأحكام: أن العبد سوف يجزى على نيته وعمله فإن كان يريد ثواب الدنيا لوحدها أعطي منها وحرم خير

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٠ .

الآخرة، وإن كان يريد ثواب الدنيا والآخرة أعطي نصيبه من الدنيا ونصيبه من الآخرة.

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.

بيان الآية:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ نادى الله المؤمنين نداء أمر أن يقوموا بالقسط وهو العدل في كل أمر يفعلونه سواء مع أنفسهم أو مع غيرهم فلا يحيدوا عنه لهوى أو رغبة في دنيا أو مصانعة لأحد. ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ المراد أن تشهدوا بالحق ولا تميلوا عنه؛ ولو كان ذلك يؤثر عليكم أنفسكم أو والديكم أو أقاربكم لأن العدل وما يقتضيه من إحقاق الحقوق ودفع المظالم مما أمر الله به وعظمه، وهذا الأمر يعلو على كل عصبية أو منفعة دنيوية. ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أي: أن يكون المشهود عليه غنياً فلا يجب مراعاته لأجل غناه، أو يكون فقيراً فلا يراعى للعطف عليه من أجل فقره

﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: هو الذي يتولاهما من جملة خلقه فلا يجوز مراعاتهما لأن أداء الحق والعدل أولى وأهم. ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْ﴾ لكونه يصرف عن إحقاق الحق وإقامة العدل وشاهده قول الله تعالى ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾(١). وقوله عز ذكره لنبيه داود ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾(٢).

﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾ أي: إن تلووا أنفسكم عن الشهادة بالحق، وإقامة العدل، أو تعرضوا عما أمركم الله به من إقامة العدل على أنفسكم وأقاربكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ أي: إن الله يعلم ما تفعلونه وسوف يجازيكم عليه، وفي هذا تهديد لمن يصرف نفسه عن الحق، ويتبع هواه.

أحكام ومسائل الآية:

تقرير أنّ على المرء أن يشهد على نفسه بالحق وهو الإقرار بما عليه من حق لله كالزكاة والنذور ونحو ذلك مما مناطه حقوق الله، والإقرار بما عليه من حقوق للناس كالديون. وجوب شهادة المرء على نفسه وهذا يشمل شهادته على والديه وأقاربه ولا يتعارض مع واجبه

(١) سورة الكهف من الآية ٢٨ .

(٢) سورة ص من الآية ٢٦ .

في برّهم لأن إبراءهم من الباطل بمثابة بر لهم، وشاهده قول الله جل ذكره ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾(١).

ويتفرع من هذا: عدم جواز شهادة الوالد لولده ولا الولد لوالده وفقاً لما قد ينشأ من العصبية والمحاباة، كما لا تجوز شهادة الأخ لأخيه ولا الزوج لزوجه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ۝١٣٦﴾.

بيان الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أمر للمؤمنين أن يؤمنوا بالله الإيمان المقتضي للتصديق والإخلاص، وأن يؤمنوا برسوله محمد أي: بنبوته ورسالته. ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ المراد به القرآن بآياته ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه. ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: الكتاب الذي سبق أن أنزل على النبيين وقد روي أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام ونفر من اليهود

(١) سورة التحريم من الآية ٦ .

الذين أسلموا حين أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك ونؤمن بموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سوى ذلك من الرسل فقال لهم رسول الله ﷺ: (**بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله**) فقالوا: لا نفعل فنزلت الآية فآمنوا كلهم[1].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: ومن يكفر بشيء مما ذكره الله في هذه الآية ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ أي: سلك طريقاً يضل به. ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ توكيد للضلال وتهديد لصاحبه.

أحكام ومسائل الآية:

وجوب الإيمان بالله، ورسوله، وبالقرآن، وبالكتب التي أنزلت على رسل الله، والإيمان كذلك بالملائكة والرسل واليوم الآخر، وهذه أركان الإيمان التي لا يصح الإيمان إلا بها قولاً وعملاً. ومن الأحكام: تقرير ضلال من يكفر بهذه الأركان والوعيد له بالعذاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٢٨، وتفسير البغوي ص٣٤٤، وزاد المسير لابن الجوزي ص٣٣٤.

أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ المراد به من آمن بالله ورسوله ثم كفر. ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ أي: آمنوا بعد كفرهم ثم كفروا مرة أخرى. ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا ﴾ أي: كفراً على كفر قيل: المراد بهم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعزير ثم آمنوا بعزير ثم كفروا بعيسى، وكفرت النصارى بما جاء به موسى وآمنوا بعيسى ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ وما جاء به من القرآن[١].

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أي: أن الكافر إذا تخلى عن كفره وآمن غفر له، فإذا رجع إلى الكفر لم يغفر له الكفر الأول. وشاهده أن أناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟ قال: (**أما من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤاخذ بها ومن أساء أخذ بعمله في الجاهلية والإسلام**)[٢]. ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ أي: ليرشدهم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٤١٥ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية ؟ برقم (١٢٠)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص٨٩ .

إلى الطريق المستقيم بسبب إصرارهم على الكفر.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في هذا أمر لرسول الله ﷺ أن يبشر المنافقين أي: يخبرهم على سبيل الاستهزاء بهم وتحقيرهم بأنهم سينالون العذاب الأليم جزاء نفاقهم ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: كونهم يعادون المؤمنين ويتخذون الكافرين من اليهود وغيرهم أولياء من دون المؤمنين فيميلون إليهم ويودونهم ابتغاء العزة منهم ونصرتهم، وما علموا أن العزة لله جميعاً أي: أن الغلبة لله والقوة منه والنصر من عنده وليس من أحد سواه. وشاهده قوله جل ذكره ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ المراد أن عليكم إذا سمعتم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها -كما يفعل أحبار اليهود- فلا تقعدوا معهم حتى يتحدثوا في غير الكفر والاستهزاء بآيات الله، فإن قعدتم معهم وهم على هذا النحو فأنتم مثلهم، ولا فرق بينكم وبينهم لأنكم بعملكم هذا تعدون منافقين تظهرون الإيمان، وتمالئون الكافرين وتجلسون معهم وتسمعون كفرهم فأنتم مثلهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ

---

(١) سورة المنافقون من الآية ٨ .

﴿فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ وهذا بيان للتوكيد بأن المنافقين مثل الكافرين في جهنم مثل كونهم سواء في الكفر والاستهزاء بآيات الله.

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بأن من آمن ثم كفر يعد مرتداً تجب استتابته ثلاثة أيام وإلا تعرض لعقوبة الردة. ومن الأحكام: أنه يحرم اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن فعل ذلك يبتغي العزة منهم فهو خاسر؛ لأن العزة لله وحده ومن ابتغاها من غيره فقد ذل. ومن الأحكام: تحريم مصاحبة الذين يستهزئون بآيات الله وأحكامه فمن صاحبهم وجالسهم فهو منهم، لأن من يقر الكفر يعد كافراً ومن يرضى بالمعصية يعد عاصياً كما قال عز وجل ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾.

بيان الآية:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ المراد بهم المنافقون والتربص الانتظار لمعرفة ما يحدث للمؤمنين. ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ

نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أي: إن تحقق للمؤمنين نصر على الكافرين قالوا: -يعني المنافقين- ألم نكن معكم في القتال فأعطونا من الغنائم التي غنمتموها، وإن كان النصر للكافرين كما في غزوة أحد قال المنافقون: ألم نستحوذ عليكم بكوننا معكم في السر حتى كانت لكم هيبة عند أعدائكم المسلمين وخذلناهم عنكم بتثبيطنا لهم وتفريقنا لهم.﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي: أن الله سيبين حقيقتكم أيها المنافقون يوم القيامة بكشف سركم ونفاقكم وستجزون على أفعالكم.

﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ هذا بيان من الله أن العزة لدينه الحق وهو الإسلام؛ ذلك أن المؤمنين هم أهل دينه والكافرون أعداء هذا الدين، ولكن إرادة الله وحكمته قضت بحتمية الصراع بين من له دين، ومن لا دين له. وقد يغلب أهل الكفر أهل الإسلام في عهد من العهود، أو زمن من الأزمان، ولكن أهل دين الله لا يزولون بل تكون لهم العاقبة، وشاهده قول الله عز ذكره ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1]. وقوله ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[2]. وشاهده أيضاً قول رسول الله محمد ﷺ: (**وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح**

(١) سورة القصص من الآية ٨٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٢ .

بيضتهم. وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً)[١].

أحكام ومسائل الآية:

تقرير تربص المنافقين بالمؤمنين بانتظار ما يحدث لهم من أعدائهم. الحكم بعزة المؤمنين على أعدائهم؛ ذلك أن الله لا يسلط على المؤمنين أعداءهم، ولكن قد يسلط عليهم أنفسهم بسبب ذنوبهم؛ فقد جعل الله هذه الأمة خير الأمم وأفضلها لقوله عز ذكره ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[٢]. وقد جعل بناء هذه الخيرية على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا من أسس الإيمان وأصوله.

وقد بيَّن الله عز ذكره أنه لا يصيب هذه الأمة من مصيبة إلا بسبب ما ترتكبه من الذنوب فقال جل ذكره ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، برقم (٢٨٨٩)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١١ ص٧١١٦ .

(٢) سورة آل عمران من الآية ١١٠ .

(٣) سورة الروم الآية ٤١ .

وقال تقدست أسماؤه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[1]. وقد دلت وقائع تاريخ هذه الأمة أنها حين تنتصر على نفسها، وتحقق رسالة الإسلام التي أمرها الله بها ترتفع راياتها فتهزم أعداءها. وعندما تنهزم في نفسها فتتهاون في دينها يتسلط عليها الأعداء من كل جانب. وفي تاريخ الدويلات في الأندلس، وفي غيرها الكثير من العبر؛ وذلك حين انتشرت فيها الملذات وتراجع دور الدين فانهزمت النفوس وحدث ما حدث. وقد بيّن الله للأمة حقيقة واحدة إذا أرادت إدراكها هي قوله جل ذكره ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣﴾.

بيان الآيتين:

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما يظهرونه من النفاق بادعائهم الإيمان، وهم على نقيضه، وبجهلهم وسوء معرفتهم يظنون أن

---

(١) سورة الشورى الآية ٣٠.

(٢) سورة محمد الآية ٧.

الله لا يطلع عليهم. ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي: يتركهم يخدعون أنفسهم فيجازيهم بأفعالهم. ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ وهذا بيان من الله عن كيفية صلاتهم، وهي قيامهم والكسل يسيطر عليهم لعدم اهتمامهم بها وما قيامهم لها إلا مراءاة للناس وهو معنى قول الله عز ذكره ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(إن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً)**(١).

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لكونهم غير صادقين في صلاتهم، وإنما هدفهم الرياء والمصانعة فهم لا يذكرون الله إلا قليلاً وشاهده قول رسول الله ﷺ: **(تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً)**(٢).

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أنهم في ظاهرهم مع المؤمنين وباطنهم مع الكافرين فلا هم مع المؤمنين باطناً وظاهراً، ولا مع الكافرين كذلك؛ فهم قد ضاعوا فلم تعرف لهم غاية

---

(١) متفق عليه، انظر: إرواء الغليل ج٢ ص٢٤٥، ومسلم بشرح النووي ج٣ ص٢٠٣٣ برقم (٦٥١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد، باب استحباب التبكير بالعصر، برقم (٦٢٢)، صحيح مسلم بشرح النووي ج٣ ص١٩٨٢ .

سوى النفاق وهذا هو الضلال. وفي حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (**مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه أخرى ولا تدري أيهما تتبع**)[١]. ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ والذين أضلهم الله بسبب نفاقهم لن يكون لهم سبيل إلى الخير.

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير تحريم الرياء لكونه من الشرك والأصل فيه قول الله تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[٢].

وقد ذكر الإمام ابن العربي في قوله ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أنهم يفعلونها ليراها الناس وهم يشهدونها لغوا فهذا هو الرياء الشرك. فأما إن صلاها ليراها الناس يعني ويرونه فيها فيشهدون له بالإيمان فليس ذلك الرياء المنهي عنه. وكذلك لو أراد بها طلب المنزلة والظهور لقبول الشهادة وجواز الإمامة لم يكن عليه حرج وإنما الرياء المعصية أن يظهرها صيداً للدنيا وطريقاً إلى الأكل بها فهذه نية لا تجزئ وعليه الإعادة[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين، برقم (٢٧٨٤)، صحيح مسلم بشرح النووي، ج١١ ص٦٩٥٣، صحيح مسلم بشرح الأبي والسنوسي ج٩ ص٢٢٧ .

(٢) سورة الكهف من الآية ١١٠ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ج١ ص٥١١ .

قلت: وبين ما ذكره الإمام ابن العربي والرياء خيط دقيق؛ فمن يصلي ليراه الناس فيشهدون له بالإيمان قد لا يبعد كثيراً عن المحظور وهو الرياء. فالذي يصلي يجب أن يكون في صلاته متجهاً إلى الله فلا يكون في نيته أن يراه الناس لكي تجوز شهادته وإمامته؛ ذلك أن نيته إذا كانت خالصة لله دون مراعاة لأحد أو انتظار شهادة منه سوف يقبله الناس ولو لم يعرفوه لأن من التمس رضا الله أرضى عنه الناس. ومن الأحكام: بيان حال المنافقين وضياعهم فليس لهم صفة إلا الضلال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَٰكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذا نهي وتحذير للمؤمنين من أن يجعلوا علاقتهم وأسرارهم وأخبارهم وموالاتهم للكافرين بل يجب أن تكون موالاتهم وعلاقاتهم مع إخوانهم المؤمنين. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حجة في عقابه لكم على موالاتكم للكافرين.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ في هذا حكم من الله وحكمه الحق، أن مآل المنافق سيكون في أسفل النار أي: في قعرها فهو بهذا أشد عذاباً من الكافر؛ ذلك أن للكافر فعلاً واحداً هو الكفر ظاهراً وباطناً. أما المنافق ففعله أسوأ لأنه مثل الكافر في كفره مضاف إليه أنه يخادع المؤمنين بإيمانه فيلبِّس عليهم به فيصدقونه فيعرف أسرارهم ويكشفها لعدوهم. ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي: لن يجدوا لهم يوم القيامة من نصير ينصرهم، أو ولي يواليهم، أو شفيع يشفع لهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟﴾ المراد أن المنافقين إذا تابوا من نفاقهم فبدلوه بتوبة نصوح، وأصلحوا سرائرهم وأصبحت بواطنهم مثل ظواهرهم. ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: كان اعتصامهم به وثقتهم وتعلقهم به. ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي: تركوا الرياء وجعلوا دينهم لوجه الله. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: سيكونون مع المؤمنين المخلصين الذين ينعمون بأمن الله ومحبته في الدنيا، وينعمون

بأجره ومثوبته في الآخرة وهو معنى قوله عز وجل ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ استفهام تقريري أي: أن الله غني عنكم فإذا شكرتموه وآمنتم به فلن يعذبكم؛ ذلك أن مجازاة الله للعاصين ليست ثأراً ولا انتقاماً ولا تشفياً فحاشاه ذلك، وإنما أراد بحكمته وقضائه أن يجزي كلاً بعمله؛ فمن شكره وآمن به استحق منه الأجر والثواب، ومن عصاه استحق العقاب. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ أي: أنه يشكر عباده على طاعتهم له ويزيدهم من نعمه عليهم كما قال جل ذكره ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]. ﴿عَلِيمًا﴾ أي: يعلم ما يعمله خلقه من حسنات وسيئات.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير وجوب الولاء للمؤمنين، ووجوب البراء من الكافرين. الحكم بوجوب العذاب الأليم للمنافقين وهو الدرك الأسفل من النار. الحكم أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. الحكم أن من آمن بالله حق الإيمان وشكره حق شكره نجاه من العذاب وأجزل له الثواب.

---

(١) سورة إبراهيم من الآية ٧ .

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ بيان من الله أنه لا يحب أن يشتم أحد أحداً، أو يدعو عليه، أو يتناوله بسوء لأن الله وضع السلم والمحبة بين عباده ونهاهم عن فاحش القول والجدال والخصام فوجب عليهم أن يحبوا ما أحبه، ويكرهوا ما كرهه. ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ هذا استثناء للمظلوم أن يدعو على من ظلمه حقه في ماله أو عرضه حتى يبيِّن ذلك للناس. وشاهده قول الله جل ذكره ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[١]. ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[٢]. وهذا الاستثناء مقيد بألا يجور المظلوم في الجهر بالسوء؛ فلا يفتري على من ظلمه، أو يقذفه أو يتجاوز في طلب حقه. وشاهده قول رسول الله ﷺ: (**المستبان ما قالا فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم**)[٣]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ يسمع أقوال خلقه ويعلم أفعالهم.

---

(١) سورة الشورى الآية ٤١ .

(٢) سورة الشورى من الآية ٤٢ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب النهي عن السباب، برقم (٢٥٨٧)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٠ ص٦٦٠٥ .

﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ﴾ لما جعل الله للمظلوم حقّاً في الجهر بالقول بالسوء تجاه من ظلمه حث على التسامح وعلى فعل الخير في السر والعلانية وعلى العفو عن السوء لأن هذا العفو من صفاته ورحمته بخلقه. وشاهد هذا من السنة قول رسول الله ﷺ: **(ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)**[1]. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ في هذا تذكير وتنبيه بأن الله يعفو عن السيئات، ويتجاوز عن الخطيئات، ويحب من عباده أن يفعلوا الخير ويعفوا عن السيئات التي تنالهم من غيرهم ليكون في ذلك أجر لهم كما قال عز وجل ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

أحكام ومسائل الآيتين:

تحريم الجهر بالسوء من القول سواء كان لفظاً، أو رسماً أو نحو ذلك لما فيه من التعدي الذي حرمه الله بقوله جل ذكره ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾. ويستثنى من ذلك المظلوم في ماله أو نفسه أو عرضه فيكون له الحق في الجهر بالسوء من القول للدفاع عن حقه حين يستعصي عليه الحصول عليه إلا بهذه الوسيلة. وشاهده من السنة قول رسول الله ﷺ: (لي

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، برقم (٢٥٨٨)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٠ ص٦٦٠٧ .

(٢) سورة النحل الآية ١٢٦ .

الواجد يحل عرضه وعقوبته)[١]. وقوله: **(مطل الغني ظلم)**[٢]. وجهر المظلوم بالسوء تجاه ظالمه مقيد أن يكون في حدود الدفاع عن حقه، فلا يحل له أن يتجاوزه فإن تجاوزه أصبح هو الظالم. كما أنه مقيد بألا يقول في من ظلمه ما ليس فيه أي: إن كان غصبه ماله قال للناس ذلك دون أن يقذفه في عرضه مثلاً وهكذا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ ﴾.

بيان الآيات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ بيّن الله عز وجل أنه ليس هناك وسط بين الإيمان والكفر، فإما الإيمان وإما الكفر. فاليهود فرقوا بين الله ورسله فلما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستقراض، باب لصاحب الحق مقال، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٥ ص٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستقراض، باب مطل الغني ظلم، برقم (٢٤٠٠)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٥ ص٧٥.

آمنوا بموسى وكفروا بعيسى وبمحمد لم ينفعهم إيمانهم. والنصارى لما آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد ﷺ لم ينفعهم إيمانهم. وشاهده قول الله جل ذكره ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ وقد وصفهم الله بالكفر لأن الإيمان ببعض الأنبياء والكفر ببعضهم كفر لأن الإيمان بالله وبرسله لا يتجزأ. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: وسطاً بين الإيمان والكفر فأبطل الله صنيعهم ورده عليهم بقوله عز ذكره ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وفي هذا بيان وتوكيد أن كفرهم حقيقي لا شك فيه. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: أعد الله لهؤلاء الكافرين وغيرهم من الكفرة العذاب المهين.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ المراد بهم محمد ﷺ وأمته؛ فهم لا يفرقون بين نبي ونبي بل يؤمنون بكل الأنبياء، ولا يفرقون بين أحد منهم فيصدقون رسالاتهم وكتبهم كما أنزلت. وشاهده قول الله جل ذكره ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[١]. وهذا مما تميزت به هذه الأمة في وسطيتها، وخيريتها، وشهادتها على الأمم يوم القيامة. ﴿أُولَٰئِكَ

(١) سورة البقرة من الآية ٢٨٥ .

سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ وفي هذا وعد من الله ووعده الحق أنه سوف يؤتي هذه الأمة أجورها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي: يغفر لهذه الأمة ذنوبها ويرحمها جزاء إيمانها برسله وآخرهم وخاتمهم محمد ﷺ.

أحكام ومسائل الآيات:

بيان كفر أهل الكتاب وضلال عقائدهم، وذلك بسبب إيمانهم ببعض رسلهم وكفرهم بالبعض الآخر. وهذا يقتضي حكماً أن الإيمان لا يتبعض فمن آمن برسالة نبي وكفر برسالة آخر فهو كافر بهما معاً. ومن مسائل الآية: ثناء الله على أمة رسول الله ﷺ لإيمانهم بكافة الرسل وعدم تفريقهم بين رسل الله بل يصدقون ويؤمنون برسالاتهم كما أنزلت من ربهم وآخرهم وخاتمهم محمد ﷺ.

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: إن كعب بن الأشرف ومعه نفر من اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنت يا محمد تريد منا أن نصدقك ونتبعك فاصعد إلى السماء ونحن نراك وآتنا بكتاب يصدق ما تقوله كما أتى موسى من قبلك بالتوراة[1]. ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: أن أسلافهم اليهود قد سألوا موسى أكبر مما قاله لك خلفهم وهو قولهم له ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بسبب عنتهم وطغيانهم وعنادهم وتعجيزهم لنبيهم. وشاهده ما سبق من قوله عز وجل ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[2]. وقد سبق تفسير ذلك.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ إخبار عنهم بأنهم عبدوا العجل بعد أن غاب موسى عنهم لمناجاة الله، وذلك بعدما جاءهم من الآيات البينات الدالة على نبوته وكرامة الله له، ومن ذلك إهلاك فرعون مما سبق ذكره في موضعه. ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أي:

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٢٩، وزاد المسير ص٣٤٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ٥٥ .

عفونا وتسامحنا عما كان منهم من التعنت والعصيان. ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: كانت هذه الآيات حجة وقوة له في مواجهة فرعون وجنوده.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ المراد أنهم لما امتنعوا عن القيام بما فرضه الله عليهم في التوراة ولم يطيعوا ما جاءهم به موسى رفع الله فوق رؤوسهم جبلاً توكيداً للميثاق الذي لم يلتزموا به فسجدوا خشية أن يسقط عليهم الجبل كما سيأتي في سورة الأعراف من قوله عز وجل ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: أمروا أن يدخلوا الباب وهم ساجدون ويقولوا حطة، والمراد به دعاء منهم أن يحط الله عنهم ذنوبهم في تخلفهم عن الجهاد وعصيانهم لأوامر أنبيائهم فدخلوا يزحفون، ويقولون: «حنطة في شعرة» استهزاء وعناداً. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: أن الله أمرهم ألا يصيدوا الحيتان يوم السبت مما سبق ذكره. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: شديداً ومع كل ذلك خالفوا ما أمرهم الله به.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧١ .

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير تكذيب أهل الكتاب برسالة رسول الله محمد ﷺ مع إدراكهم لما ورد في كتابهم عن صدق هذه الرسالة. ومن مسائل الآيتين: بيان سلوك أسلاف اليهود مع نبيهم موسى وعصيانهم لما أمروا به على لسان نبيهم عليه السلام.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ المراد بهم اليهود أي: نقضهم المواثيق التي أخذها الله عليهم بالعمل بما جاءهم به نبيهم موسى. ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: عدم تصديقهم بالبينات والبراهين

التي جاءهم بها أنبياؤهم موسى ومن بعده وكفرهم كذلك بما جاء به محمد ﷺ. ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: قتلهم لنبيهم يحيى وزكريا وغيرهم من الأنبياء. ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي: قولهم إن قلوبنا مفعمة بالعلم فلا حاجة لنا إلى علم جديد تأتي به يامحمد. ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وهذا رد عليهم بأن قلوبهم ليس فيها علم وإنما طبع الله عليها فلا تعي ولا تدرك الحق بسبب الكفر الذي انطبع عليها فأعماها. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: بسبب فساد قلوبهم.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ أي: باتهامهم لمريم عليها السلام بالزنى وأن عيسى ابن زنى.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: ادعاءهم وافتخارهم بأنهم قتلوا عيسى، وذلك لحسدهم له وتكبرهم وعتوهم عليه حيث كانوا يسبونه ويعيرونه بأمه ويضايقونه؛ حتى كان يهرب منهم ويتخفى عنهم فدعا عليهم فمسخ الله الذين سبوه هو ووالدته قردة وخنازير فأجمعوا على قتله. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وهذا إنكار من الله عليهم، ونفي لمقولتهم فلم يقتلوه ولم يصلبوه فأخبره الله أنه سوف يرفعه إلى السماء لتنتهي علاقته معهم بعد أن أعجزته الحيل في دعوتهم إلى الله. فلما علم بما قدَّره

الله من رفعه إلى السماء قال لأصحابه: أيكم يرضى أن يكون لي شبيهاً فيقتل ويصلب ويدخل الجنة ؟ فألقى الله شبهه على أحد أصحابه فدخلوا عليه فقتلوه ظنّاً منهم أنه عيسى(١).

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: في هذا بيان من الله أن الذين دخلوا على عيسى لكي يقتلوه اختلفوا فيما بينهم في الرجل الذي قتلوه هل هو عيسى أم غيره فقال الله ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أي: أنهم لم يعرفوا من هو المقتول فبيَّن أنه لم يقتل على وجه اليقين وهو معنى قوله عز ذكره ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ وهذا نفي قاطع لادعائهم بقتله.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ توكيد رفعه إلى السماء. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي: ذا القوة والبأس فيما يريد ويفعل. ﴿حَكِيمًا﴾ في تصرفه وتدبيره لخلقه.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ فيه معنيان: الأول قد يكون المراد أنه ما من كتابي إلا وسيؤمن قبل موته بعيسى لأن الضمير في قوله ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قد يراد به الكتابي، وهذا الإيمان لا ينفعه لأنه إيمان عند الأجل الذي ينتهي عنده التكليف. المعنى الثاني يحتمل أن

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج١ ص٥٤٤، والدر المنثور ج٢ ص٤٢٤، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٤ ص١٤ - ١٥.

الضمير في قوله ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يعود إلى عيسى وهذا يكون بعد نزوله عند اقتراب الساعة. وشاهده ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وتكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا ومافيها**)، ثم قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾[١]. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: يشهد على من تبعه وصدقه من الذين أرسل إليهم ويشهد على من كذبه منهم.

وقد وردت في نزول عيسى بن مريم عند قيام الساعة عدة أحاديث منها: أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود**)[٢]. ومنها: حديث أبي هريرة الآنف الذكر.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير سوء أفعال أسلاف اليهود من نقض الميثاق الذي أخذ عليهم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ، برقم (١٥٥)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص٨٩١ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، برقم (٢٩٢٢)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١١ ص٧١٥٨ .

وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم الإثم على مريم وابنها عيسى عليهما السلام.

ومن أحكام الآيات: تقرير رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وهذا يقتضي بطلان اعتقاد من يدعي أنه قتل. ومنها: تقرير قيام اليهود بقتل وصلب شبيه عيسى.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ المراد بهم اليهود فبسبب ظلمهم وما ارتكبوه من المحرمات حرم الله عليهم الطيبات. وشاهد هذا قول الله عز ذكره في سورة الأنعام مما سيأتي تفسيره ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾(١). ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

(١) سورة الأنعام من الآية ١٤٦ .

كَثِيرًا ﴾ أي: بصدهم الناس عن اتباع الحق وذلك بتحريفهم لكتابهم وكفرهم بما جاءهم من البينات.

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ﴾ أي: وبسبب أخذهم الربا وقد نهاهم الله عنه فأخذوه وأكلوا أموال الناس بالحيل الفاسدة وتزيين الباطل. وشاهده قول الله عز ذكره ﴿ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[1]. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي: إن العذاب الأليم قد أعد للكافرين منهم جزاء كفرهم واستحلالهم الربا.

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾ العارفون بشريعة الله علم يقين وليس علم ظن وتخيل. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ قيل: هم عبد الله بن سلام وأسيد بن سعية وثعلبة بن سعية وأضرابهم الذين آمنوا بالإسلام وصدقوا رسول الله محمداً ﷺ وما جاء به[2]. ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ بيان لصفات هؤلاء وما هم عليه من الصلاح بإقامة شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وغيرها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي: أنهم سيجزون الأجر العظيم وهو الجنة.

---

(١) سورة المائدة من الآية ٤٢ .

(٢) معالم التنزيل ص٣٥٠، وزاد المسير ص٣٤٤، وروح المعاني ج٤ ص٢٢، وتفسير المنار ج٦ ص٥٢ .

أحكام ومسائل الآيات:

من الأحكام: أن عاقبة الظلم فقدان طيبات الدنيا ونعيم الآخرة. ومنها: الحكم بتحريم الربا في كل صوره، ولكن هذا لا يمنع من التعامل مع من يتعاطاه ومثال ذلك أهل الكتاب فأكلهم وتعاطيهم للربا لا يمنع من التعامل معهم في غيره، ومن ذلك البيع لهم والشراء منهم لأن طعامهم حل للمسلمين لقوله تعالى ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾[١]. ومن ذلك الزواج من نسائهم لقوله تعالى ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[٢]. أما التعامل معهم بالربا فلا يجوز عند جمهور العلماء، وممن قال بجوازه الإمام أبو حنيفة[٣]، وعبد الملك من أصحاب الإمام مالك[٤] إن كان ذلك في دار الحرب.

ومن مسائل الآيات: ثناء الله على العارفين من أهل الكتاب بشريعة الله ومنهم عبد الله بن سلام، ومن صفاتهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالله وبالبعث والنشور.

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ

(١) سورة المائدة من الآية ٥ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٥ .

(٣) الاختيار لتعليل المختار ج٢ ص٣٣ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ج١ ص٥١٦ .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

بيان الآيات:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ بيان من الله جل ذكره أنه أوحى إلى نبيه محمد ﷺ بما أعلمه به من القرآن وأمور الدين، وأولها وجوب عبادة الله وحده لا شريك له. وقد نزلت هذه الآية ردّاً على اليهود الذين أنكروا نزول الوحي على رسول الله وقالوا: لم يوح الله تعالى إلا إلى موسى، وهذا حسداً منهم لرسول الله وأمته وأن يكون فيها نبي منها، مع أنهم سبق أن كذبوا موسى وآذوه وكفروا بما جاء به. وما أرادوا بقولهم عن موسى إلا تكذيب رسول الله ﷺ وليس حباً لموسى. ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ والمراد أن الله كما أوحى إلى هؤلاء

الأنبياء وأرسلهم إلى أقوامهم ليأمروهم بعبادة الله وطاعته وحده، أوحى الله إلى نبيه محمد ليكون خاتمهم، وشاهداً على البشرية، وداعياً لها إلى عبادة الله وحده، ومبشراً لها برحمته وعفوه إذا أخلصت له العبادة، ونذيراً لها من عقابه إذا عصته كما قال عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[1]. ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[2].

قوله ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ هم من وردت أسماؤهم في القرآن آدم وإدريس ونوح وهود وإبراهيم وصالح ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وأيوب وشعيب وهارون وداود ويونس وسليمان وإلياس واليسع ويحيى وزكريا وذو الكفل وعيسى. ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أي: أن هناك رسلاً آخرين أرسلهم الله إلى أقوامهم ولكن لم يذكرهم في القرآن. ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ قيل: في سبب نزولها أن الله تعالى لما ذكر في القرآن بعض أسماء الأنبياء قال اليهود: إن محمداً ذكر أسماء الأنبياء، ولم يذكر موسى فنزلت هذه الآية[3] إن الله كلمه بلا واسطة.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٥ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٦ .

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني ص٤٠٦ .

﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ المراد أن الله أرسل الرسل ليبشروا عباده بما لهم من الأجر والثواب إذا أطاعوه ومنذرين لهم إذا عصوه، وقد روي أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي والرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر[١]. ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أي: أن الله أرسلهم حتى لا يكون هناك عذر لمن يعصيه، ويدعي أنه ما عرف الحق كما قال عزوجل ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[٢].

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ ﴾ لما جادل اليهود والكفار بالباطل، وأنكروا نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وقالوا: من يشهد لك، وطلبوا أن يصعد إلى السماء وهم يرونه ليأتيهم بكتاب من عند الله، ردّ الله عليهم بقوله عز ذكره: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ ﴾ أي: أن الذي يشهد لك بنزول الوحي، ونزول القرآن عليك يا محمد هو الله وهو أعظم شاهد فقد أنزل عليك الوحي بإرادته وفضله وحكمته. ومع أن شهادة الله لا تحتاج إلى شهادة من أحد إلا أنه ردّ على عقول هؤلاء السفهاء بقوله عزوجل ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ ﴾ أي: إن الله قد أوحى إلى محمد وحياً قاطعاً لا شبهة فيه

(١) تفسير القرآن العظيم ج١ ص٥٥٤ ، والدر المنثور ج٢ ص٤٣٦ .

(٢) سورة طه الآية ١٣٤ .

ثم قال عز وجل ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: كفى أن يكون الله هو الشاهد على ما أوحي إليك.

أحكام ومسائل الآيات:

الحكم بأن الله أوحى إلى نبيه ورسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى أول رسله نوح والنبيين من بعده. ومن الأحكام: أن الله قص على نبيه ورسوله محمد ﷺ رسلاً لم يقصصهم عليه. ومنها: تقرير أن الله كلم نبيه موسى، وفي هذا إثبات صفة الكلام له عز وجل. ومن الأحكام: بيان مهمة الرسل وهي البشرى للمؤمنين بما لهم من الثواب عند الله والإنذار للمكذبين بما سينالهم من العذاب، وفي ذلك إثبات للحجة على العباد. ومن الأحكام: تقرير شهادة الله عز وجل وشهادة ملائكته بنبوة ورسالة محمد ﷺ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

بيان الآيات:

ما زال السياق في تكذيب اليهود والكفار لرسالة رسول الله ﷺ؛ فبعد أن بين الله أنه أوحى إليه بالكتاب المعجز وإبلاغ الرسالة إلى خلقه وما كان من اليهود من المجادلة بالباطل، بيَّن الله ضلالهم بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ أي: ضلوا في أنفسهم بإنكارهم وجحودهم لهذه الرسالة وبإضلالهم غيرهم بدعوتهم إلى عدم اتباع محمد ﷺ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ المراد أنهم لما فعلوا - أي: أسلاف اليهود - ما فعلوا من الكفر والظلم لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريق الحق قوله ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: إنما يدفعهم الكفر والظلم الذي فعلوه إلى طريق جهنم خالدين فيها أبد الآبدين إلا إذا تابوا وأصلحوا وصدقوا ما جاء به رسول الله واتبعوه. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: أن عذابهم يسير على الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ في هذا بلاغ وأمر: أما البلاغ فهو قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآن، وما بلغ به رسول الله ﷺ الأمة من الأوامر والنواهي. أما الأمر فهو قوله

عز ذكره ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ أي: إن آمنتم فهذا يعود عليكم بالثواب وينفي عنكم العقاب. ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: إن توليتم وأعرضتم فإن الله غني عنكم وعن عبادتكم لأنه مالك السموات والأرض ومن فيهن. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي: يعلم أفعالكم. ﴿حَكِيمٗا﴾ في تصرفه فيكم.

أحكام ومسائل الآيات:

تقرير أنّ من أعظم أنواع الكفر كون الإنسان يصد عن سبيل الله، وهذا يقتضي أن الكافر الذي يدعو إلى الكفر كالذي يعمل على نشر النصرانية وردة المسلمين أشد خطراً من الذي يكتفي بالكفر في نفسه. ومن الأحكام: أن الكافر إذا استمرأ الكفر وانغمس فيه انغلق عليه طريق الحق فلا يعرف حينئذٍ إلا الضلال. ومنها: تقرير أن رسالة رسول الله محمد ﷺ رسالة حق وهدى، وأن من يؤمن بها فقد هدي إلى الحق ومن يكفر بها فقد باء بالإثم والخسران والله غني عنه.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾.

بيان الآية:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ (يا) نداء وأمر للنصارى ألا يغلوا في دينهم؛ ذلك أنهم رفعوا عيسى عن مرتبة النبوة وجعلوه تارة ابناً لله، وتارة إلَهاً يعبدونه من دون الله فكفروا بسبب قولهم هذا وشاهده قول الله تعالى ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾[1]. ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أي: لا تقولوا إن لله ابناً أو شريكاً أو نداً. ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وفي هذا بيان لصفته وحاله، فهو عبد من عباد الله ورسول من رسله خلقه الله بالكلمة ونفخ فيه من روحه كما قال عز وجل ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾. وشاهده من السنة مارواه عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: **(من شهد ألا إلَه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)**[2].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ﴾ أي: آمنوا وصدقوا بأنه لا إلَه إلا الله وأن المسيح عبد من عبيده، وخلق من خلقه، ورسول من رسله. ﴿وَلَا

---

(١) سورة المائدة من الآية ١٧ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ برقم (٣٤٣٥)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٦ ص٥٤٦ .

﴿تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: لا تقولوا إن عيسى ثالث ثلاثة، وهذا رد على جهالتهم وضلالهم لقولهم إن الله جوهر واحد له ثلاثة أقانيم وهم الأب والروح والابن، ويعنون بالأب الوجود، والروح الحياة، وبالابن المسيح. ﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي: كفوا عن قولكم ببنوة عيسى له فذلك خير لكم من الضلال الذي أنتم عليه.

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: أنه لا إله في الوجود إلا هو فهو المالك والمتصرف لا رب غيره ولا إله سواه. ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعالى علوا كبيرا عن الولد. ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كل ما في الوجود ملك له ومن جملة ذلك عيسى وأمه. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: كفى به إلهاً واحداً ووليا واحداً وربّاً واحداً كما قال عز وجل ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾[1].

أحكام ومسائل الآية:

تحريم الغلو في الدين، وشاهده من السنة قول رسول الله ﷺ: (هلك المتنطعون) قالها ثلاثاً[2]. وقوله عليه الصلاة والسلام: **(لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله**

(١) سورة الأنعام من الآية ١٠١ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، برقم (٢٦٧٠)، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٠ ص٦٧٤٠ .

ورسوله)[١]. ولما قال رجل: يا محمد ياسيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا قال رسول الله ﷺ: **(يا أيها الناس عليكم بتقواكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل)**[٢].

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ ﴾ أي: لن يستكبر أو يجحد. ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ وشاهده قول الله عز ذكره ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ برقم (٣٤٤٥)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج٦ ص٥٥١ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ج٣ ص١٥٣، وأبو داود في كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح بلفظ آخر، برقم (٤٨٠٦)، سنن أبي داود ج٤ ص٢٧٣ .

﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[١]. ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ الآية[٢].

﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: أن الملائكة المقربين الذين هم أفضل من عيسى لن يستكبروا عن أن يكونوا عباداً لله يعبدونه ويقدسونه كما قال عز وجل ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[٣]. ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي: أن من يستكبر عن عبادة الله من ملك مقرب أو نبي مرسل أو غيرهم من المخلوقات فسيحشرهم إلى المحشر يوم القيامة ويجازي كلاً بما يستحقه من عمله.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ هذا وعد من الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات أنه سوف يوفيهم أجورهم لقاء إيمانهم وعملهم الصالحات ثم يزيدهم أجوراً أخرى تفضلاً عليهم. أما الذين استكبروا عن طاعته وعبادته فسيعذبهم عذاباً مهلكاً ولن يجدوا لهم يوم القيامة وليّاً ينصرهم من دون الله.

---

(١) سورة المائدة الآية ١١٦ .

(٢) سورة المائدة من الآية ١١٧ .

(٣) سورة الشورى من الآية ٥ .

أحكام ومسائل الآيتين:

تقرير أن عيسى عبدٌ من عباد الله ورسولٌ من رسله، وهذا يقتضي بطلان وصفه بغير هذه الصفة أو إنزاله غير هذه المنزلة كما يدعي بعض النصارى زوراً وبهتاناً أنه ابن لله. ومن الأحكام: تحريم الاستنكاف عن الحق. ومنها: تقرير الثواب للمؤمنين يوم القيامة، وتقرير العقاب للمستنكفين عن الحق والمستكبرين عن قبوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ ﴾.

بيان الآيتين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ البرهان هو رسالة محمد ﷺ التي تدعو العباد إلى طاعة ربهم وعبادته. ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ النور المبين كلام الله عز وجل في كتابه الكريم الذي بيَّن الحلال، وبيَّن الحرام، ووضع الأحكام لتكون سبيل الهداية للحق.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ ﴾ أي: إن الذين آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن وهذا معطوف على قوله ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ فسيدخلهم الله بسبب إيمانهم به وباعتصامهم

بالقرآن في رحمة منه وفضل وهو الثواب الجزيل. ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ أي: يهديهم إلى عبادته وطاعته حتى ينالوا تلك الرحمة وذلك الفضل.

أحكام ومسائل الآيتين:

الحكم بأنّ دين الإسلام دين البشرية جمعاء كما قال تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[1]. وهذا يقتضي حكماً أن كل دين غيره لن يقبل من صاحبه كما قال عز وجل ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[2]. ومن الأحكام: أن القرآن نور يبيِّن للناس طريق الحق من الباطل والهدى من الضلال وأن من يعتصم به سيكون ممن يدخلهم الله برحمته ويهديهم إلى طريق الحق.

﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ (١٧٦)﴾.

---

(١) سورة الأعراف من الآية ١٥٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٥ .

بيان الآية:

هذه الآية تسمى آية الصيف لنزولها فيه، وآية الكلالة قيل: في سبب نزولها ما ذكره جابر بن عبد الله قال: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل فتوضأ ثم صب علي أو قال: صبوا عليه فقلت: إنه لا يرثني إلا كلالة فكيف الميراث؟ فأنزل الله هذه الآية(١). قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله لا أدع شيئاً أهم إلي من أمر الكلالة وقد سألت رسول الله ﷺ عنها فما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيها حتى طعن بإصبعه في صدري ثم قال: (**يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي أنزلت في آخر سورة النساء**)(٢).

قوله ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يسألونك ويطلبون منك جواباً عن حكم الكلالة فقل لهم: إن الله يفتيكم فيها وهي أي: الفتوى إذا هلك امرؤ ذكراً كان أم أنثى ولم يكن له من يرثه من صلبه، وله أخت سواء كانت شقيقة، أم لأب فلها نصف ما ترك، وهو بنفس المقدار يرثها إن كانت كلالة: فإن كانتا أختين فيكون لهما الثلثان مما ترك. وإن كان للكلالة إخوة من الرجال والنساء فتكون قسمة المال للذكر مثل حظ الأنثيين.

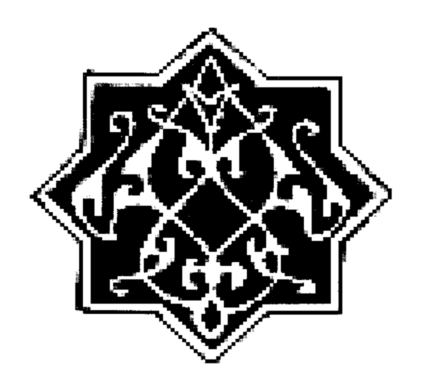
---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص٣٣٠، ومعالم التنزيل للبغوي ص٣٥٢، وزاد المسير لابن الجوزي ص٣٤٩، والحديث أخرجه مسلم في كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة، برقم (١٦١٦)، صحيح مسلم بشرح النووي ج٧ ص٤٣٩٣ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة، برقم (١٦١٧)، صحيح مسلم بشرح النووي ج٧ ص٤٣٩٥ .

أحكام ومسائل الآية:

الكلالة من له أخ أو أخت، وليس له ولد ولا ولد ولد. فإذا ترك أختاً حق لها نصف تركته، فإن كان له أختان فلهما ثلثا تركته، وإن كان له إخوة وأخوات فللذكر مثل حظ الأنثيين. والأخ يرث أخته إذا لم يكن لها ولد ولا ولد ولد. ويرث الإخوة والأخوات أختهم إذا لم تترك ولداً ولا ولد ولد والقسمة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين.



فهرس المجلد الثاني

مطابع دار البحوث الرياض
٤٨٥٢٦٦٣